أ. د. محمد عمارة

الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



وصناعة التاريخ

تأليف

أ. د. محمد عمارة

دار السلام

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد .
الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ / تأليف : محمد عمارة . - ط ١ . - القاهرة ؛ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، [٢٠٠٩م] .
٣٣٦ص ؛ ٢٠سم .
تدمك ٣ ٧٤٦ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - التاريخ .
٢ - القومية العربية .
٣ - الحضارة العربية .
أ - العنوان .

٩٠٧,٢

جمهورية مصر العربية : القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية - مدينة نصر . هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٠٠٢٠٢) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (١) : القاهرة - ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي . هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (٢) : القاهرة - ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس مدينة نصر . هاتف : ٢٢٠٥٤٦٤٢ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (٣) : الإسكندرية - ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي - بجوار جمعية الشبان المسلمين هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ (٠٠٢٠٣) - فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية . الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تقديرًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

بسم الله الرحمن الرحيم



***

تمهيد

في الوعي بالتاريخ..
وصناعة التاريخ



تمهيد



في الوعي بالتاريخ.. وصناعة التاريخ

عندما تولى الدكتور بطرس بطرس غالي أمانة الجمعية العامة للأمم المتحدة، في تسعينيات القرن العشرين، فوجئ العرب والمسلمون بتصريحه الذي قال فيه : إن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لسنة (١٩٦٧م)، الخاص بالعدوان الإسرائيلي على كل من مصر وسوريا « والأردن وفلسطين » في ٥ يونيو (١٩٦٧م)، والداعي إلى الانسحاب من الأراضي التي احتلتها إسرائيل في ذلك العدوان.. إن هذا القرار غير ملزم لإسرائيل!!...

وأوضح الدكتور بطرس غالي يومها أن السبب في عدم إلزام هذا القرار لإسرائيل بالانسحاب والجلاء عن الأرض التي احتلتها واغتصبتها من ثلاث دول عربية أعضاء في الأمم المتحدة.. هو أن هذا القرار لم يُتَّخذ بناء على أحكام الباب السابع من ميثاق المنظمة الدولية، والذي يجيز استخدام القوة لتنفيذ القرارات الصادرة بناء عليه! ..

ولعلها كانت بداية معرفة كثير من جمهور أمتنا العربية والإسلامية عن هذا « الباب السابع »، وتميز القرارات الصادرة بموجبه عن غيرها من قرارات المنظمة الدولية..

ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة من مراحل « انتعاش الذاكرة العربية والإسلامية » وتأملها في « المكاييل » التي تصدر بموجبها قرارات مجلس الأمن الدولي! ..

فاحتلال إسرائيل لأراضي ثلاث دول عربية سنة (١٩٦٧م)، وغزوها للبنان عام (١٩٨٢م)، ثم (١٩٩٦م).. واحتلالها الدائم لجزء من الجنوب اللبناني منذ نحو خمسة عشر عامًا.. وقمعها الانتفاضة الفلسطينية - التي تفجرت في ٨ ديسمبر سنة (١٩٨٧م)- وتحطيمها لعظام أطفال الانتفاضة.. وإعلانها الضم والتهويد للقدس، والجولان.. وزرعها أراضي الضفة وغزة بالمستوطنات الصهيونية.. كل ذلك لا يستحق من مجلس الأمن قرارًا ملزمًا بناء على « الباب السابع » من الميثاق!!.

والمجزرة التي أقامها الصرب في البوسنة والهرسك بمباركة من أوربا، وصَمْتٍ من أمريكا.. العدوان المسلح، وتمزيق الدولة، والتطهير العرقي، والإبادة الجماعية، والاغتصاب المنظم لعشرات الألوف من النساء والبنات، وتدمير المساجد والمكتبات والآثار التاريخية، وتهجير الملايين واقتلاعهم من ديارهم.. إلخ.. إلخ... لم يستحق شيء من ذلك الذي جرى في البوسنة - منذ إبريل (١٩٩٢م)، وعلى امتداد أكثر من أربع

سنوات - لم يستحق قرارًا من مجلس الأمن، بناء على « الباب السابع » من الميثاق؟؟!!..

وهذا الذي حدث - ولا يزال يحدث - في الشيشان، منذ ديسمبر (١٩٩٤م)، من السحق والتدمير والإبادة التي تمارسها قوة عظمى ضد شعب لا يزيد تعداده على المليون إلا قليلًا!!.. هو الآخر لم يُذكِّر « الشرعية الدولية » بأن هناك « بابًا سابعًا » في ميثاق المنظمة « الدولية » يستحق الإعمال، وأن تصدر بموجبه قرارات ملزمة لدوائر العدوان؟!..

لقد انتعشت الذاكرة العربية والإسلامية عندما تأملت هذه المآسي العربية والإسلامية في ضوء موقف المنظمات الدولية، وتجنب قراراتها الصدور بموجب « الباب السابع » من الميثاق في قضايا ومآسي العرب والمسلمين..

وكانت هذه الذاكرة تزداد انتعاشًا عندما قارنت، فوجدت أن هذا « الباب السابع » الذي يجيز استخدام القوة لتنفيذ القرارات الصادرة بموجبه قد اختص الجانب العربي وحده بقراراته.. فبناء عليه صدرت القرارات ضد العراق؛ لتجيع شعبه، وتذل أهله، وتنزع سلاحه، بل ولتنزع سيادته الوطنية عن أرضه - في الجنوب وفي الشمال - ولتمكن للقوات الغازية غربية وتركية من أن تسرح وتمرح في سماء وأرض العراق..

وبموجب « الباب السابع » صدرت قرارات الحصار ضد الجماهيرية الليبية وشعبها؛ لإجهاض التنمية فيها، ولتحويلها إلى

سد يحول دون تواصل مصر والمشرق العربي مع المغرب العربي، عقابًا لها على رفضها للتسويات الأمريكية التي تفرض على المنطقة - حتى تكون عبرة للآخرين! - وإحكامًا لعزل مصر عن المغرب بعد أن أسفرت حرب الخليج والتسويات المفروضة عن عزلها عن المشرق العربي!!..

كل ذلك، لا لشيء إلا لادعاء قائم على مجرد شبهة في قضية طائرة لوكربي! .. فلا دليل، بل ولا قرينة، بل ولا حتى تحقيق!!..

وبموجب « الباب السابع » أيضًا أصدر مجلس الأمن قراره العقابي ضد السودان.. عداء لحكومته المتمردة على الهيمنة الغربية، والمحاربة في سبيل وحدة التراب الوطني ضد قوى التمرد المدعومة من إسرائيل، والمنظمات الكنسية والتنصيرية، والأحزاب الماركسية، والحكومات الغربية العلمانية جميعًا.

وذلك حتى يتم - بحصار السودان - إكمال طوق العزلة من حول مصر.. فإسرائيل من شرقها، والسودان وليبيا من الجنوب ومن الغرب!!.. وحتى يتمكن التمرد من فصل جنوب السودان، وإقامة دويلة عميلة للغرب فيه تهدد مصر والسودان بسلاح مياه النيل.. وتغلق بوابة العروبة والإسلام دون قلب القارة الأفريقية!!..

لقد انتعشت الذاكرة العربية الإسلامية، وهي تتأمل الأحداث.. والقرارات.. وعلاقة « الباب السابع » بهذه القرارات...

***

لكنَّ هناك خطرًا على وعي الذاكرة العربية والإسلامية من أن يظل انتعاشها حبيس واقع هذه السنوات الأخيرة، لا يتجاوز أحداثها.. فتاريخ أمتنا العربية والإسلامية - على امتداد قرونه - بحاجة إلى تأمل ووعي هذه الذاكرة؛ لتدرك أنها ليست بإزاء موقف جديد أو حديث أو معاصر.. وإنما هي بإزاء ذات الموقف الغربي الذي اتخذه الغرب منها ومن قضاياها، منذ أن تبلورت هذه الأمة كثمرة من ثمرات ظهور الإسلام.

* إن مشكلة الغرب معنا - التي اصطلح البعض على تسميتها « مشكلة الشرق الأوسط »!- لم تبدأ في سنة (١٩٦٧م) .. ولا في سنة (١٩٤٨م).. ولا مع وعد بلفور سنة (١٩١٧م).. بل ولا مع مؤتمر هرتزل سنة (١٨٩٧م).. وإنما هي قد بدأت مع ظهور الإسلام، وتحريره الشرق من الاستعمار البيزنطي! والشاهد بهذه الحقيقة خبير غربي في الحرب والسياسة، هو الضابط الإنجليزي « جلوب باشا » - «أبو حنيك » - الذي عمل قائدًا للجيش الأردني حتى سنة (١٩٥٦م).. فهو صاحب العبارة « المنعشة » لوعي الذاكرة العربية والإسلامية، والتي قال فيها - وهو يقدم لأحد كتبه عن الفتوحات العربية-: « إن مشكلة الشرق الأوسط قد بدأت منذ القرن السابع للميلاد »؟؟!!..

* ولقد ظلت القسطنطينية - عاصمة الرومان البيزنطيين - تُجيِّش الجيوش ضد الدولة العربية الإسلامية، منذ ظهور الإسلام - في القرن السابع للميلاد - وحتى فتحها على يد « الفاتح » العثماني (٨٥٧ هـ - ١٤٥٣م).

* ولقد عاد الغرب - تحت أعلام الصليب - ليستعيد الشرق الذي حررته الفتوحات العربية الإسلامية.. وأقام في قلب وطن العروبة كياناته الاستيطانية على امتداد قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ - ١٢٩١م)!..

* وفي ظل الغزوة الصليبية وقعت القدس في الأسر الصليبي لأكثر من تسعين عامًا (٤٩٢ - ٥٨٤ هـ/ ١٠٩٩ - ١١٨٧م)..وتحول المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية طول ذلك التاريخ!!

وفي ظل الغزوة الصليبية، اقتحمت الجيوش الغازية أرض « مصر الفاطمية » أكثر من مرة.. وحاصروا القاهرة، وامتلكوا مفاتيح أبوابها، بل وفرضوا عليها الجزية، مستغلين الصراعات الداخلية للوزراء الفاطميين « شاور »... و « ضرغام »!..

* وبعد نجاح دول الفروسية العربية في حصار الكيانات الصليبية، عقد الغرب - بواسطة البابوية - حلفًا مع التتر الوثنيين، ضد العرب والمسلمين، فكان دمار بغداد (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) والشام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م).. حتى انهزم هذا الحلف في « عين جالوت » (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م).. وهو حلف « غربي - وثني » قديم، يمثل « تراثًا » للحلف « الغربي - الصهيوني » الحديث، ضد العرب والمسلمين؟!..

عندما نجحت العسكرية العثمانية في نقل ميدان الصراع التاريخي إلى قلب أوروبا - بعد فتح القسطنطينية - فأدخلت

الإسلام إلى البوسنة (٨٦٩ هـ / ١٤٦٣م) ضغط الغرب على بقايا الإسلام والعروبة في الأندلس، فسقطت غرناطة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م).

* وفي ذات العام - عام اقتلاع العروبة والإسلام من الأندلس - بدأت حملة الغرب لتطويق العالم الإسلامي؛ تمهيدًا لغزو الوطن العربي، وضرب قلب الأمة الإسلامية.. فبعد أشهر من سقوط غرناطة خرجت حملة « كولومبس » للالتفاف حول العالم الإسلامي.. فلما ضلت طريقها، وذهبت إلى القارة الأمريكية، خرجت - بدلًا منها - الحملة البرتغالية - بقيادة « فاسكو دي جاما » - والتي عبرت ميناء « رأس الرجاء الصالح » (٩٠٣هـ / ١٤٩٧م).. أي بعد خمس سنوات من سقوط غرناطة .. وواصل البرتغاليون طريقهم، حتى وصلوا إلى الشواطئ الإسلامية لشبه القارة الهندية.. وهناك خرج الجيش المصري لقتالهم (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)!..

* وبعد مرحلة التطويق.. واحتلال أندونيسيا.. والهند .. وصل المد الاستعماري الغربي إلى شواطئ الخليج العربي .

* ثم كان الصراع « الصفوي - العثماني » فتنة غربية، شغلت العسكرية العثمانية، وأضعفتها.. الأمر الذي أتاح للغرب بدء مرحلة الغزو والاحتواء لقلب العالم العربي.. فكانت حملة بونابرت على مصر (١٢١٣هـ / ١٧٩٨م).. طليعة الغزوة الغربية الحديثة للعالم العربي..

* وبعد فشل الحملة الفرنسية على مصر، وجلائها (١٢١٦هـ/ ١٨٠١م) جاءت إلى مصر حملة « فريزر » الإنجليزية، التي انهزمت في « رشيد » (١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م).

* ثم كان احتلال الجزائر من قبل فرنسا (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م).

* واحتلال عدن من قبل إنجلترا (١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م).

* ومنع مصر بقيادة محمد علي باشا من تجديد شباب الدولة العثمانية، بمعاهدة لندن (١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م).

* واحتلال فرنسا لتونس (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م).

* ونجاح إنجلترا في احتلال مصر (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م).

* واحتلال إيطاليا لليبيا (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

* واحتلال فرنسا للمغرب (١٣٣٠هـ/ ١٩١١م).

* وتقسيم جميع أقاليم الخلافة العثمانية بين القوى الاستعمارية الغربية وفق معاهدة « سيكس - بيكو » (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م)، ولم تكن عين الغرب - في معاهدة « سيكس - بيكو » - غافلة عن « القدس ».. حتى لقد أقيم لـ « سيكس » - الإنجليزي - في قريته « سيلدمير » بمقاطعة « يوركشاير » نصب تذكاري، يقف فيه مزينًا بالنحاس، محصنًا بالدروع، متقلدًا سيفًا، وتحت قدميه يرتمي مسلم، فوقه لفافة كتب عليها: « ابتهجي يا قدس »؟!..

* واحتلال إنجلترا للعراق (١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م).

* وإصدار وعد بلفور (١٣٣٦هـ / ١٩١٧م) - وهو الذي قنن الشراكة « الغربية - الصهيونية ».. تلك التي سبق ودعا لها بونابرت، أثناء حصاره لعكا (١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م).

* واحتلال الإنجليز للقدس (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م).. ويومها قال الجنرال الإنجليزي « أَلّلِنْبِي »: « اليوم انتهت الحروب الصليبية »!.. ونشرت مجلة « بنش **punch** » البريطانية رسمًا كاريكاتيريًّا تحت عنوان: « آخر حملة صليبية »! وفي الرسم يظهر « ريتشارد قلب الأسد » (١١٨٩/ ١١٩٩م) - الذي حارب صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣م) على أرض فلسطين - وهو يحدّق في القدس، قائلًا: « أخيرًا تحقق حُلمي »؟!..

* واحتلال فرنسا لدمشق (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م).. ويومها ذهب الجنرال الفرنسي « جورو » إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، فركله بقدمه، وقال: « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين »؟!..

* ومعاهدة « لوزان » (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م) بين « الحلفاء الغربيين » وبين تركيا، تلك التي قننت لطي صفحة الخلافة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) ليغيب هذا الرمز الإسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام.

* وإقامة إسرائيل؛ تجسيدًا « للشركة اليهودية - الغربية » على أرض فلسطين (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م).

* واحتلال كامل القدس، وبدء تهويدها (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

* ليصل الغرب إلى الاحتفال بذكرى خمسمائة عام على بدء هذه الحقبة من حقب هذا الصراع « التاريخي- الحضاري » بإقامة الدورة الأولمبية في « برشلونة » على أرض الأندلس، في ذكرى مرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام منها.. فلقد كان سقوط غرناطة (٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م) وكان الاحتفال الأولمبي في برشلونة (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)!!.

* ومع الاحتفال الغربي بمرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام من غرب أوربا.. بدأت في نفس العام (١٩٩٢م) حرب البوسنة؛ لاقتلاع الإسلام من قلب أوربا!!.. وهي الحرب التي حدد وزير الإعلام الصربي موقعها في صفحات كتاب هذا الصراع التاريخي، عندما قال: « نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة »؟!.

***

* فهل تسهم هذه التواريخ – مع قصة تاريخنا المعاصر مع « الباب السابع » من ميثاق الأمم المتحدة – في إنعاش وعي الذاكرة العربية والإسلامية بحقيقة الموقف الغربي من أمتنا عبر تاريخها الطويل؟!..

وهل تعي الأمة – ويعي الغرب أيضًا – أن وجودنا حتى اليوم، في مواقع الصمود والمقاومة، طوال هذا التاريخ – ورغم هذا التاريخ – هو شاهد صدق على أننا الأمة التي تبعث فيها التحديات روح المقاومة، وتستدعي فيها المخاطر أمضى ما في ترسانتها من

أسلحة النضال والجهاد؟!.. وأن هذا هو موقعنا منذ القرن السابع للميلاد، وحتى « الباب السابع » من ميثاق الأمم المتحدة؟!..

إن الوعي بالتاريخ باب من أبواب صناعة التاريخ!..

وتلك هي رسالة هذا الكتاب..

القاهرة: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م. د. محمد عمارة

***



الأمة العربية
في مواجهة التحديات



الأمة العربية في مواجهة التحديات

أمم كثيرة واجهت - في فترات مختلفة من تاريخها - تحديات كبرى طرحت في ساحاتها ذلك السؤال الذي يقض المضاجع: نكون؟ أم لا نكون؟!.. ومع ذلك انتصرت هذه الأمم، بعد أن استجمعت قواها، وألفت بين عوامل قوتها، وأجادت تصويب أسلحتها كلها إلى مقاتل الخصوم الذين فرضوا عليها تلك التحديات.

أمم كثيرة صنعت ذلك.. ومع هذا تبقى أمتنا العربية الإسلامية منفردة بكثرة ما فرض عليها الخصوم من تحديات، وبضراوة ما شن ضدها من معارك، وباستمرارية ذلك الصراع بينها وبين خصوم لها رغم تعاقب القرون، واختلاف الديانات، وتغير الدول، وتطور المحتوى الاجتماعي لأنظمة الحكم التي تسود عندنا أو عند هؤلاء الخصوم!..

فالموقع الحاكم الفريد: يغري !والتحكم في طرق التجارة الدولية قديمًا، وامتلاك الثروات الطائلة حديثًا: يسيل اللعاب! وكونها مهد النبوات ومهبط الرسالات وموطن الإلهام؛ ومن ثم

صانعة حضارات تميزت بالملاحظة والتجريب، وامتازت بنموذج من العقلانية التي وازنت بين الروح والجسد، والدين والدنيا، حتى لقد تفلسف فيها الدين وتدينت الفلسفة!.. كل ذلك أصبح مصدر قلق ورعب لقوى وأنظمة وأنماط تفكير ومصالح سعت للقضاء على هذه الأمة، ففرضت عليها سلسلة من التحديات الكبرى والصراعات التاريخية التي كادت أن تصبح - لتتابعها - بمثابة « القانون » الذي يحكم علاقة هذه الأمة بهؤلاء الخصوم، عبر تاريخنا الطويل!.

فموجة الغزو التي قادها الإسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) وما أثمرته من دول ونظم، قد استمرت سيطرتها بالمنطقة إلى أن حررتها منها فتوحات العرب المسلمين، عندما لبس الشرق ثياب الإسلام السياسية واستخدم شجاعة المسلمين العسكرية، فدفع تلك الموجة الغازية بعد عدة قرون من السيطرة والانفراد بالسلطة والسلطان.

وموجة الغزو الصليبي التي جاءت في العصر الوسيط (١٠٩٧ - ١٢٩١م) لتحتل ما حرره العرب بعد الإسلام، أقامت كياناتها، وفرضت تهديدها، وزرعت مخاطرها، حتى هب إعصار المقاومة الذي اقتلع جذورها، مستخدمًا في ذلك دول الفروسية وأنظمة العسكر التي بدأت بالزنكيين (١١٢٧م) في الموصل، فالأيوبيين (١١٨٧م) فالمماليك (١٢٥٠م) بالقاهرة.

أما غزاة الحضارة الصناعية الرأسمالية - في الغرب الحديث

أولئك الذين بدأت موجتهم ببونابرت (١٧٩٨م) - فلا تزال أمتنا تعالج ذيول موجتهم هذه حتى هذا التاريخ. فهي تحديات تكاد استمراريتها أن تجعل منها « قانونًا » يحكم علاقات هذه الأمة بمواطن هؤلاء الغزاة.. ومن ثم فإن الدارس لتاريخ هذه الأمة يجد نفسه أمام « تحديات » قد بلغت من العنف والكثرة إلى الحد الذي كادت أن تصبح « ظاهرة » من ظواهر هذا التاريخ.

إذن فنحن أمام « تحديات » بلغت من العنف والكثرة والتكرار إلى الحد الذي جعلها - ويجعلها - مما « تتميز » به هذه الأمة عن كثير من الأمم التي اصطدمت في مسيرتها بألوان من التحديات.

ومن ثم فلا بد وأن نكون بإزاء خاصية لهذه الأمة جعلتها تنتصر تلك الانتصارات غير العادية على تلك التحديات غير العادية، وهي الانتصارات التي لم تضمن فقط بقاء هذه الأمة عندما استعصت على الفناء أو الذوبان في الغزاة، بل جعلت من اللحظات التي بلغ فيها الخطر ذروته، وتصاعد فيها التحدي إلى القمة لحظات التجدد والتطور وامتلاك أدوات التقدم والصعود إلى طور جديد من أطوار هذه الأمة عبر تاريخها الطويل.. فنحن إذن أمام أمة تمتلك استجابة من النوع الفريد تقدمها عندما تشتد عليها الأخطار وتطبق عليها المحن وتحدق بها التحديات .. وهذه - ولا شك - إحدى القسمات الهامة في شخصية هذه الأمة، تستحق الدرس الموضوعي الذي يقيم الأمس، ويعين على مواصلة السير في ذات الطريق!..

بعد عام الفيل:

كانت الحملة العسكرية الحبشية على وسط شبه الجزيرة العربية، والتي اشتهرت بغزوة الفيل (٥٧١م) بمثابة بلوغ التحدي الموجه للعرب ولشعوب هذه المنطقة الذروة.. وفي ساحاتهم طرح السؤال: نكون؟ أو لا نكون؟!..

فالروم البيزنطيون كانوا قد فرضوا سلطتهم على مصر وأجزاء الشمال الإفريقي الواقعة إلى الغرب منها، وتعقبوا لغة مصر وتقاليدها ومذهبها الديني حتى اضمحل منه ما اضمحل، وذبل ما ذبل، وفر إلى أديرة الصحراء وكهوف الجبال ما استعصى على الاضمحلال والذبول.

ثم هم قد فرضوا سلطتهم وسلطانهم على الشام، وسطًا وشمالًا وجنوبًا، وهناك نشروا مذاهبهم في النصرانية بين العرب « الغساسنة » الذين تحولوا إلى جند في جيش بيزنطة، يساقون إلى محاربة الفرس الذين جندوا أيضًا عرب العراق « المناذرة » بعد أن استبدوا بمقدرات بلادهم، فأصبح عرب الغساسنة وعرب المناذرة يحارب بعضهم بعضًا لحساب الغير وقودًا في ذلك الصراع التاريخي بين الأكاسرة الفرس والقياصرة الروم!..

وهم كذلك - أي الروم البيزنطيون - قد أعانوا الحبشة على غزو اليمن فانتزعتها من استعمار الفرس، فتحقق لهم بذلك إحكام القبضة على أغلب أجزاء المنطقة، حتى لم يبق بعيدًا عن هذه القبضة سوى المنطقة الأكثر فقرًا والأشد وعورة: وسط شبه

الجزيرة العربية..فكانت غزوة الفيل المحاولة التي استهدفت استكمال السيطرة، والحيلولة دون اختمار - أو نمو - أية ردود فعل تتجه فيها القبائل للمقاومة التي تتصدى للتحدي الذي بلغ الذروة وأوشك أن يحقق كل ما يريد!..

وليست بمهمة - ولا هذا مكانها - تفاصيل وحقائق الأسباب التي أثمرت فشل غزوة الفيل.. وإنما المطلوب هو معرفة نوع الإجابة التي أجاب بها أسلافنا على هذا التحدي في ذلك التاريخ.

فغير الطير الأبابيل: تذكر مصادر التاريخ مقاومة القبائل العربية لجيش أبرهة ومهاجمتها له على طول طريقه من اليمن في اتجاه مكة.. وتذكر قصة ذلك الدليل « العربي » الذي خان قومه فدل أبرهة على الطريق - واسمه « أبو رغال » - وكيف مات، فرجم العرب قبره، بل وظلوا يرجمون هذا القبر حتى بعد الإسلام، إذ ظل المسلمون - دينًا - يرجمون في الحج رمز الشر ممثلًا في إبليس، وظلوا كذلك - وطنية - يرجمون- في كل الأوقات - رمز الخيانة الوطنية والقومية: « أبو رغال »!..

ولقد أثمر تقدم الخطر والتحدي إلى منطقة القلب التي ظلت وحدها بعيدة عن السيطرة والاحتواء، أثمر ذلك نمو الحس التوحيدي لدى عرب وسط شبه الجزيرة، فأسرعوا الخطو في تطورهم نحو التوحيد، بانتشار اللغة الأدبية الواحدة، وعن طريق الأسواق والمهرجانات ومواسم الحج، وسلام الأشهر

الحرم، ونشأة المنطقة الحرام.. إلخ.. إلخ، ثم بحكومة أشراف مكة التي تطلعت إلى خارج حدودها.

وعندما تمكن عرب الجنوب في اليمن من تحرير بلادهم - بقيادة سيف بن ذي يزن - جاء إلى بلاطه ممثلو حكومة مكة، يجددون الصلات، ويوثقون الروابط، ويوحدون الجهود، وأقاموا هناك شهرًا كاملًا ينجزون فيه هذه المهام.

ثم كان ظهور الإسلام بمكة - قلب وسط شبه الجزيرة - على يد محمد بن عبد الله ﷺ الذي ولد عام الفيل؟..وكان التوحيد الديني جوهر رسالته الدينية..

ومنذ البداية بدأت تبرز أفكار وأهداف التوحيد السياسي والقومي للعرب، باعتباره الوجه الثاني للعملة الواحدة، والسبيل لانحسار موجة الغزو وخطر التحديات التي أطبقت - أو كادت - على العرب من كل اتجاه.. وسمعنا عن تلك الكلمات التي تحدث بها الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى عمه أبي طالب في مراحل الدعوة الأولى، وعندما حدثه عن التوحيد الديني الذي تجسده شهادة أن لا إله إلا الله.. وكيف أن لعملة التوحيد الديني هذه وجهًا آخر سيقود العرب - أن هم اتبعوه - إلى كنوز كسرى وملك قيصر! يقول الرسول لأبي طالب: ياعم! إنما أدعوهم إلى كلمة يوجد لهم منها خير.. كلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم.

وفي يثرب - المدينة - حيث كان اليهود قد غزوها بعد شتاتهم، وكما يقول الجاحظ (٧٧٥ - ٨٦٨ م) استعمروها بالسيطرة على واحاتها الزراعية، وحولوا عربها إلى « موالي » - مواطنين من الدرجة الثانية - الأمر الذي أسرع بعرب يثرب إلى الإيمان بالدين الجديد، وإبرام عقد تأسيس الدولة العربية الإسلامية مع الرسول في بيعتي العقبة، حتى لا يسبقهم اليهود إلى تلك الراية.. فكانت الدولة التي قدر لها أن تقود الفتوحات التي أنهت سيطرة بيزنطة على الشرق، وغيرت الخريطة السياسية والحضارية للعالم، فتشكل تاريخه على نحو جديد.. بعد أن خُيِّل لخصوم هذه الأمة - يوم غزوة الفيل - أن بداية نهايتها قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

فبعد كتب الرسول ﷺ ورسائله وسفاراته إلى الحاكمين في فارس والشام ومصر والحبشة، تقدمت الجيوش العربية- منذ أواخر عهد أبي بكر وخلال خلافة عمر بن الخطاب - تقدمت في المشرق والمغرب والشمال، لا لتعتدي.. فهي لم تحارب - أساسًا - العنصر الوطني، وإنما حاربت - أساسًا - حاميات الروم البيزنطيين، ولا لتفتح فتحًا دينيًّا تدخل الناس بواسطته إلى دين الله الجديد، فالإيمان تصديق بالقلب - أي باليقين - واليقين غير التسليم؛ ومن ثم فلم ولن يعرف التاريخ السيف سبيلًا إلى اليقين!.. ثم لقد كان هذا الفتح موجة من الانتشار الواسعة، أسهم فيها بدور بارز: الأعراب - الذين انخرطوا في هذا المد القومي والسياسي، دون أن يدخل الإيمان بالدين الجديد إلى

قلوبهم - والمؤلفة قلوبهم: الذين حاربوا بالأجر لا الإيمان، وعرب الشام والعراق: الذين انخرطوا في الجيش العربي الفاتح دون أن يغيِّروا ديانتهم.. فحارب نصارى العرب الغسانيون تحت قيادة المسلمين ضد نصارى الروم البيزنطيين - دون أن يدفعوا الجزية - فأسهموا في بناء الدولة العربية بعد تحرير ولاياتهم من سيطرة الروم.. وقبط مصر: الذين أعانوا على فتحها، وساعدوا جيش عمرو بن العاص ضد الحاميات البيزنطية.. وكذلك فعل البربر في الشمال الإفريقي، الأمر الذي أثمر إمبراطورية اجتمعت عناصرها الوطنية فتسلحت بشباب الدين الجديد، واستعانت بفتوة المؤمنين به على دفع السيطرة الأجنبية عن أرضها، وأنجزت هذه المهمة في سنوات قليلة، بينما حدث التعريب والتحول إلى الإسلام من قبل الأغلبية في عدة قرون، كأية عملية حضارية تبدأ وتنمو وتكتمل وفق ما تحدده لها سنة التطور من قوانين.

وما على الذين يريدون أن تطمئن قلوبهم إلى الصلة الوثيقة بين دولة المسلمين الكبرى وفتوحاتهم العسكرية المظفرة، وتوحيدهم القومي لتلك المنطقة؛ إجابة على التحديات التي هددت وجودهم، وقهرًا للأخطار التي كادت تطبق على آخر معاقلهم المستقلة عام الفيل.. صلة كل ذلك برسالة السماء إليهم، ودعوة القرآن لهم كي يؤمنوا برسوله الكريم.. ما على الذين يريدون أن تطمئن قلوبهم إلى هذه الحقيقة وتلك الصلات إلا أن يتأملوا تلك الآية القرآنية التي تحدثت عن أثر

الإسلام على وحدة العرب، وكيف مهد لهم إنجازات تلك المهمة التي أنقذتهم من ذلك التمزق والشتات الذي كانوا عليه يوم سقط معظمهم في براثن أعدائهم، فأصبحوا فريسة تتخطفها الطيور الجوارح المتمثلة في المخاطر والتحديات « البيزنطية - الفارسية »، لقد كادت التحديات أن تميتهم، ثم كانت استجابتهم للتوحيد القومي إحياءً لهم جابهوا به هذه التحديات.

يقول - سبحانه - للعرب في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ثم يذكرهم بما كانوا عليه؛ فيقول ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٦].

أما التحديات التي تمثلت في هؤلاء الناس الذين كانوا يتخطفون العرب، فلقد عرفها العرب الذين نزل عليهم القرآن جيدًا، وأدركها المفسرون لآياته عندما قالوا: إن الخطاب هنا موجه للعرب كافة؛ فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم.

وهكذا حدثت أولى وحدات العرب القومية في التاريخ، وهي الوحدة التي امتدت برباط التعريب وقسمات العروبة بعد الفتوحات لتشمل ما بين الخليج والمحيط.

ومنذ عصر تلك الفتوحات - وحتى اليوم - وقف كل الدارسين مشدوهين أمام ظاهرتها، وخاصة تلك السرعة

القياسية التي تمت بها.. والبعض قد نسب ذلك إلى ضعف الخصوم وشيخوخة نظمهم العسكرية والحضارية.. وظل الكثيرون بعيدين عن أن يبصروا الدور الحاسم لتلك الخاصية التي امتازت وتميزت بها شخصية هذه الأمة: الرؤية والبصر الواعي - عندما يحدق الخطر - لسر تفوق الخصم، وتحصيل هذا السر وامتلاك أسبابه، ثم الاستجابة القوية والإيجابية للتحديات، وتحويل اللحظات التاريخية التي يُخَيَّل فيها للخصوم أنهم قد أوشكوا على جني الثمار إلى لحظات الهزيمة لمخططاتهم، والانطلاق إلى رحاب دور حضاري جديد على درب تطور هذه الأمة الدائم والطويل.

وليس غير رصد هذه القسمة من خلال صراعات هذه الأمة العديدة - عسكرية أو فكرية أو حضارية - السبيل لجلاء ما تمتاز وتتميز به هذه الأمة في هذا الميدان.

***

البعد الحضاري في صراعات الأمة العربية





في دوائر الفكر والثقافة - بالوطن العربي - يزداد ويتسع الاقتناع بأن الصراع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي تخوض الأمة العربية معاركه ضد أعدائها هو في حقيقته جزء من كلٍّ، ومظهر من مظاهر الصراع التاريخي الذي خاضته هذه المنطقة منذ عصور سحيقة ضد أعدائها، والأوربيين منهم على وجه التحديد.

فمثل دورات المد والجزر في المحيطات، ومثل الأعاصير والتيارات العاصفة المتصارعة والمتعاكسة، كانت القوانين التي حكمت صراع منطقتنا ضد السيطرة الأجنبية، وكانت الحركة التي جسدت هذا الصراع عبر تاريخها الطويل..

فقبل ظهور الإسلام كان العنصر الفارسي هو قائد الشرق الذي تصدى لزحف الإغريق، وخاض معهم حروبًا امتدت قرونًا حتى أنهكت طرفي الصراع.. وعندما استطاعت الموجة الغازية التي قادها الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أن

تجسد سيطرة الغرب على الشرق، كانت قوانين الصراع تفتح الباب لبروز العنصر العربي الذي تسلح بالإسلام عند بزوغ فجره، فحارب تحت راياته..وشهد التاريخ يومها كيف انتظم الشرقيون: العرب الذين آمنوا بالدين الجديد، والأعراب الذين أسهموا في بناء الدولة الإسلامية دون أن يدخل الإيمان بالدين إلى قلوبهم، والعرب الغساسنة المسيحيون، وأقباط مصر المسيحيون، وبربر الشمال الإفريقي الوثنيون..أسهم هؤلاء العرب والشرقيون جميعًا - تحت رايات الإسلام - في صد الموجة البيزنطية الغازية، وتتبعوا فلول حامياتها العسكرية، وبنوا تلك الإمبراطورية التي أعطت العنصر العربي دور القائد في هذا الصراع التاريخي بدلًا من الفارسيين..

ثم جاءت الحملات الصليبية (١٠٩٦ / ١٢٩١م) كي تعيد سيطرة الغرب على الشرق من جديد، وعاشت دويلاتها وكياناتها العنصرية الاستيطانية حتى اختلج ضمير هذه الأمة، فأفرز الأنظمة المؤسسة على فروسية العصور الوسطى، ذات الشمائل الإسلامية والتقاليد الشرقية والعربية، وأهمها الدولة الزنكية (١١٢٧ / ١٢٦٢م) وقائدها البارز نور الدين الشهيد (١١١٨/ ١١٧٤م) والدولة الأيوبية (١١٧١/ ١٢٥٠م) وبطلها المظفر صلاح الدين (١١٣٧/ ١١٩٣م) فدفعت بالموجة الصليبية إلى الوراء، حتى أجهز عليها المماليك بتحرير الملك الأشرف لآخر حصن للصليبيين - عكا - ١٢٩١م.

ثم جاء الغزو الاستعماري الأوربي، مع مطلع العصر الحديث، ليبدأ جولة جديدة في ذلك الصراع التاريخي القديم، وهي الجولة التي أقامت الكيان الصهيوني العنصري؛ كي يمارس مهام الكيانات الصليبية في العصر الوسيط، ولا زالت شعوب أمتنا تعالج حتى اليوم قضايا ومعارك صراعها مع هذه الغزوة التي بدأت بحملة بونابرت (١٧٩٨م).

هو- إذن - صراع قديم، تغيرت الخرائط الدينية واللغوية والقومية لأطرافه، ولكن جذوره ظلت كامنة تفرز المعارك وتذكي الصراعات..

والذين يلقون نظرة - ولو سريعة - على الخريطة السياسية لعالمنا المعاصر، يرون الكثير من بؤر الصراع ومناطق التفجر، غير منطقتنا العربية، لكن مختلف أطراف الصراع في منطقتنا يعترفون ويعلنون أن لصراع هذه المنطقة « حساسية » و « خطورة » تميزه عن غيره من صراعات المناطق الأخرى..

والبعض - اليوم - يُبَسِّط أسباب هذه الحساسية والخطورة تبسيطًا مخلًّا، عندما يرجعها إلى ما في جوف هذه المنطقة من ثروات - أهمها البترول - أو إلى الاتجاه نحو أنظمة اجتماعية لا يرضى عنها الغزاة..ومن قبل حاول آخرون أن يردوا أسباب هذه الحساسية والخطورة إلى الموقع الفريد لهذه المنطقة، كمعبر للتجارة العالمية وهمزة وصل لأهم قاراته.. ولكن قدم هذا الصراع الحساس والخطير، وسبقه على اكتشاف البترول وعلى الاتجاه نحو الأنظمة الاجتماعية الجديدة، واستمرار احتدامه حتى

في الفترات التي تحولت فيها طرق التجارة من قلب المنطقة إلى ما حولها، يدعونا إلى أن نبحث عن أسباب « حساسية » هذا الصراع و « خطورته » في غير ما هو متبدل ومتغير وطارئ من العوامل والظروف..

***

وهذه المقدمة التي تثير قضية لتطلب لها حلًّا، تقف بنا أمام المقولة التي نريد أن نلفت إليها الأنظار.. مقولة: (إن لصراع هذه الأمة ضد أعدائها طابعًا حضاريًّا موغلًا في القدم، وسابقًا على كل الملابسات الآنية والمتغيرة، ووثيق الصلة بالطابع المميز لهذه الأمة عن أعدائها.. وهو « حساس » و« خطير »؛ لأن هذه الأمة ليست مجرد شعب يسعى للاستقلال والتقدم، وإنما هي أمة صاحبة عطاء حضاري قديم..وهي اليوم لا تنشد حريتها وتقدمها ووحدتها لتضيف - فقط - إلى معسكر الأحرار أمة جديدة، وإنما لتعود من جديد إلى مواصلة العطاء الحضاري، بل ولتقفز إلى صدارة الأمم التي مارست هذا اللون من العطاء عبر تاريخ الإنسانية الطويل!)..

وإن الوقفة المتأملة المتأنية أمام هذه المقولة تدعونا إلى أن نقدم بعض التفصيل في عدد من النقاط:

● فأولًا: إن تاريخ الإنسانية الحضاري قد عرف نوعين من الحضارات التي تميزت بالعراقة والأصالة والعمق والعطاء..

نوع اتصف بكل ذلك ولكنه ظل محليًّا، اقتصرت تأثيراته

على مواطنه وأمته، أو وقفت هذه التأثيرات عند الشعوب التي جاورت مواطن هذه الحضارات.. وفي هذا النوع تدخل الحضارة الصينية القديمة والحضارة الهندية.. أما النوع الثاني فتمثله تلك الحضارات التي اتخذت طابعًا عالميًّا، وامتدت بتأثيرها ليشمل أممًا وشعوبًا عاشت بعيدًا عن مهد هذه الحضارات..ومن أبرز حضارات هذا النوع: الحضارة « الإغريقية » والحضارة « العربية -- الإسلامية »..

● وثانيًا: لقد تميزت الحضارة « العربية - الإسلامية » عن حضارة الإغريق واليونان باستفادتها الكبرى من المنابع الحضارية التي عاشت في المواطن التي كونت أجزاؤها إمبراطورية العرب والمسلمين.. فالإسلام الذي كشف عن مميزات العنصر العربي قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خير ما في حكمة الصين وفلسفة الهنود وسياسة الفرس، بل وتراث اليونان، ثم أخذ يضيف إليها - أخيرًا - ما دلته عليه الكشوف الحديثة من نواحي عبقرية المصريين القدماء..

وهذه الميزة التي امتازت بها الحضارة « العربية - الإسلامية» ليس مبعثها الموقف « الانتقائي - التلفيقي »، وإنما مردها إلى الطابع التحرري الذي حكم بناء الدولة العربية منذ الفتوحات العربية الإسلامية الأولى، وهو طابع جعل من هذه الدولة الوارث الشرعي لثمرات الأمم المقهورة، ولم يجعلها - كما كانت بيزنطة، مثلًا - القوة القاهرة التي تفرض طابعها الحضاري ومذهبها الديني على الآخرين.. ومرد هذه الميزة كذلك إلى

« الموقف الوسطي » الذي غلب على نهج العرب المسلمين في التفكير، وهو الموقف الذي رفض التطرف، فتقبل العناصر المتعددة والقيم المتنوعة، وأتاح لها مناخ التفاعل والائتلاف حتى صارت بناءً حضاريًّا متميزًا..

ولقد أثمر هذا الغنى الحضاري في المصادر والمنابع غنًى وثراءً في العطاء، ليس في حاجة إلى إيضاح أو تفصيل..

● وثالثًا: إن الحضارة « العربية - الإسلامية »، من بين الحضارات العريقة ذات الطابع العالمي، تنفرد الآن بوجود أمتها وشعوبها التي تؤمن بها، وتعيش في كنف قيمها، وتتحصن في معاركها وصراعاتها بحصونها، وهذه الأمة وهذه الشعوب لا زالت صالحة لدخول الساحة العالمية كي تواصل وتمارس التأثير والعطاء الحضاري من جديد .. وهذه هي المهمة التي بدأت تتجه إليها منذ مطلع القرن الماضي، ولا زالت تناضل في سبيلها.. وهي أيضًا المهمة التي يقاتل دون نجاحنا فيها أعداء كثيرون!

حقًّا إن حضارة الإغريق واليونان قد طبعت الحضارة الأوربية الحديثة، وأصبحت لها تراثًا، ولكن أوروبا ليست أمة واحدة ولا قومية واحدة، كما هو حال الجماعة البشرية التي تمثل الحضارة « العربية - الإسلامية » بالنسبة لها المنطلق والحصن ومنظار الرؤية والسلاح.. فهي ميزة تنفرد بها حضارتنا وتتميز عن الحضارات العريقة ذات الطابع العالمي.

● ورابعًا: إن شعوب أمتنا العربية تتاح لها اليوم فرصة ذهبية لتستفيد من طاقاتها الخلاقة، ومن ثرواتها، وبما لديها من أوراق وأسهم بميدان المنح والمنع في الصراعات الدولية الراهنة.. لتستفيد بكل ذلك في إنجاز مهمتها الرئيسية المعاصرة، وهي: العودة - مرة ثانية - بالتحرر والتقدم والوحدة إلى ممارسة دورها التاريخي في العطاء الحضاري، والإسهام في تشكيل الوجدان الإنساني بالقيم الأصيلة والمتقدمة التي سبق وأن مارست العطاء والإسهام بها في فترات طويلة من التاريخ.

فهو - إذن صراع حضاري كان كذلك - ولا يزال - وسيظل ما بقي في هذا العالم مبرر لبقائه.. هذا هو سر دوامه، رغم تبدل العوامل الآنية والمتغيرة عبر تاريخه الطويل..وهو نفس سبب ضراوته وشراسة معاركه وقسوتها، وهي الضراوة والشراسة والقسوة التي تتزايد حدتها، رغم ما يغلفها أحيانًا من أغلفة لا تنجح في حجبها عن بصائر الباحثين ومصالح أطراف الصراع!

ونحن عندما ندرك هذه الحقيقة نلمس أن دراستها - بالعمق والتفصيل الضروريين- لا تدخل فقط في باب الدراسات التاريخية المتعلقة بتقييم صفحات الماضي الذي غبر وانقضى، بل نجدها - قبل كل شيء - دراسة لإستراتيجيتنا في صراعنا الراهن والمستقبل ضد ما يعترض طريق هذه الأمة من تحديات..

فالهدف ليس فقط تحرير الأرض واستخلاص الثروة وامتلاك

سبل العصرية ومناهج التقدم..وإنما الهدف هو-أيضًا- توظيف كل ذلك في سبيل بلورة الشخصية الحضارية العصرية لهذه الأمة، تمكينًا لها من العودة ثانية كي تعطي حضاريًّا على نحو أكثر استنارة وفاعلية وغنًى مما كانت عليه في عصور ازدهارها التي شهدت عطاءها الحضاري القديم..

وإذا كان الهدف الأصيل والكبير لنضال هذه الأمة هو أن تعود - بالتحرر والتقدم والوحدة - إلى موقع الصدارة والتأثير الحضاري.. فلعل في ذلك ما يعيننا على فهم بعض المواقف التي يستعصي أحيانًا فهمها على الكثيرين منا، مواقف الذين تتفق مصالحهم مع مصالحنا في: التحرر، والتقدم ..ولكنهم لا يتعاطفون مع أماني هذه الأمة في الوحدة، التي بدونها لن تقفز من مواقع « الشعوب المتحررة » إلى موقع « الأمة صاحبة العطاء الحضاري » الذي يؤهلها لمكان الصدارة الذي تريد!

كما أن وعينا لهذه الحقيقة يفرض علينا أن نتساءل: ما هي القسمات الأصلية في حضارتنا « العربية - الإسلامية » التي مكنت هذه الأمة من ممارسة دورها المعروف في « العطاء الحضاري »؟؟ وما هي القسمات التي طرأت فدخلت بهذه الأمة إلى موات العصور المظلمة، والتي لا زالت تحد من قدراتنا على الانعتاق والانطلاق؟؟..

ذلك أن فتح هذا « الملف » (ملف تراثنا العربي - الإسلامي) سيضع يدنا على القسمات الأصيلة في حضارتنا، والتي نستطيع

بالانطلاق منها أن نبلور ذلك الزاد الحضاري المعاصر كي تتقدم به أمتنا إلى الساحة العالمية.. أما إذا استمسكنا بالقسمات التي طمست فاعليتنا الحضارية فإننا نكون بذلك - شئنا أم لم نشأ، بوعي أو بحسن نية - قد وضعنا جهودنا وطاقاتنا في خدمة الأعداء، الذين كانوا - ولا يزالون - يناضلون ضد تبوؤ هذه الأمة لمكانها الطبيعي، كواحدة من الأمم الكبرى ذات العطاء الحضاري العظيم!

* * *



الوعي بالتاريخ
والمستقبل العربي



الوعي بالتاريخ والمستقبل العربي

قال أسلافنا القدماء - من علماء التاريخ وكُتَّابه -: إن قراءة التاريخ تضيف لقارئه عمرًا ثانيًا، وإنها - من ثم - تضاعف العمر؛ لأنها تضيف إلى عمر القارئ عمر الشعوب والقادة والأبطال الذين قرأ تاريخهم، عن طريق إكسابه خبراتهم، وجعله يعيش ما عاشوا من أحداث ووقائع وأيام..

ولما كان كلام أسلافنا القدماء عن « قارئ » التاريخ، فإننا نستطيع أن نضيف هنا: أن « الوعي » بالتاريخ يكسب أصحابه إلى جانب عمرهم وعمر أسلافهم أيضًا عمر الأجيال التي لم تأت بعد!!.. لأن « الوعي » بالتاريخ تتجاوز فائدته وثمراته حدود الاستفادة بهذا « الوعي » في حياتنا الحاضرة وبناء واقعنا المعيش، إلى التأثير في المستقبل - القريب منه والبعيد - ومن ثم فنحن نضيف إلى أعمارنا - إذا « وعينا » تاريخنا - أعمار الأقدمين، ونسهم كذلك في زيادة أعمار الأجيال القادمة، بما

نضعه على دروبها من أضواء، وما نقدمه لتجاربها وخبراتها من إضافات ..

ومن هنا حق لنا أن نقول: إن « الوعي » بالتاريخ إنما يمثل سلاحًا من أكثر الأسلحة فعالية في بناء مستقبل الأمة التي تجاوز أبناؤها حدود « القراءة » لتاريخها إلى رحاب « الوعي » بهذا التاريخ..

وإذا كانت الفروق الجوهرية بين « قراءة » التاريخ، وبين « الوعي » بهذا التاريخ من الوضوح لدى أصحاب الثقافة التاريخية إلى الحد الذي يجعلنا نمر عليها دون إفاضة في الحديث، فإننا نود أن ننبه إلى أن قضية « الوعي » بالتاريخ لا تتطلب فقط « ذكاء » الدارس والباحث والمؤرخ، وقدرته على « الفهم » والتحليل، وإنما لا بد لهذه المهمة من الارتكاز على منهج علمي في دراسة التاريخ وتناول صفحاته وأحقابه وأحداثه، والعلاقات التي تربط ربطًا موضوعيًّا وجدليًّا بين ما يراه البعض ركامًا من الأحداث، ومن ثم اكتشاف الروح السارية دائمًا والنامية أبدًا في هذا التاريخ، ودرجة النمو واتجاه السير، وعلاقات ذلك بالقوى الاجتماعية والتيارات القومية والتأثيرات الداخلية والمؤثرات الخارجية، وعوامل المد والتصاعد وقوى الجزر والهبوط التي اعترضت وتعترض مسار الأمم والطبقات في هذه المسيرة التي لا زالت زاحفة، والتي بدأت مع بدء الإنسان ممارسة الحياة..

وإذا شئنا أن نخرج من إطار التعميم والصياغات المجملة إلى تلمس الأمثلة التي تجعل من هذا التعميم وتلك الأحكام حقائق واضحة الدلالة، ودروسًا مفيدة في واقعنا العربي الراهن ومستقبلنا القومي المأمول، فإننا نستطيع أن نقدم العديد من الأمثلة الدالة على أن « الوعي » بالتاريخ العربي والإسلامي هو أمر شديد النفع، بل وضروري ضرورة قصوى لبناء المستقبل العربي المتحرر والمتقدم والمتحد على الصورة التي يحلم بها الإنسان العربي في وطنه القومي الكبير..

الوطن القومي..والجسم الغريب:

فنحن إذا نظرنا - مثلًا - في واقعنا العربي الراهن، ونظرنا في الأبعاد الحقيقية لذلك الحلف غير المقدس، القائم اليوم بين الحركة الصهيونية العنصرية وبين الإمبريالية، وسعيهما معًا منذ تكوين الحركة الصهيونية الحديثة سنة (١٨٩٧م) لإقامة ذلك الكيان العنصري الغريب في قلب الوطن العربي؛ كي يقطع « وحدة الأرض العربية » فيفقد حركتنا القومية العربية شرطًا ضروريًّا وأساسيًّا من شروط وجود القومية - أية قومية - ويلعب دور « القبضة الحديدية » التي تستخدمها الإمبريالية في ضرب قوى التحرير والتقدم العربية؛ حتى لا تتجاوز مواقع تخلفها وتفككها وآفاق العصور الوسطى.

وإذا نظرنا نحن في هذا الواقع الراهن الذي نعيش أحداثه، ونتصدى بالشجاعة والحزم لتغييره، ثم نظرنا في تاريخنا، وحاولنا « وعي » صفحات ذلك الصراع التاريخي القديم

والمستمر بين شعوب هذه الأمة وبين الغزاة والطامعين، فإننا سنجد « بالوعي » وحدة في قوانين ذلك الصراع التاريخي، رغم اختلاف العصور، وتبدل الأشكال..

فمثلًا.. عندما قامت دولة العدو الصهيوني سنة (١٩٤٨م) كانت هناك أفكار عرضها الوسيط الدولي « الكونت برنادوت » تطلب إعطاء جنوب صحراء النقب للفلسطينيين كي تكون جزءًا من دولتهم التي حددها لهم قرار التقسيم سنة (١٩٤٧م) وكان اقتراح برنادوت هذا يعني الإبقاء على « الاتصال الأرضي » بين المشرق العربي ومصر والمغرب العربي.. ولكن هذا الاقتراح،ومن ثم ذلك « الاتصال الأرضي » كان يتعارض جذريًّا مع المخطط الإمبريالي الذي يريد « جسمًا عنصريًّا غربيًا » يفقد حركة القومية العربية أحد الشروط الهامة الضرورية لوحدتها.. فكان تفاهم « وايزمان » مع « ترومان » على أن أي تقسيم لصحراء النقب يجب أن يكون - إذا كان - رأسيًّا لا أفقيًّا، وأن الدولة الصهيونية لا بد وأن تطل على خليج العقبة؛ حتى تقطع الوحدة الأرضية للأمة العربية.. وبالفعل كان ذلك، بل وكان القتل نصيبًا لبرنادوت جزاء لتفكيره في هذا الأمر المحظور؟!.

فهنا.. لم تعد صحراء النقب - وبالذات قسمها الجنوبي - مجرد صحراء، ولا هي فقط مساحات تقاس بالكيلومترات، وإنما غدت كيانًا حيًّا يستطيع أن يضمن وحدة أرض الأمة العربية، فيحقق لها إحكام الحصار من الشرق والجنوب والغرب

والشمال حول هذا الكيان الصهيوني الإمبريالي الغريب، فلا يبقى أمامه - عندما يشتد الحصار إحكامًا - إلا منفذ البحر المتوسط يلفظ عبره إلى حيث وفد، فهو الباب الذي منه جاء؟!

وبعد أن نجحت الصهيونية في تحقيق ذلك، وامتد كيانها - عازلًا المشرق عن مصر والمغرب - من مياه البحر المتوسط إلى مياه البحر الأحمر.. راودت بعض الدوائر العربية - وخاصة في مصر سنة (١٩٥٥م) - فكرة إقامة جسر يربط جنوب سيناء بالشاطئ الشرقي لخليج العقبة، مما يحق الوحدة الأرضية لشعوب الأمة العربية، ويسهم في إحكام الحصار حول الكيان الصهيوني، وخاصة من الجنوب.. وأنا لا أستبعد أن تكون هذه الأفكار قد لعبت دورًا في قرار إسرائيل بغزو مصر سنة (١٩٥٦ م)، وهي لا بد قد كانت وراء الموقف الأمريكي الذي ضمن لإسرائيل المرور الملاحي في خليج العقبة؛ كي تكسب - ضمن ما تكسب - محاولة الحيلولة دون قيام هذا التطويق من الجنوب، فهي تمر بسفنها من خليج العقبة، وعلى شاطئه الغربي تقوم قوات « البوليس الدولي ».. ومن ثم نامت فكرة الجسر الذي يربط سيناء بالشاطئ الشرقي للخليج..

وبعد عدوان يونيو سنة (١٩٦٧م) أرادت إسرائيل بمطلبها الذي أصر على السيطرة على شريط ساحلي يمتد من ميناء إيلات إلى شرم الشيخ، أرادت شيئًا هامًّا وخطيرًا، حسبه الذين لا « يعون » التاريخ ضمانًا لأمن ملاحتها في الخليج، ثم عادوا يتعجبون من حديث إسرائيل عن رغبتها في السيطرة على هذا

الشريط، حتى بعد حرب أكتوبر سنة (١٩٧٣م) والحصار الذي فرض أثناءها على باب المندب.. وتساءل أولئك الذين لا « يعون » التاريخ: ما قيمة شرم الشيخ إذا كان مفتاح باب المندب يلغيه ويشل فعالية تأمينه لملاحة وتجارة إسرائيل؟!.. ولم يدرك هذا البعض أن إسرائيل تريد أن تعمق العازل الذي يمثله كيانها؛ كي تحول نهائيًّا دون وحدة الأرض العربية، وتمنع كلية إمكانية تطويقها وحصارها من الجنوب؛ لأن هذا التطويق يعني بالنسبة لها حتمية ملاقاة نفس المصير الذي لاقته الكيانات الصليبية الاستعمارية في ذات البقعة بالعصور الوسطى، وهي الكيانات التي أقيمت لتحقيق نفس الأغراض، والتي لم يستطع العرب اقتلاعها إلا بعد أن أحكموا من حولها حصارهم الأرضي، ووحدوا من حولها إرادتهم السياسية والقومية، فلم يبق أمامها سوى بوابة البحر المتوسط لُفظت عبرها، كما جاءت من خلالها..

إذن « فالوعي » بتاريخ صراعنا ضد الغزاة، وبالذات ضد الكيانات الصليبية يستطيع أن يجعل بصرنا وبصيرتنا أكثر بعدًا ونفاذًا وعمقًا في رؤيتنا لأبعاد مخططات الأعداء، ويساعدنا بما يضيفه لنا من خبرات – هي أعمار أسلافنا وعرقهم وجهادهم – تمثل بالنسبة لنا زادًا في صراعنا الراهن الذي تخوضه أجيالنا الحاضرة، والذي ستسهم لصالح العرب أجيال عربية قادمة على وجه اليقين..

والذين « يعون » الأهداف التي رسمتها « الدولة الزنكية » التي نشأت في « الموصل » سنة (١١٢٧م)، والتي اهتمت بمؤسسات الفروسية العربية كي تقهر بها فرسان الإقطاع الصليبيين، وكيف أخذت هذه الدولة توحد الإمارات العربية وتحرر المناطق التي احتلها الصليبيون حتى أتمت تطويق الكيان الصليبي من الشمال والشرق، ثم جاءت الدولة الأيوبية في مصر كي تصل هذا الطوق بالغرب والجنوب، الذين « يعون » ذلك يدركون قيمة « الوعي » بالتاريخ في خدمة المستقبل العربي على كل المستويات وفي مختلف الميادين..

والذين « يعون » أحداث الغزوة الصليبية التي احتلت « دمياط ».. في مصر - سنة (١٢١٨م) - زمن الملك الأيوبي الكامل، والتي استمرت أربعين شهرًا، يستطيع « وعيهم » لهذه الأحداث أن يسهم في تحديد مسار خطونا في حاضرنا ومستقبلنا في هذا الصراع الذي نخوضه وسنخوضه مع الإمبريالية وكيان الصهيونية الغريب..

ففي المفاوضات التي دارت في فترة من فترات هذه الغزوة عرض الصليبيون على « الملك الكامل » أن تجلو جيوشهم عن دمياط في مقابل استعادتهم عددًا من الحصون والقلاع والمدن التي سبق أن حررها من احتلالهم بفلسطين صلاح الدين.. ووافق « الملك الكامل ».. ولكن المباحثات تحطمت على صخرة إصراره على الاحتفاظ بالحصون والقلاع التي تتحكم في الجزء الجنوبي من فلسطين، وبالذات حصني « الكرك » و «الشوبك»؛

لأن هذا الجزء هو طريق الوحدة بين المشرق العربي ومصر والمغرب، وهو السبيل الأوحد لإحكام الحصار حول هذا الكيان الغريب، حتى يحين الحين لاقتلاعه نهائيًّا من جسم الوطن العربي الكبير..

تحطمت المفاوضات على هذه الصخرة، وحسم القتال المعركة، وتحررت دمياط بالسلاح، واحتفظت الدولة الأيوبية بوحدة الأرض التي تحكم الحصار حول الصليبيين. إنها نفس قطعة الأرض التي قتل بسببها « برنادوت »؟! والتي تريد الصهيونية أن تصنع لها امتدادات جديدة تصل بها إلى شرم الشيخ؛ كي تبعد عن سمائها شبح التطويق العربي الذي لا يدع لها مصيرًا آخر غير مصير الصليبيين؟!..

ذلك مثل واحد من الأمثلة العديدة التي يستطيع « الوعي » بالتاريخ أن يحوله من مجرد « صفحة تقرأ » و « أحداث تُحفظ » إلى « تيارٍ حيٍّ وفعال » يسهم في الحاضر والمستقبل إسهامًا بلا حدود.. هو مثل يستطيع المرء أن يبصر على ضوئه قيمة سيناء كرباط ضروري ووحيد لوحدة الأمة العربية، وقيمة تعميرها كي تتحول إلى جسم جيد التوصيل والربط والتأليف[1]، ذلك أن « الوعي » بالتاريخ ينقل « الأرض » من إطار « الرمل والطين » إلى إطار « الكائن الحي » الذي يعني الكثير والكثير في صنع الأحداث وتقرير المصائر للأمم والشعوب..

---

(١) انظر في هذا الكتاب دراسة: « سيناء الشرط الثالث للقومية العربية ».


بالفروسية كَسَرَ
العربُ شوكة الصليبيين



بالفروسية كَسَرَ العربُ شوكةَ الصليبيين

في الصراع الحضاري والتاريخي الذي استمر قرونًا بين الشرق العربي والغرب الاستعماري اكتسبت الشخصية العربية وضوحًا وصلابة في قسماتها النضالية، وكان ذلك بعضًا من حسنات هذا الصراع، ولما كان صراعنا الحضاري هذا لا يزال قائمًا - رغم تبدل الظروف وتغير الأشكال وتنوع المضامين - فإن الكشف عن إيجابيات الشخصية العربية التي مثلت أسلحة استعان بها الإنسان العربي في صراعه هذا هو أمر حيوي، يجعل من بعض ألوان الدراسات التاريخية إسهامًا في معالجة القضايا الراهنة، بل والمستقبلية.. وعندئذ يصبح التاريخ علمًا وفنًّا تتجاوز ثماره نطاق الوعي الماضي، لمجرد الوعي؛ لأنه في هذه الحالات يضيف إلى عمر الأحياء أعمار الأسلاف عندما يسلح الأجيال الحالية والمستقبلة بخبرات القدماء وثمرات صراعاتهم ضد الأعداء..

والقسمة التي تود هذه الصفحات لفت النظر إليها، والتدليل عليها، من قسمات الشخصية العربية: هي أن هذه الشخصية - لعوامل كثيرة من بينها طول الصراع الحضاري بينها وبين الطامعين في احتوائها والاستيلاء على موطنها ومقدراتها - قد اكتسبت خاصية الاستجابة المتحدية والانتفاضة الإيجابية ضد ما يقتحم عليها حياتها ووطنها من أخطار وتحديات، الأمر الذي حفظ لها ذاتيتها المتطورة، فاستعصت على المصير الذي لاقته أمم أخرى انقرضت أو ذابت في موجات من الغزو لم تبلغ مبلغ الغزو الذي تعرض له العرب عبر تاريخهم الطويل.

والحدث الذي تتخذ منه هذه الصفحات مادة للدلالة على هذه الحقيقة هو ذلك الصراع الدامي والطويل الذي عرفته منطقتنا مع الغرب الاستعماري في العصور الوسطى، والذي اشتهر باسم الحروب الصليبية..

صراع حضاري يرفع أعلامًا دينية:

لقد مثل الإسلام بالنسبة للشرق والشرقيين - على اختلاف أصولهم وعقائدهم - بزوغ الفجر لمرحلة من اليقظة، سارت فيها شعوبه خلف العرب المسلمين - كطليعة - لإزاحة موجة الغزوة اللاتينية التي سيطرت على المنطقة منذ انتصار الإسكندر المقدوني (٣٥٦- ٣٢٣ق.م) على الشرق بعد هزيمة الفرس الذين كانوا يتولون يومئذ قيادة الشرق في ذلك الصراع القديم..

ومن هنا كانت الفتوحات العربية ذات مضمون تحريري لا يمكن لعين متأملة ومخلصة أن تخطئه، وذلك هو التفسير العلمي لإسهام المسيحيين في مصر والشام والمغرب إلى جانب العرب المسلمين في الصراع الذي انتهى بهزيمة الحاميات العسكرية للروم البيزنطيين المسيحيين..

لقد اجتمعت للعرب المسلمين يومئذ إمكانات فكرية تمثلت في الفكر الإسلامي الشاب والعقلاني والبسيط، وقدرات قتالية جاءت ثمرة لوحدة القبائل العربية التي تربت في بوتقة الفروسية والصراع، هذه الوحدة وتلك الفروسية اللتان ازدادتا قوة وقدرة عندما تدعمتا بسلاح الإيمان بالدين الجديد..

وعندما اكتملت للمنطقة كلها - بعد الفتوحات - قسمة التعريب، وتوحدت هويتها الحضارية اجتمعت لها كلها - لا لعرب شبة الجزيرة وحدهم - تلك الأسلحة والطاقات والإمكانات، فبدأت نظم الحكم العربية - بالجيش وبالفكر - مرحلة جديدة حاولت فيها اقتحام معاقل الخطر التاريخي الذي هددها كثيرًا وطويلًا.. بدأت محاولات الغزو لأوربا ذاتها - خاصة جنوبها - بعد أن توقفت قرابة قرن من الزمان عند فتحها للأندلس سنة (٧١١ م).

المد الحربي والفكري:

فبعد أن دخلت المنطقة في إطار العروبة، وتسلحت بفكر العرب - الذي شهد نموًا عندما ورث وطور المواريث الحضارية

لكل شعوب المنطقة - وتسلحت المنطقة كذلك بالسلاح العربي بعد أن كانت تحتمي به فقط، مدت أبصارها عبر البحر المتوسط مؤملة تحويل شاطئه الشمالي إلى رقعة عربية تصل وطن العروبة وأرض حضارتها من الأندلس إلى الشام! بالسيف وبالفكر معًا!!

* ففي سنة (٨٠٩ م) فتح العرب واحتلوا جزيرة « كورسيكا »..

* وفي سنة (٨١٠ م) فتحوا واحتلوا جزيرة « سردينيا »..

* وفي سنة (٨٢٥ م) فتحوا واحتلوا جزيرة « كريت »..

* وفي سنة (٨٢٧ م) بدأ فتحهم لجزيرة « صقلية »..

* وفي سنة (٨٧٠ م) كان فتحهم واحتلالهم لجزيرة « مالطة »..

* وفي تلك الحقبة تجاوزوا فتح الجزر وحروب البحر، فاقتحموا الجنوب الأوربي في إيطاليا، فنزلت جيوشهم سنة (٨٤٦م) بميناء « أوستيا » وهو المرفأ البحري لمدينة روما، واستمر تهديدهم لها سنوات ثلاث، بكل ما عناه ذلك من اقتحام المعقل الذي ظل طويلًا مركز الخطر الروماني الذي احتل الشرق وأقام لنفسه الدول بالشمال الإفريقي ومصر والشام، ثم استخدم نصرانية الحبشة محاولة القضاء على البقعة العربية التي أفلتت من سيطرته، فحاولت غزو مكة عام الفيل، بعد أن احتلت اليمن ردحًا طويلًا من الزمان.

* وحتى بعد انحسار هذا التهديد العربي لروما سنة (٨٤٩ م)، عادوا فحاولوا غزوها سنة (٨٧٢ م).. واستمر تهديدهم لها ولإيطاليا حتى سنة (٩١٦ م).. وأثناء تلك الفترة فرضوا الجزية

على روما، وسجل التاريخ أن البابا يوحنا الثامن ظل - لعامين - يدفع للعرب جزية سنوية مقدارها (٢٥٠٠٠) رطل من الفضة!

* ومرة ثالثة عاد التهديد العسكري العربي إلى أرض إيطاليا، بعد أن قامت الدولة الفاطمية بالمغرب (تونس) سنة (٩٠٩ م)، فلقد اتخذت من « صقلية » سنة (٩١٧ م) قاعدة لهجماتها ضد الشواطئ الأوربية، ووصلت حملاتها إلى « البندقية » و « جنوى » سنة (٩٣٥ م).

* وفي النصف الثاني من القرن التالي (سنة ١٠٧١م) أحرز السلاجقة انتصارًا كبيرًا ضد البيزنطيين في معركة « منزكرت » (ملاذكرد) وأسروا يومها الإمبراطور البيزنطي « رومانوس ديوجنس »، وحتى ذلك التاريخ كانت الدوائر الكنسية الكاثوليكية في أوربا - وهي وحدها دوائر الفكر والثقافة هناك - تقيم أمنع الحواجز ضد ما كانت تزخر به المنطقة العربية من علوم وفنون وأفكار ونظريات.. كانت أوروبا تعيش قمة ظلام عصورها المظلمة، على حين كانت القاهرة تنعم بأضخم مكتبة عرفتها عواصم تلك القرون، وبدور الحكمة والمراصد والفكر العقلاني والجدل النظري الذي يعلي من قدر العقل، فيحقق المعنى الحقيقي لإنسانية الإنسان..

ولكن هذه الدوائر الكنسية - التي أفلحت في صد جيوش العرب الغازية - قد أخفقت في تحصين العقل الأوربي ضد

الفكر العربي، فحدثت وعملت قوانين تلك « السنة » الكونية التي تكررت على مر العصور: تحدث الصراعات المسلحة وتنتهي، وتنجح الحملات الحربية وتخفق، وتقوم الدول وتضمحل.. ولكن الأبقى والأفعل هو- دائـمًا وأبدًا - التأثيرات الفكرية والحضارية التي تستفيدها الأمم والشعوب من خلال عنف هذه الصراعات!. ولذلك فإن التاريخ يسجل - أو يجب أن يسجل - أن النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي هو الذي شهد طلائع التأثر الأوربي بالفكر العربي، وهو التأثر الذي أصبح المنطق الحقيقي الذي انطلقت منه أوربا - عبر قرون عدة وأحداث كبرى - إلى عصر النهضة والتنوير..

* فقسطنطين الإفريقي (المتوفى سنة ١٠٨٧م) هو الذي ارتاد حركة إيقاف الأوربيين على الثمار العقلية للحضارة العربية الإسلامية.. وهو مفكر طلائعي خلف وراءه أربعة وعشرين كتابًا..

* ولقد جاء قسطنطين الإفريقي وفكره ومصنفاته ثمرة لعاملين رئسيين:

أ- رحلته التعليمية والعلمية التي زار فيها كلًّا من: خراسان، والهند، وبغداد، والشام، ومصر، والقيروان، حيث درس وتعلم ووقف على البناء الفكري والحضاري العملاق..

ب- الدراسة والتخرج في أول مدرسة طبية بإيطاليا، وهي مدرسة (سالرنو) التي تأسست في القرن التاسع الميلادي،

والتي كان تأسيسها بداية إسهام العرب المسلمين في إيقاظ أوربا، عن غير طريق الأندلس، فلقد أسس هذه المدرسة - التي التحق بها قسطنطين الإفريقي سنة (١٠٦٠م)- أربعة رجال: لاتيني، ويوناني، ومسلم، ويهودي! فكانت أول مدرسة، خارج الأندلس، تعلم الناس الطب في أوربا!..

* وفي تلك الفترة اقتحمت علوم العرب على الإيطاليين أسوار جامعة « بولونيا »، فبدأت عنايتها بهذه العلوم سنة (١٠٧٦م)..

الموجة المعاكسة:

إن صراعات الأمم والشعوب والحضارات لا تقف أسبابها عند ردود الأفعال، والذين يفسرونها هذا التفسير السطحي لا يبصرون ما في الأعماق، لكننا - في ذات الوقت - يجب أن نعطي اهتمامًا كبيرًا لما تولده المخاطر عندما تحيق بالأمم الأصيلة ذات الحضارات والتراث ما تولده هذه المخاطر من طاقات تجعل هذه الأمم التي تمتحنها هذه المخاطر تستجمع عناصر قوتها، وتجدد شباب حياتها، ثم تنهض لتحدي الخطر وكسر الطوق الملتف حول عنقها والمهدد لها بالفناء..

ونحن نتخذ من هذا العامل نموذجًا وسبيلًا يعفينا من سرد أسباب كثيرة - لا يتسع لها المقام - وقفت خلف المد الأوربي الذي تمثل في الحروب الصليبية على الشرق العربي، وذلك المد الذي أرادت به أوربا أن تسترجع ما تحرر منها تحت رايات الإسلام..

* فالجيوش العربية بأساطيلها قد حولت البحر المتوسط إلى بحيرة عربية خاصة وخالصة، ثم هي قد شرعت تحتل وتهدد شاطئه الأوربي، بعد أن استقرت في جزره الأوربية الكبرى..

* والمدن التجارية الأوربية - وخاصة الإيطالية منها - لم تحرم فقط من امتيازاتها التقليدية في التجارة العالمية عبر طرقها الشرقية والعربية، وإنما وطئت أرضها بأقدام الفاتحين العرب المسلمين..

* والنمط الفكري المتخلف الذي سجنت فيه الكنيسة الكاثوليكية قارتها الأوربية قد سددت العقلانية العربية الإسلامية إليه السهام..

ومن هنا كان نهوض الكنيسة الكاثوليكية - خاصة في عهد البابا الذهبي إربانيوس الثاني (١٠٤٢- ١٠٩٩م) - لقيادة أوربا في زحف تاريخي بربري استهدفت من ورائه، لا هزيمة العسكرية العربية فحسب، بل وإطفاء المنارات الفكرية العقلانية التي ترسل الضوء المقض لمضاجعها من مراكز البحث ودور العلم والحكمة في ديار الإسلام..

* فبدأت طلائع الحروب الصليبية على أرض الأندلس، وسقطت « طليطلة » بيد ألفونسو السادس سنة (١٠٨٥م)..

* وبعد خمس سنوات سقطت « صقلية » بيد النورمان سنة (١٠٩٠م)..

* وفي نفس التاريخ (سنة ١٠٩٠م) سقطت « مالطة ».. وانحسر عنها الحكم العربي..

* وفي سنة (١٠٩٥م) اكتمل للكنيسة تجميع عناصر قوتها: فالدعاة شحنوا العامة بمشاعر مجنونة عن الحرب المقدسة ضد المسلمين « الوثنيين » الذين يعبدون الحجر الأسود ويسجدون لمحمد، ويدنسون مهد يسوع وقبره!.. وفرسان الإقطاع الأوربي أطمعتهم الكنيسة بملك الشرق وخيراته إن هم وجهوا فروسيتهم وبأسهم لقتال المسلمين، بدلًا من حروبهم المحلية التي لا تنتهي..والمدن التجارية الأوربية قد تعهدت بتمويل الجيوش مقابل امتيازات التجارة الدولية التي حرمها العرب منها منذ أن توحد العرب تحت رايات الإسلام..

ولقد دشنت الكنيسة نصرها الاستعدادي هذا في « المجمع » الذي عقدته سنة (١٠٩٥م) بمدينة « كليرمونت » بجنوبي فرنسا، وهو المجمع الذي خطب فيه البابا الذهبي إربانيوس الثاني، فخاطب فرسان الإقطاع الأوربي بقوله: « .. أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتناطحون تتنابذون فيما بينكم... ولكن تعالوا وحاربوا الكفار (المسلمين)... يا من تنابذتم اتحدوا... يا من كنتم لصوصًا كونوا الآن جنودًا!... تقدموا إلى بيت المقدس... انتزعوا الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم، فهي تدر سمنًا وعسلًا!.. إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق!..».

وشهدت العصور الوسطى أعجب وأبشع وأطول حملات

الغزو والاستيطان التي عرفها ذلك التاريخ، ففي خلال نحو قرنين قذفت أوربا أرض الشرق العربي بنحو عشر حملات حربية مولها التجار وقادها فرسان الإقطاع، وزحف في ركابها الغوغاء، وتضامنت - في قذف الشرق بها - الممالك والإمارات والولايات..

* (١٠٩٦ - ١٠٩٩م): كانت الحملة التي قادها كل من الملوك والأمراء: جود فري دوبويون يوليون، وبودوين، وبوهمند، وريمون نانكرد..

* (١١٤٧ - ١١٤٩م): كانت الحملة التي قادها كونراد ملك جرمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا..

* (١١٨٩ - ١١٩٢): كانت الحملة التي قادها: فريدريك باربروس إمبراطور جرمانيا، ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوجست ملك فرنسا..

* (١٢٠٢ - ١٢٠٤م): كانت الحملة التي قادها بودوين التاسع، كونت الفلاندر..

* (١٢١٩ - ١٢٢١م): كانت الحملة التي قادها جان دي بريان ملك القدس، وأندريا الثاني ملك المجر..

* (١٢٢٨ - ١٢٢٩م): كانت الحملة التي قادها فريدريك الثاني..

* (١٢٤٨- ١٢٥٤م): كانت الحملة التي قادها لويس التاسع، ملك فرنسا، ضد مصر..

* (١٢٦٧ - ١٢٧٠م): كانت الحملة التي قادها لويس التاسع ضد تونس...

ولقد نجحت هذه الحملات حينًا، فكونت الدول والإمارات الاستيطانية اللاتينية، بأرض الشام وفلسطين، حتى استطاعت - زمنًا - تحقيق الهدف الاستراتيجي للغزاة، فشقت الوحدة الأرضية للوطن العربي، وعزلت مشرقه عن مصر - القلب - والمغرب، بكياناتها التي احتلت الأرض الفلسطينية التي تصل ما بين البحر المتوسط وخليج العقبة، ثم أخذت تهدد مصر، حتى لقد فرضت الجزية عليها زمنًا، وأقامت لفرسانها مركزًا على أبواب القاهرة وبيدهم مفاتيح لها، مستغلين في ذلك ومستفيدين من صراعات وزراء الدولة الفاطمية على السلطة والسلطان!.

نجحت هذه الحملات عندما نفذت إلى الوطن العربي من تلك الثغرة التي أفقدته التوازن الحضاري الضروري والمطلوب.. فالعرب قد نجحوا في التحرر من البيزنطيين، بل وفي تهديد أوربا في مواطنها عندما امتلكوا: السيف والقلم، ودان لهم: العقل والقوة، ووظفت القوة طاقاتها في خدمة العقل.. فلما اعتمد العباسيون على القوة غير العربية، وتكون الجيش من المماليك، زال الانسجام بين العقل والقوة، فتحولت القوة الضاربة - وهي غير قومية - إلى قيد على العقل العربي، فكانت السلطة العكسرية المحافظة فكريًّا والمستبدة سياسيًّا، والتي أصابت المد الحضاري وعصره الذهبي بانتكاسة لم يتخلص العرب من آثارها حتى الآن...

وعندما عالج الفاطميون بعض أسباب ذلك التحلل العباسي، نجحوا بعض النجاحات، خصوصًا عندما أقاموا في قلب الوطن العربي عاصمتهم - بالقاهرة - التي صارت القلب والقاعدة لوطن اكتملت في جناحيه عملية التعريب وتوحدت هويته الحضارية إلى حد بعيد..

ولكن جيوش الفاطميين البدوية انعزلت عن الطابع الحضاري العقلاني الراقي الذي تمثل في الأزهر ودور الحكمة والمراصد والمكتبات.. فحدث الانفصام بين العقل وبين القوة، وانشغلت القوة بصراعاتها القبلية، الأمر الذي أفقد العقل درعه وحرم القلم سيفه، فكانت الثغرة التي نفذ منها الصليبيون عندما نجحوا في تحقيق ما حققوا من انتصارات..

المطامع العارية:

ولم تستطع ثياب الكهنة ولا أردية الرهبان ولا الصلبان التي حملها الفرسان أن تخفي المطامع الحقيقية، والأسباب الموضوعية التي حركت أوربا الاستعمارية في هذه الحملات..

* فالذين حملوا إنجيل ديانة السلام والتسامح والمحبة، كتبوا هم أنفسهم إلى البابا الذهبي يباهون بالمجازر التي صنعوها بالعرب والمسلمين، بعد دخولهم القدس، فقالوا: « .. إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا، فثق أنه في معبد سليمان (جامع عمر بن الخطاب) كانت خيولنا تغوض إلى ركبها في بحر من دماء الشرقيين!».... والشرقيون هؤلاء كانوا هم العرب، مسلمين ومسيحيين!!..

* وهذه الحرب التي صورتها الكنيسة على أنها مهمة دينية مقدسة يبتغون بها وجه الله ورضاء يسوع، تكشفت عن حرفة دمار هدفها المال، وإنجاز بربري يبتغون من ورائه أرض العرب وخيرات الشرق الدنيوية.. ووفق كلمات البطريرك مكسيموس مونروند في كتابه (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، المدعوة حرب الصليب) « ١/ ٨٠، ٨١ » يقول عن غايات فرسان الإقطاع الأوربي من حملاتهم الحربية هذه ضد العرب: «..فكثيرون من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لجمع الأموال الغنية، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة!..».

* وأرض الشرق التي وعد البابا الذهبي فرسانه بها، قال لهم عنها: أنها تدر سمنًا وعسلًا!..بدأ هؤلاء الفرسان يوزعونها على أنفسهم إقطاعات، حتى قبل أن تقع بين أيديهم ممالك وإمارات.. فعندما عزموا على غزو مصر، « مَسَّحُوا » أرضها، ووزعوها على الأمراء والفرسان.. وبعبارة « أبو شامة » في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية) يقول « ١/ ٤٣٠ »: «... وكان ملكهم - لعنه الله - لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرف له خبر ارتفاع (دخلها) وأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيالته (فرسانه) وفرق قراها على أجناده! ».

* والتمويل الذي قدمته مدن أوربا التجارية - خاصة: جنوه، ونابلي، وبيزا، والبندقية - لهذه الحملات، أخذت

تسترد أضعاف أضعافه باحتكارها السيطرة على طرق التجارة، وجلب الأرباح حتى من تجارة الأقاليم التي نجت من الاحتلال المباشر.. و« غليوم الصوري » يصف ثراءهم من تجارة مصر فيقول: «.. كانت خزائن مصر تحت تصرفنا.. كما أن موانئ أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا، وتجارها كانوا ينقلون إلى مواني بلادنا غلات أراضيها، هذه المتاجر كانت كُلّية الفوائد لنا..وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام! (٢/ ٧٦ من: حرب الصليب).. هكذا تكشفت المطامع عارية، ولم تفلح في سترها دعايات الكهنة ولا أردية الكهنوت..

فماذا صنع الشرق؟:

وأمام هذا الخطر المدمر والبربري لهذا الاستعمار الاستيطاني انتفض كيان الشرق العربي فأفرز عوامل القوة والمقاومة التي تصدت لفرسان الإقطاع الأوربي حتى هزمتهم وقذفت بهم وبكياناتهم الغريبة إلى مواطنهم الأصلية..

وخلف هذه الانتفاضة وفيها كان الفعل والتأثير لتلك القسمة التي ميزت شخصية الإنسان العربي أمام المخاطر والتحديات، وهي القسمة التي بلغت مبلغ القانون الذي حكم صراعاته ضد أعدائه.. فهو يبصر سر تفوق الخصم، ثم يسعى لامتلاك هذا السر، فيضيف فاعليته وتأثيره إلى سلطان الحق المتمثل في عدالة قضيته.. وبذلك تجتمع لديه إمكانات النصر في هذه الصراعات..

ولقد كانت الفروسية الإقطاعية الأوربية في مقدمة أسباب التفوق الصليبي على العرب في ذلك الصراع.. فأوربا المتخلفة حضاريًّا كانت تمتلك مؤسسات للفروسية، أفرزها عصرها الإقطاعي، رسخت تقاليدها في الحرب، وبرزت وحشيتها في حملاتها ضد العرب والمسلمين. كان شرف الفروسية والفارس عندهم يتمثل في الإخلاص والطاعة والشجاعة.. وكانت أهدفها: حماية السادة، والكنيسة، وقتال الكفار - (المسلمين) - !!.. ولقد ساعدت الحروب الصليبية على إعلاء شأن الفارس والفروسية لدى أوربا في ذلك العصر، حتى لقد أصبح الفارس عندهم وفي مجتمعهم يمثل كل شيء وكل قيمة.. وبعبارة المؤرخ الناقد أسامة بن منقذ - وهو معاصر لتلك الأحداث - (الاعتبار ص ٦٤، ٦٥): فإن « الفرنج - خذلهم الله - ليس فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم!..».

ومن هنا صحت عزيمة الشرق - في انتفاضته ضد هذا الخطر - على امتلاك سلاح الفروسية وإقامة مؤسساتها حتى يقهر بها خصومة، ويجلي بواسطتها غزاته، فلا يفل الحديد إلا الحديد!

ولكنَّ الشرق ذا الحضارة والتراث الإسلامي لم يكن، وما كان له، أن يصنع فروسيته على النمط الوحشي الذي ميز فروسية أمراء أوربا الإقطاعيين.. فهؤلاء كانوا نتاج إقطاع

أوروبا المظلمة، بينما كان للشرق العربي والمسلم تراث في الفروسية تميز بالقيم النبيلة منذ أن ظهر فيه الإسلام..

ومنذ قرون كانت قد استكنت في ضمير هذه الأمة القيم الإسلامية السامية التي علمها أبو بكر الصديق قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان عندما قال له:« إني موصيك بعشر: لا تقتل امرأة، ولا صبيًّا، ولا كبيرًا، ولا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلًا ولا تغرقنه، ولا تغلل (تخن) ، ولا تجبن!..».

ولقد تحول هذا التراث الشرقي في الفروسية - عند مواجهة الخطر الصليبي - إلى الخصال والسجايا العشر، التي أصبحت دستور مؤسسات الفروسية الإسلامية، التي شرع العرب في إقامتها كي يدفعوا بواسطتها غزاة أوروبا الصليبيين.

فنشأت في الوطن العربي أنظمة للحكم كان قوامها مؤسسات الفروسية، وعمادها الجيش الذي تكون في معسكراتها.. تلك المعسكرات التي كان يجلب إليها المماليك الصغار، حيث ينشأون نشأة حربية صرفة وكاملة، لا صلة بينها وبين حياة المدنيين بشواغلها ورفاهيتها، ومع حياة الحرب وتدريباتها كانوا يتعلمون سجايا الفروسية العشر: التقوى.. والشجاعة.. ورقة الشمائل.. والصبر.. ومراعاة الجوار.. والمروءة.. والكرم.. وحسن الضيافة.. ومساعدة النساء والأرامل.. والوفاء بالعهود.

ومن مؤسسات الفروسية الإسلامية هذه نشأت الدولة

الزنكية، التي أسسها في الموصل - بالعراق - أتابكها: عماد الدين زنكي سنة (١١٢٧م).. وبفرسانها انتزع الشرق أول انتصاراته على الصليبيين عندما حرر « إمارة الرها » سنة (١١٤٤م)..

وبعد ذلك توالت انتصارات دولة الفروسية هذه على الصليبيين بقيادة السلطان الزنكي: نور الدين محمود.. ثم خلفتها على نفس الطريق - طريق الفروسية الشرقية - الدولة الأيوبية بانتصاراتها المدوية منذ عهد مؤسسها صلاح الدين.. ثم دول المماليك الذين أنجزوا مهمة الشرق الحضارية في كسر شوكة التتار بعين جالوت سنة (١٢٦٠م).. وطووا صفحة الحروب الصليبية عندما اقتحم فرسانهم عكا فأزالوا آخر معقل للصليبيين بالوطن العربي في مايو سنة (١٢٩١م) على عهد السلطان الأشرف بن قلاوون.

وبمؤسسات الفروسية الإسلامية هذه أكد الشرق مرة أخرى صدق القانون الذي لم يتخلف طوال عصور صراعاته الحضارية التاريخية، والذي أصبح قسمة من قسمات شخصية إنسانه أمام الخطر، وفي مواجهة المخاطر يبحث الإنسان العربي ويفتش حتى يبصر سر تفوق الخصم فيسعى لامتلاك هذا السر، ويضيف قوته إلى قوة الحق المنبعث من عدالة قضيته، ثم يقتحم ميدان الصراع لينتزع حقه من غاصبيه.. مثبتًا بذلك — دائمًا وأبدًا - أنه إيجابي، بل وثوري أمام المخاطر والتحديات.!

* * *

أبرز معارك الصراع
العربي - الصليبي





أبرز معارك
الصراع العربي – الصليبي

في سنة (١١٢٩م) سنة (٥٢٤هـ) وتحت قيادة مؤسس الدولة الزنكية عماد الدين محمود زنكي (٥٢١- ٥٤١هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦م) دارت ضد الصليبيين معارك أحرز فيها المسلمون بواكير انتصاراتهم في « حصن الأثارب » بين حلب وأنطاكية، و« حصن حارم » تجاه أنطاكية.

* وفي عهد السلطان نور الدين الشهيد (٥٤١- ٥٦٩هـ / ١١٤٦- ١١٧٣م) الذي خلف عماد الدين محمود زنكي، وضحت معالم المد العربي الإسلامي، وأخذت الموجة الصليبية في الانحسار.

في سنوات (٥٣١- ٥٦٧هـ / ١١٣٦ - ١١٧١م) أحرز المسلمون انتصارات باهرة غطت ميادينها أغلب البقاع التي تدنست بالغزو الصليبي.. وسجل التاريخ أحداث الحرب والفتح في: « حصن بعرين » - بين حمص والساحل - سنة (٥٣١هـ / ١١٣٦م).. و« حصن عرقة - وقلعتها » - شرقي طرابلس -

سنة (٥٣٢ هـ/ ١١٣٧م).. ومدينة « الرها »- التي كانت عاصمة « كونتيه الرها » الصليبية.. و« قلعة البيرة »- المطلة على الفرات - سنة (٥٣٩ هـ / ١١٤٤م).. و« حصن العزيمة » - من أعمال طرابلس -.. و« بصرى » سنة (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م).. و« حصن حارم ».. و« حصن أنب ».. و« حصن أفامية » - بنواحي حلب - سنة (٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م).. ومواقع وبلاد: « تل باشر »، و« عين تاب »، و « إعزاز »، و« قورس »، و« الرواندان »، و« حصن البارة »، و« تل خالد »، و« كفر لاثا »، و« كفر سوت »، و« حصن بسرفوت » ، و« دلوك »، و « مرعشى »، و« نهر الجوز »، و« برج الرصاص ».. وهي جميعها قد فتحت في سنة (٥٤٦ هـ / ١١٥١م).. و « قلعة حارم » - غربي حلب، بالقرب من أنطاكية - وهي التي حوصرت في سنوات (٥٥١ هـ و٥٥٧ هـ / ١١٦٤م..) و« قلعة بانياس » سنة (٥٦٠ هـ / ١١٦٥م).. و« حصن المنيطرة » - قرب طرابلس - سنة (٥٦١ هـ/ ١١٦٢م).. و حصون: « غرقة »، و« صافيثا »، و « عريمة » التي فتحت سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)..

فلما تأسست الدولة الأيوبية (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م) وانعقدت ألوية القيادة في هذا الصراع لمؤسسها صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤- ٥٨٩ هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣م) تزايد مد الانتصارات العربية ضد الغزوة الصليبية.. واستمرت أسماء المعارك ومواطنها تغطي ساحات الإمارات الصليبية - حصونًا وقلاعًا ومدنًا وقرىً - كما شهدت الدولة الأيوبية وقوع عدد من

المعارك الكبرى التي تميزت بآثارها الحاسمة أو المؤثرة في أحداث ذلك الصراع.. وذلك مثل:

معركة حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م):

اشتعل قتالها يومي الجمعة والسبت (٢، ٣ يوليو سنة ١١٨٧م)، (٢٣، ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ) عند بحيرة طبرية، وعلى هضبتها، وفوق جبل حطين..

وكانت قيادة القوى القومية فيها لصلاح الدين الأيوبي، بينما قاد الصليبيين « ريموند » أمير طرابلس، و« جاي لوزنجان» ملك مملكة بيت المقدس الصليبية..

ولقد بدأت وقائع هذه المعركة عندما أكمل صلاح الدين استعداده لمعركة أرادها مؤثرة على أوضاع الصليبيين العسكرية والسياسية.. فخرج بجيشه من دمشق في يوم السبت أول محرم سنة (٥٨٣ هـ)، مارس سنة (١١٨٧م).. وفي الطريق إلى طبرية قام بعدد من الجولات القتالية التي أنجز فيها عددًا من المهام.. فحاصر حصني (الكرك) و (الشوبك) كي يؤمن طريق « مصر - فلسطين »؛ حتى لا يستفيد خصومه في المعركة المرتقبة بإمكانات هذين الحصنين المعاديين له.. كما أرسل جزءًا من جيشه لمقاتلة الصليبيين في « صفورية » قرب « عكا ».. وتقدمت سرية للإغارة على مدينة « طبرية »، اختبارًا للمعقل الرئيسي الذي سيدور عنده القتال.. كذلك نهض قسم من جيش صلاح الدين بمعركة كبرى في إقليم الجليل في مايو سنة (١١٨٧ م)..

وخلال هذه الجولات القتالية تحققت لصلاح الدين ثلاثة أمور:

● أولها: اختبار قدرة جيشه وإمكانات قواته، وتقدير مدى قوة الصليبيين..

● وثانيها: وضع الأمة في حالة من الاستنفار جعلت أمراء الأقاليم وسكان الولايات يقدمون للمعركة ما لديهم من إمكانات، بحيث غدا الجيش صورة تجسد وحدة الأمة في صراعها ضد الأعداء.

● وثالثها: التعمية على العدو بصدد الميدان الذي يريد صلاح الدين أن تنشب فوق أرضه المعركة الكبرى، التي جرى ويجري لها التحضير..

وعندما بدأ النصف الثاني من ربيع الثاني سنة (٥٨٣هـ) تحرك جيش صلاح الدين إلى نهر الأردن، فعسكر خمسة أيام عند ثغر « الأقحوانة » جنوبي بحيرة طبرية، أكمل فيها استعداداته.. ثم تقدم ففرض الحصار على مدينة طبرية؛ كي يستدرج للدفاع عنها معظم فرسان الصليبيين، وذلك حتى تكون نتائجها مؤثرة على موازين الصراع.

وشرع « الجاندرية » و« النقابون » و« الخرسانية » و« الحجارون » في توجيه أدواتهم إلى أبراج المدينة وحصونها وسورها الحصين.. ونجحوا في هدم أحد الأبراج..

وتحرك الصليبيون لنجدة طبرية، فأمدتها « صفورية »

بـ ٥٠,٠٠٠ مقاتل حتى بلغ جيش الصليبيين بها ٦٣,٠٠٠ من الفرسان والمشاة.

وأدرك الطرفان الأهمية المحورية للمعركة، فالصليبيون رأوا في صمود طبرية الدرع الذي يحمي القدس من صلاح الدين، وصلاح الدين كان يرى في فتح طبرية فتح الطريق إلى القدس كي تعود إلى قلب العرب وأحضان المسلمين.

وبدأت المواجهة بين الجيشين في يوم الخميس أول يوليو، (٢٢ ربيع الثاني)، وفي اعتقاد كل منهما أنه يدخل معركة مصيرية - بلغة عصرنا - وبلغة « ابن شداد » مؤرخ تلك الفترة: فلقد « علمت كل طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس!! ».

واشتعل القتال ظهر يوم الجمعة ٢ يوليو.. واجتمعت على الجيش الصليبي: حرارة القتال الذي شنه فرسان العرب والمسلمين، وحرارة شمس يوليو، وحرارة النيران التي أشعلها العرب في الحشائش المجاورة لأرض المعركة، وحرارة العطش بعد أن حرموا ماء طبرية بواسطة الحصار.. وكما يقول أحد مؤرخيهم: لقد كانت « النبال متطايرة في الهواء مثل طيران العصافير المحرقة بحرارتها! وماء السيوف (أي الدماء) جامد في وسط المعركة، يغطي الأرض كمياه المطر؟! ».

وعندما لاحت بوادر الهزيمة للجيش الصليبي انسحب؛ كي يحتمي بجبل حطين، فتعقبه جيش صلاح الدين.. وعلى الجبل

حارب الفرسان الصليبيون حرب اليائس، ولكن الهزيمة أطبقت عليهم، وعندما سقطت خيمة الملك الصليبي « جاي لوزنجان » ترجل صلاح الدين الأيوبي وسجد، وقبل الأرض شكرًا لله على هذا الانتصار.

ومن بين الثلاثة والستين ألفًا الذين تكوَّن منهم الجيش الصليبي في هذه المعركة قتل ثلاثون ألفًا، وأسر ثلاثون ألفًا، بينما تمكن ثلاثة آلاف من الفرار!.. وكما يقول المؤرخ « أبو شامة »: « إن من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير.. ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل؟!.. ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين!.. »

وهذه المعركة المصيرية لم تشف فقط صدور العرب والمسلمين من الاحتلال الصليبي، بل فتحت الأبواب للجيش العربي كي يتعقب الجيش المهزوم..

وهنا تجلت عزيمة صلاح الدين وعبقريته عندما استثمر آثار ذلك النصر العربي والهزيمة الصليبية، فاندفع بجيشه يفتح الحصون ويحرر المدن ويستولي على البقاع:

* ففي يوم الأحد ٤ يوليو سنة (١١٨٧م) فتح قلعة طبرية.

* وفي يوم الأربعاء ٧ يوليو حرر عكا..

* ثم انقسم جيشه إلى فرق زحفت فحررت العديد من المدن والقلاع والحصون، من مثل: « مجد بابا »، و« الناصرة »، و« قيسارية » و« حيفا »، و« صفورية »، و« دبورية » و« الفولة »،

و« جنين »، و«زرعين »، و« الطور »، و« اللجون »، و« القيمون »، و« الزيب »، و« مقليا »، و« البعنة »، و« إسكندرونة »، و« منراث »، و« أرسوف »، و« عفربلا »، و« ريحا سنجيل »، و« البيرة »، و« قلونية »، و« صرفند »، و« مجدل الحباب »، و« جبل الجليل »، و« تل الصافية »، و« تل الأحمر »، و« فريتا »، و« سوبا »، و« هرمس »، و« السلع »، و« يافا »، و« صيدا »، و« نابلس »، و« قلعة نابلس »، و« سبسطية »، و« تبنين »، و« بيروت »، و« عسقلان »، و« الرملة »، و« الداروم »، و« غزة »، و« بيت لحم »، و« بيني »، و« بيت جبريل »، و« النطرون »، و« مشهد الخليل »، و« لد »، وغيرها من الحصون والقلاع والمدن والبلاد..

وهكذا فتحت معركة حطين الباب لانتصارات عديدة.. وشهدت الأيام التي تلتها قتالًا يشتعل في مختلف أرجاء البقاع التي احتلها الصليبيون، وهزائم تتحرر بعدها - شبرًا بشبر وزراعًا بزراع - تلك البقاع التي دنسها هذا الاحتلال..

كما فتح هذا النصر الباب أمام العرب والمسلمين كي يحرروا بيت المقدس من احتلال الصليبيين.

معركة القدس (٥٨٣هـ / ١١٨٧م):

جمع الصليبيون في القدس ٦٠,٠٠٠ من فرسانهم ومقاتليهم، واحتشدوا ينتظرون جيش صلاح الدين.. وفي يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة (١١٨٧م) وصل صلاح الدين على رأس جيشه،

وعسكر محيطًا بالجانب الغربي من سور المدينة المقدسة، في نفس المكان الذي دخلها منه الجيش الصليبي سنة (١٠٩٩م).. أي قبل ثمانية وثمانين عامًا!

وبعد جمع المعلومات عن حصون المدينة وأبراجها وعدتها وعتادها انتقل بجيشه إلى الجانب الشمالي يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر..

وقبل أن يبدأ القتال بعث إلى الصليبيين يطلب تسليم المدينة، لقاء تعويض يرضيهم، وذلك حفاظًا على مقدساتها التي هي موضع إجلال وتقديس من كل المؤمنين بكل ديانات السماء!.. ولكنهم رفضوا العرض، فبدأت مقدمات القتال يوم السبت ٢٦ سبتمبر؛ إذ نُصبت « المنجنيقات » على المرتفعات لترسل قذائفها من فوق السور، وشرع « النقابون » يختارون المواطن المناسبة في هذا السور كي يُعمِلوا أدواتهم فيها.. وأخذت فرق التسلل وأعمال الفداء تتخذ من ظلام الليل ستارًا لجمع المعلومات وقنص الأعداء..

ولقد ألقى الصليبيون بكل ما في حوزتهم في المعركة.. فعقدوا لواء القيادة لفارسهم « باليان ده إبيالين »، وهو من الذين تمكنوا من الهرب في حطين.. وأمده البطريرك بما تحتاجه الحرب، حتى لقد جمع له سبائك الذهب والفضة، بل وزينة الكنائس، ولم يستثن من ذلك الذهب والفضة التي زينوا بها قبر المسيح!.

ولكن هجمات « النقابين » في الجيش العربي أفلحت في فتح ثغرة كبيرة في سور المدينة عند « وادي جهنم » من باب يوشفاط

إلى باب القدس استفانوس.. وأصبح اقتحام العرب للمدينة وشيكًا.. وفزع الصليبيون، وألقى عامتهم سلاحهم، واستبدلوا به التضرع والبكاء !.. وعند ذلك قرر الصليبيون السعي إلى صلاح الدين في طلب الأمان.. وكان صلاح الدين يؤجل الاقتحام، انتظارًا لهذا الأمر؛ كي يتفادى اشتعال القتال داخل المدينة، خوفًا على ما بها من مقدسات!

وبعد مفاوضات.. اتفق الطرفان على أن يسلم الصليبيون المدينة للعرب، وأن يرحلوا عنها خلال أربعة أيام، وأن يحملوا معهم متاعهم وأموالهم وكنوزهم، نظير فدية قدرها عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، ودينار واحد للطفل.. واقتصر هذا الرحيل والفداء على الصليبيين المستوطنين ذوي الأصول اللاتينية، أما المسيحيون العرب، فلقد نظر لهم صلاح الدين كمواطنين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فاستمرت إقامتهم بمدينتهم مثل غيرهم من المواطنين، من غير أن يفرق بينهم اختلاف الدين.

وكان توقيع الوثيقة التي عادت بها القدس عربية ظهر يوم الجمعة ٣ أكتوبر سنة (١١٨٧م)، في يوم وافق ذكرى الإسراء، إسراء الله برسوله محمد - عليه الصلاة والسلام - من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف.

معركة دمياط (٦١٥ - ٦١٨هـ / ١٢١٨ - ١٢٢١م):

بعد موت صلاح الدين الأيوبي، وانقضاء ثلاثين عامًا على

تحريره للقدس ومعظم ولايات الصليبيين، انتهزت أوروبا ما طرأ على السلطة الأيوبية المركزية من ضعف في زمن الملك العادل (٥٩٦ - ٦١٥هـ/ ١١٩٩ - ١٢١٨م) فتحركت من مدنها وموانيها عدة حملات صليبية جديدة لتشد من أزر بقايا إماراتهم على الساحل الشامي أملًا في استعادة ما تحرر من حصونهم وسقط من قلاعهم بواسطة جيش صلاح الدين.. ولقد وصلت هذه الحملات إلى « عكا » سنة (١٢١٧م)..

وشن الصليبيون سلسة من حملات السلب والنهب والإغارة على المدن والحصون، فهاجموا في رمضان سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) كلًّا من « بيسان »، و« نوى »، و« بانياس »، و« صيدا »، و « الشقيف »، فشرع العرب يجمعون إمكاناتهم لملاقاة هذه الحملة، وأخذوا يستخدمون مختلف الأسلحة لإعاقة هذا الغزو، بما في تلك إغراق الأرض بالمياه، كما حدث في « داريا »، و « قصر حجاج »، و« الشاغور »!.. وعند قلعة الطور دارت معركة استمرت سبعة عشر يومًا، لقي مصرعه فيها عدد من ملوك الصليبيين، فأعاقت تقدمهم نحو القدس، وعادوا إلى قاعدتهم « عكا » يفكرون في غزو مصر؛ لأنها القاعدة التي تتجهز منها الجيوش المتصدية لحملتهم، ولأن فيها مقر السلطة الأيوبية التي توحدت خلفها إمارات المشرق مع مصر لقهر هذا الغزو الجديد..

ولذلك - كما يقول المؤرخون القدماء -: « اجتمع رأي الفرنج على الرحيل من عكا على مصر، والاجتهاد في تملكها.. »

فوصلت أساطيلهم - في واحدة من أكبر حملاتهم - إلى مياه

« دمياط » يوم الثلاثاء ٨ يونيو سنة (١٢١٨م)، ٤ ربيع الأول سنة (٦١٥هـ).

وبعد أن توافدت الإمدادات على الصليبيين واكتملت استعداداتهم، تحركوا يبتغون دخول مجرى نهر النيل؛ لمحاصرة دمياط، فاعترض سفنهم ذلك « البرج » - برج السلسلة - الذي أقامه المصريون في مدخل النيل، بحذاء دمياط، وربطوه بسلسلتين من الحديد إلى بر دمياط وبر الجزيرة المواجهة لها.. ودارت بين الصليبيين وبين حامية هذا البرج معركة استمر قتالها أربعة أشهر كاملة!.. ولكن الصليبيين نجحوا - بسفنهم الحديدية الضخمة، « المرمات »، وبالأبراج المتحركة التي استخدموها - نجحوا في الاستيلاء على « برج السلسلة » - فدخلت سفنهم مجرى النيل، وانتقلوا إلى بره الشرقي؛ لمحاصرة دمياط.

وبعد موت الملك العادل في جمادى الثانية (٦١٥هـ)، وتولي الملك الكامل (٦١٥- ٦٣٥هـ/ ١٢١٨- ١٢٣٧م) مقاليد الحكم، أسرع المصريون بإقامة جسر على النيل؛ لإعاقة تقدم الصليبيين نحو القاهرة، فلما استولى الصليبيون على هذا الجسر أسرع المصريون إلى إغراق عدد من المراكب في مجرى النيل حالت بين الصليبيين وبين التقدم..

واتخذ الملك الكامل من « العادلية » قاعدة لقيادته، وبعد نجاحه في وقف تقدم الصليبيين أخذ يستفز قواته ويستجمع إمكانيات الدولة، فاجتمع له عشرون ألفًا من المقاتلين، بينما

أخذت الإمدادات تترى على معسكرات الصليبيين من أوربا، عبر قاعدتهم في عكا..

ولم يستطع الصليبيون اقتحام دمياط، رغم تفوقهم في العدد والعتاد، ولكنهم انتهزوا فرصة ثغرة حدثت في الجبهة الداخلية بمصر، عندما تطلع الأمير الأيوبي « الفائز » إلى انتزاع السلطة من أخيه « الكامل »، الأمر الذي فرق صفوف الجند والأمراء، وأشاع الارتباك في معسكر المدافعين عن دمياط.. وعندما غادر الملك الكامل المعسكر سرًّا، خوفًا على حياته، وافتقد الجند قيادتهم، وانفرط عقد القوة المدافعة، فرحل الجند عن مواقعهم، ووجد الصليبيون الطريق خاليًا أمامهم، فحاصروا دمياط يوم الثلاثاء ٦ ذي القعدة سنة (٦١٥هـ)، يناير سنة (١٢١٩م).

وفي الوقت الذي نجح فيه الملك الكامل في تأمين سلطته، وعاود جهوده ضد الغزاة، كانت الإمدادات الصليبية قد توالت من « النمسا » و« بيزا » و « جنوه » و« البندقية » و« إنجلترا » و « فرنسا »، يقودها مندوب البابا « الكاردينال بيلاجيوس » فقوى حصار الصليبين لدمياط، وقطعوا عنها المؤن والإمدادات، وحفروا حولها خندقًا، وبنوا على هذا الخندق سورًا عاليًا يرتفعون به إلى سور المدينة، ثم اشتد بين الفريقين القتال..

وشهدت شهور الحصار ألوانًا من البطولة والصمود لحامية دمياط، أفاض في الحديث عنها المؤرخون.. ولم يستطع الصليبيون دخولها - رغم التفوق وانعدام التكافؤ - إلا في

أكتوبر سنة (١٢١٩م)، الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة (٦١٦هـ) أي بعد سبعة عشر شهرًا من نزول قواتهم الغازية إلى مياه دمياط!..

وفي دمياط كرر الصليبيون فظائعهم وأعادوا بشاعاتهم من جديد؛ إذ نقضوا ما تعهدوا به للحامية والسكان من الأمان، فقتلوا من قتلوا، ومن لم يصبه القتل وقع في الأسر.. وباتوا ليلتهم الأولى بجامع المدينة يفجرون بالنساء ويغتصبون بكارة البنات. ثم حولوا الجامع إلى كنيسة.. وبعد ذلك جمعوا الأسرى ورؤوس القتلى والمصاحف ومنبر الجامع وبعثوا بها جميعًا إلى « بلادهم »!..

وهزت نكبة دمياط ضمير العرب والمسلمين، وجسدت أمامهم الخطر المحدق بمصر، فأيقنوا أن سقوطها يعني سقوط كل ديار العرب والإسلام.. وخرج من عند الملك الكامل سبعون رسولًا يستنفرون أنحاء العالم العربي، ويبلغون قادته أن « الفرنج إذا تغلبوا على مصر وملكوها لم يمتنع عليهم شيء من المماليك بعدها! »..

ودوى النفير العام في مصر، من أسوان إلى الإسكندرية، وعرف الشعب أن الصليبيين قد أقطعوا أرض مصر لفرسانهم! فهجر الرجال المدن والقرى وتوجهوا إلى معسكر « المنصورة »، وقاد التعبئة والاحتشاد العلماء والمتصوفة والشعراء.. وفرضت ضرائب المعركة على مختلف الفئات والطبقات..

وتوالت طلائع النجدات من العراق، والشام، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك.

وأخذ أمراء المشرق يشنون الغارات ضد مواقع الصليبيين بالشام؛ كي يفتحوا عليهم جبهة ثانية، يخف بها ضغطهم على مصر، وتقل بسببها إمداداتهم لقوات غزوهم هناك..

وفي الأيام الأولى من شهر رجب سنة (٦١٨هـ)، سبتمبر سنة (١٢٢١م) وقعت المعركة الفاصلة، فاقتحمت طلائع الجيش والشعب معسكر الصليبيين عبر (بحر المحلة)، ثم فتحوا ثغرة في الشاطئ تدفق منها الماء الذي أغرق المعسكر، فعزلوهم عن دمياط.. ووقع في هذا الحصار قائدهم « يوحنا » ملك عكا، ومندوب البابا، وأحد الدوقات.. وبعد أن أيقن الصليبيون من الهلاك، طلبوا وقف القتال والأمان، مقابل الجلاء وتسليم دمياط.. فاستجاب الملك الكامل لطلبهم، ووقعت بذلك وثيقة في ٧ رجب سنة (٦١٨ هـ) تحدد قواعد الأمان والجلاء وتسليم الأسرى.. وغادر الغزاة دمياط بعد ذلك التاريخ باثني عشر يومًا.

وسجل المؤرخون أن هذه الوثيقة كانت هدنة، ولم تكن صلحًا بين الملك الكامل والصليبيين!

معركة المنصورة (٦٤٧- ٦٤٨هـ / ١٣٤٩ - ١٣٥٠م):

لم تستطع الكيانات الصليبية على أرض فلسطين والشام تحقيق كل الحلم الاستعماري، وخاصة القضاء على مصر، فجاءت الحملة الصليبية التي قادها ملك فرنسا القديس لويس التاسع، وصحب حملته سعي أوربا لدى التتار الوثنيين كي

يتحالفوا معها، فيتجه الزحف التتري المدمر إلى العالم العربي؛ كي يشغل مشرقه عن نجدة مصر عندما يغزوها جيش الملك لويس!

وفي قبرص قضى الجيش الصليبي شتاء (١٢٤٨ - ١٢٤٩م) يكمل استعداده، ريثما تتم الاتصالات مع التتار، وأخذت مصر تستعد لملاقاة الغزاة الجدد، فحصنت دمياط، التي كانت بوابة مصر يومئذ، وجمعت وجهزت الجيش والأسطول. واستثمرت إنجازات سلطانها الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧- ٦٤٧ هـ/ ١٢٣٩ - ١٢٤٩م) في توحيد المشرق معها.. ورغم مرض السلطان فلقد انتقل - على سرير مرضه - إلى مقر قيادته على مقربة من ميدان الصدام، إلى قرية « أشموم طناح » بالدقهلية، قرب دمياط في أبريل سنة (١٢٤٩م)، محرم سنة (٦٤٧هـ).

وبعد أن اكتمل للجيش الصليبي الاستعداد تحرك من قبرص، فعرض على حصون الصليبيين وإماراتهم بالساحل الفلسطيني، فانضم إليه من بها من الفرسان والجنود، ثم اتجه إلى دمياط عازمًا على احتلال مصر، التي أيقنوا أن لا مكان لكياناتهم في الشرق ولا حياة لأطماعهم هناك إلا بالقضاء عليها.. وبعبارة المؤرخ « ابن واصل » في كتابه: (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) فإن الصليبيين قد رأوا أن طريقهم لا بد أن يمر عبر القاهرة!.. فلويس التاسع « قد حدثته نفسه أن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج.. وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية..! ».

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ٤ يونيو سنة (١٢٤٩م)، ٢١ صفر سنة (٦٤٧هـ) وصلت الحملة الصليبية إلى مياه دمياط، ويحملها أسطولِ مكون من مائتي سفينة، وتضم ٩,٥٠٠ فارس و١٣٠,٠٠٠ جندي، وذلك غير الغلمان والسوقة البحارة والنساء!

وأرسل لويس التاسع إنذارًا شديدًا إلى الصالح نجم الدين، فرفضه، وتوعد الغزاة بنهاية الظالمين ومصارع البغاة.. وفي ٥ يونيو سنة (١٢٤٩م) نزلت قوات الغزو إلى البر، وعسكرت تجاه معسكر المصريين الذي كان يقوده الأمير فخر الدين.. وبعد مناوشات محدودة وقصيرة بين الجانبين، حل الظلام فأرجأ الفريقان القتال إلى الغد.. ولكن المفاجأة حدثت في جنح الظلام.. فالأمير فخر الدين - لأسباب غير مفهومة ولا معلومة ولا معلنة - انسحب بقواته ليلًا، وترك مدينة دمياط بما فيها من عدة وعتاد بلا حماية أو دفاعات؛ فأحدث ذلك فراغًا وفزعًا في المدينة، فهجرها جمهور كبير من السكان وأصبح الصباح فوجد الصليبيون الطريق مفتوحًا وخاليًا إلى دمياط، فلم يصدقوا أعينهم، وحسبوها مكيدة.. ولكن الأمر تأكد، فدخلوا دمياط دون قتال، وغنموا حصونها المنيعة ومخازنها العامرة، وازدادت قوتهم بما غنموا من المؤن والعدة والعتاد!

وثارت ثائرة السلطان لهذه الخيانة.. ولكنه لم يفقد العزم على تعويض الخسارة، وإقامة الخط الدفاعي الجديد والسعي لاستعادة

دمياط ودحر الغزاة، واستفتى الفقهاء فأفتوا بإعدام عدد من المنسحبين منهم نائب دمياط وخمسون من الأمراء..

وفي ٨ يونيو (١٢٤٩م) انتقل السلطان بمقر قيادته إلى « المنصورة » وانعطف - وهو يعبئ للمعركة - نحو العنصر الوطني وجماهير الشعب، بعد ذلك الذي حدث من جنوده المماليك عند دمياط، وكما يقول مؤرخ تلك الفترة « ابن إياس »: « فإن سلطان أمر بإشهار (إعلان) النداء: بأن النفير عام.. ولا يتأخر صغير ولا كبير.. فخرج الناس قاطبة، وسائر الأمراء.. وأمر بجمع العربان من سائر النواحي، فاجتمع من العالم ما لا يحصى!..»، وبعبارة « المقريزي » فلقد « خرجت عوام الناس الذين يريدون الجهاد، من كل النواحي، ووصلت عربان كثيرة جدا، وأخذوا الغارة على الفرنج ومناوشتهم » أما « ابن تغري بردي » فيصف الزحف الشعبي إلى ميدان القتال بقوله: « لقد وقع النفير العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطّوعة والعربان.. ومع عامة الشعب خرج العلماء والفقهاء والمتصوفة للجهاد..».

وعلى امتداد شهور خمسة - ربيع الأول - رجب سنة (٦٤٧هـ) - تواصلت هجمات المجاهدين على أطرف معسكر الصليبيين، وأخذت أرقام خسائرهم في الارتفاع، وأبدعت عبقرية الشعب ألوانًا وسبلًا في القتال والفداء.

وفي المشرق فتح أهل دمشق على الصليبيين جبهة جديدة

يستنزفون بها بعض قواهم، فزحفوا واستولوا على « صيدا ».. والتحمت صفوف التضامن مع السلطان، حتى من قبل الأمراء الذين كانوا يعادونه قبل احتلال الغزاة لدمياط!.

وفي ليلة الاثنين ١٥ شعبان سنة (٦٤٧هـ) نوفمبر سنة (١٢٤٩م) توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب ودفن سرًّا، بينما واصلت زوجته شجرة الدر وقادة الجيش والدولة إدارة دفة الصراع ضد الصليبيين، حتى حضر فتسلم السلطنة الأمير « تورانشاه »..

واستشعر الصليبيون موت السلطان، فحسبوها فرصة سانحة؛ إذ تقدموا إلى « فارسكور» في ٢٥ شعبان سنة (٦٤٧هـ).. فزاد الناس من حشدهم وتعبئتهم للقتال.. وتكلف الصليبيون الكثير من الخسائر ، ولكنهم وصلوا إلى قرب « المنصورة » في ١٣رمضان سنة (٦٤٧هـ)، حيث عسكروا بالبر الغربي لبحر أشموم (البحر الصغير) بينما معسكر الشعب بالبر الشرقي.. واستمرت المناوشات، وأعمال الفداء..

ولقد حول المصريون هذا التقدم الصليبي إلى مقتل أصاب حملتهم بالهزيمة، وذلك عندما استولوا في ٩ذي الحجة سنة (٦٤٧هـ) على اثنتين وثلاثين سفينة من سفن العدو في معركة بحرية عند « مسجد النصر »، وتمكنوا بعد ذلك من قطع الصلة بين المعسكر الصليبي وبين قاعدتهم في دمياط.. ولما رغب الصليبيون - بعد حصار معسكرهم - في الجلاء، وطلبوا

القدس وبعض حصون الساحل الفلسطيني لقاء الجلاء عن دمياط، رفض المصريون، وأحكموا عليهم الحصار، إلى أن كانت ليلة الأربعاء ٣محرم سنة (٦٤٨هـ)، ٧ أبريل سنة (١٢٥٠م) عندما تحرك الصليبيون من معسكرهم بغية العودة إلى دمياط، فانقض عليهم المصريون، ودارت ملحمة الذروة في هذه الغزوة عند « فارسكور »، وانجلت ساعات القتال عن أرقام عالية من الأسرى والقتلى.. فلقد وقع في الأسر ما يناهز المائة ألف.. بينما بلغت عدة القتلى - كما يقول المقريزي-: « عشرة آلاف، في قول المقل، وثلاثين ألفًا، في قول المكثر؟؟».. وبين الأسرى كان الملك لويس..

وعند هذه النهاية.. ظهرت الكرامة العربية والخلق المسلم.. فأطلقوا سراح الأسرى، لا في مقابل فدية - كما اشتهر لدى العديد من الكتاب - وإنما بعد دفع تعويض ما نهبوه من عُدة دمياط وعتادها ومخازنها، عندما دخلوها دون قتال، فلقد قدر مخزون المدينة بـ٨٠٠,٠٠٠ دينار (١٠ مليون فرنك)، وكان الصليبيون قد أنفقوا نصفه (٤٠٠,٠٠٠ دينار)، فجمع الملك لويس وقادة حملته مقدار ما أنفقوا، ودفعوه مع ما بقي من المخزون فأطلق المصريون سراحهم.. وارتفع العلم المصري على دمياط في يوم الجمعة ٧ مايو سنة (١٢٥٠م)، ٣ صفر سنة (٦٤٨هـ). وفي اليوم التالي خرج الصليبيون مدحورين من مياه دمياط.. وعاد القديس لويس إلى فرنسا دون أن يستعيد بيت المقدس؛ لأنه فشل فشلًا ذريعًا في امتلاك الديار المصرية!.

معركة عين جالوت (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م):

العدو الذي حاربه العرب والمسلمون في « عين جالوت » لم يكن جيشًا صليبيًّا، وإنما كان جيشًا تتريًّا، قدم من الشرق الآسيوي، لا من الغرب الأوربي.. ولكنه - مع ذلك - لم يكن مقطوع الصلة بالغزوة الصليبية ولا منبت الأسباب بالصراع الذي خاضته أوربا لاحتلال الشرق في العصر الوسيط.

فبعد فشل حملة لويس التاسع على مصر سنة (١٢٥٠م) استمرت الاتصالات « الأوربية - التترية » بهدف إقناع خاقان التتار الشرقيين بتجهيز حملة تزحف لتنهب وتدمر ديار العروبة والإسلام، وتنجز ما فشل فيه الصليبيون..

* فسافرت من حصن الصليبيين في « عكا » لهذا الغرض، إلى « قراقورم » عاصمة التتار بعثة فرنسية رأسها رجل الدين « جليوم ردبروك » سنة (١٢٥٢م)، ومكثت هناك تفاوض خمسة أشهر.

* واستعان الصليبيون على تحقيق هدفهم بالمسيحيين النساطرة الذين كان لهم نفوذ مؤثر في بلاط خاقان التتار، منهم « دوقوز خاتون » إحدى زوجات « هولاكو »!..

* وعاودت الإمارات الصليبية (أرمينية وأنطاكية) المسعى، فنجح الأمير « هيتوم » ملك أرمينية في إقناع هولاكو بالزحف على بلاد العرب والمسلمين، كما نجح في أن يكون قائد هذا الزحف مسيحيًّا نسطوريًّا من قواد التتار هو « كتبغا »!

وهكذا نجح الصليبيون في تدبير غزوة جديدة مدمرة، قبضتها وقفازها التتار الوثنيون.. وعبر فارس، وصل الزحف التتري إلى الوطن العربي، واقتحم بغداد في ٧ صفر سنة (٦٥٦هـ)، ١٣ فبراير سنة (١٢٥٨م)، فأزال الخلافة العباسية، ودمر الحضارة المزدهرة، وصنع بالبشر والعمران مأساة ظلت منذ ذلك التاريخ - ولا تزال - مضرب الأمثال..

وأراد التتار استثمار الهول والفزع اللذين أحدثتها مأساة بغداد، فاندفع إلى الغرب نحو الشام .. وأرسل هولاكو إنذاراته الفظة والمتعالية إلى أمراء الشام، يطلب الاستسلام (لملك الملوك على وجه الأرض)! ويحذر من الاعتماد على مصر وسلطانها!.. وفعل الرعب فعله.. وسقطت « حلب » بيد التتار في المحرم سنة (٦٥٨هـ).

وجمع التتار حشودهم، وتقدموا - عبر فلسطين - يريدون مصر، وبعثوا بإنذارهم إلى سلطانها « الملك المظفر قطز » طالبين الاستسلام.. ولكن المصريين رفضوا الإنذار، بل وقتلوا رسل هولاكو الذين حملوا إنذاره وعلقوا جثثهم على أبواب القاهرة - وهي سابقة غير مألوفة - كي يعلنوا للناس العزم الأكيد على المقاومة والاستعداد لملاقاة الغزاة!

وانعطف السلطان والمماليك إلى جماهير الشعب، فانخرط العامة في الجهد القومي المعبأ للمعركة، وأسهم علماء الشريعة وأقطاب التصوف في الدعوة للنفير العام والجهاد المقدس..

وفرضت الضرائب للحرب، فدفع ملاك الأرض والعقارات والآلات أجرتها شهرًا، وقدم الأغنياء زكاة أموالهم مقدمًا! واقتطعت الدولة من الأثرياء ثلث ما لديهم من أموال، بينما دفع كل مواطن من العامة دينارًا واحدًا. كما يقول « ابن إياس ».

وانضم الذين هاجروا من الشام إلى مصر، انضموا للجيش الذي خرج إلى المشرق يبغي لقاء التتار، حتى لقد انخرطت فيه- كما يقول « ابن تغري بردي »-: « أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمتطوعة ».

ومن « القاهرة » إلى « الريدانية » إلى « الصالحية » إلى « غزة » كانت مسيرة الجيش، الذي قاد مقدمته الأمير بيبرس البندقداري.. ومن « غزة » اتجه شمالًا إلى « عكا »، حيث أنذر بقايا الصليبيين بالفناء إن هم أعانوا التتار في القتال.. وأخيرًا اتجه للقاء التتار في عين جالوت، بالقرب من « الناصرة ».

وفي الخامس والعشرين من رمضان سنة (٦٥٨هـ)، ١٣ سبتمبر سنة (١٢٦٠م) دارت المعركة الحاسمة، عندما اندفعت أمواج الزحف العربي المسلح، ومن حولهم الفلاحون الفلسطينيون الذين أحاطوا بالجنود يصيحون ويهللون ويكبرون ليشعلوا الحماسة في المقاتلين.. وتتابعت وتعالت دقات طبول السلطان والأمراء لتتحول إلى موجات صوتية دافعة للحماس ومعينة على الإقدام، ومانعة من التفكير في أي شيء غير القتال!..

وبلغ الحماس مبلغه، ووصل الإقدام مداه عندما اقتحم

السلطان ميدان القتال، وشارك فيه، وهو يصيح: وا إسلاماه.. وا إسلاماه!.. وا إسلاماه..

وللمرة الأولى - في التاريخ - انهزم التتار!.. فنصف جيشهم قد قتل، والنصف الآخر فر على « بيسان ».. وعند ذلك نزل السلطان من على ظهر جواده، فقبل أرض المعركة ومرغ وجهه في ترابها، وصلى ركعتين شكرًا لله!

وإلى « بيسان » تقدم الجيش في أثر فلول التتار، فوجدهم هناك قد جمعوا حشودهم من أنحاء الشام، حتى لقد زاد تعداد جيشهم عن عدده في عين جالوت - ولكن الهزيمة لاحقتهم في « بيسان » أيضًا، فاندحرت موجة غزوهم إلى الشرق.. وظلت أعلام الحضارة العربية الإسلامية خفاقة بعد أن نجت معاقلها ومعالمها من الدمار، بالانتصار الذي تحقق في « عين جالوت »..

نهاية الغزوة الصليبية:

أما الكيانات الصليبية التي بقيت على الساحل الفلسطيني - وحول « عكا » بالذات - والتي ظلت رمزًا يشير إلى الغزوة الكبرى التي شنها الغرب ضد الشرق منذ سنة (١٠٩٦م) فلقد أسدل التاريخ عليها الستار عندما زحف الجيش المصري بقيادة السلطان الأشرف بن قلاوون (١٢٩٠ - ١٢٩٣م) لتحريرها..

* وبعد معركة استمرت شهرًا فتحت عكا في مايو سنة (١٢١٩م).. رغم الإمدادات الصليبية التي جاءت فرسانها من قبرص.

* ثم سقطت صور في ١٨ مايو..

* وفي يوم ١٤ يوليو فتحت صيدا..

* وفي ٢١ يوليو استسلمت بيروت..

* وفي ٣ أغسطس تحررت أنطرطوس..

* وفي منتصف أغسطس سنة (١٢٩١م) دمر الجيش المصري آخر قلعة للفرسان الداوية الصليبيين، وهي قلعة «عتليت»..

وبذلك أسدل الستار على إحدى جولات الصراع التاريخي بين الغرب الاستعماري وبين الشرق العربي.. تلك الجولة التي شهدتها العصور الوسطى، والتي جاءت أوربا الاستعمارية فيها تسعى إلى مطامعها، ساترة هذه المطامع - أو محاولة سترها - برداء الدين وصلبان المسيح عليه السلام!

* * *



سيناء الشرط الثالث
للقومية العربية



سيناء
الشرط الثالث للقومية العربية

في التعريف العلمي للقومية والأمة عدة شروط وقسمات لا بد من توافرها حتى نستطيع أن نقول إن هذه الجماعة البشرية أمة واحدة، وأنها تكون قومية واحدة من القوميات.. وهذه الشروط والقسمات هي:

(١) أن تكون لهذه الجماعة البشرية إقامة ثابتة في وطنها، بحيث لا يكون لقاؤها عرضًا ينتهي بالهجرات والرحيل.. وأن يكون تكوين هذه الجماعة قد حدث خلال المراحل التاريخية، فأصبح طبيعيًا راسخًا، وليس مجرد عملية مصطنعة قهرية.. وأن يكون المعيار الذي يحدد الدخول في هذه الجماعة، والخروج منها مبرأ من النزعات القبلية والعرقية والعنصرية.

(٢) وأن يكون لهذه الجماعة البشرية لغة مشتركة.

(٣) وأن يكون لها أرض مشتركة، تصبح - بالنسبة لقسماتها القومية - الوعاء الذي يتم فيه التفاعل والانصهار.. بحيث

تخلو من الحواجز الطبيعية والصناعية التي تحول دون هذا التفاعل وذلك الانصهار.

(٤) وأن تكون لهذه الجماعة البشرية حياة اقتصادية مشتركة..

(٥) وأن يكون لها تكوين نفسي مشترك، ينعكس ويتجسد في ثقافتها العامة والمشتركة.

وعلى هذا الأساس - وانطلاقًا من هذا الموقف العلمي في الدراسات القومية - يجب أن يكون الفهم العربي لقضية الاحتلال الإسرائيلي لسيناء والأطماع الصهيونية فيها[١] والإصرار على زيادة رقعة الحاجز الصناعي الذي تمثل ويتمثل في الكيان الصهيوني العنصري، والذي شطر الأرض المشتركة للقومية العربية إلى شطرين: مشرق ومغرب، ثم قام بينهما حائلًا دون الاتصال الأرضي، على أمل الحيلولة بين العرب وبين وحدتهم، وتمهيدًا لإصابة باقي قسمات القومية العربية بالتحلل والذبول بدلًا من التفاعل والانصهار.

وعلى هذا الأساس - ومن هذا المنطلق - تصبح سيناء أكثر من صحراء رملية.. وأكثر من ثروات اقتصادية تختفي أو تظهر في أرض هذه الصحراء وأكثر من موقع إستراتيجي بالنسبة لمصر كوطن من الأوطان العربية.. وأكثر من قطعة عزيزة على قلوب المصريـين، لا يمكن للعقل ولا للقلب أن يهدأ دون أن تحرر من

---

(١) نشرت هذه الدراسة « إبان احتلال إسرائيل لسيناء - بمجلة الهلال »، عدد يونيو (١٩٧١ م).

قيد الأعداء.. تصبح سيناء أكثر من كل ذلك، وفوق كل ذلك وقبله:

قضية العروبة بالنسبة لكل من يؤمن بالعروبة .. قضية القومية العربية والأمة العربية بالنسبة لكل من ينتمي إلى هذا الكيان من المحيط إلى الخليج.. قضية البقاء والازدهار لكل القيم العربية على كل الأرض العربية؛ إذ في تحريرها قيام هذا الوعاء، وعاء الأرض العربية المشتركة؛ كي تتفاعل فيه هذه القيم التي يريد لها الأعداء الذبول والاضمحلال والفناء.

ونحن إذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على هذه الأهمية الكبرى التي تمثلها سيناء في وحدة الأرض العربية المشتركة، تلك القسمة القومية الضرورية لوحدة شعوب هذه الأمة، وجدنا في كثير من تجارب الأمم في قارات العالم المختلفة، وفي عصور البشرية المتعاقبة الكثير من الأمثلة على هذا الذي نقول..

فعندما تكونت « باكستان » في أعقاب الحرب العالمية الثانية شهدت جماهيرها وزعاماتها السياسية والفكرية موجات من الحماس الوحدوي بلغت حد العقيدة الدينية التي تكونت على أساسها هذه الدولة بعد الاستقلال.. بل إن هذا الحماس قد جعل الكثيرين - من بلاد كثيرة - ينظرون إلى هذه التجربة كنموذج يجب أن يحتذى في إقامة الدولة الإسلامية، واليوم أكدت الأحداث التي عاشتها هذه البلاد أن انعدام « الأرض المشتركة »بين إقليميها الشرقي والغربي كان في مقدمة الأسباب

التي جعلت القسمات التي تميز هذين الإقليمين تسير في اتجاه التميز والابتعاد، بل والتعارض والتناقض، بدلًا من أن تسير في اتجاه التقارب والتفاعل والانصهار..حتى لقد أفضى ذلك إلى الانفصال!

وحتى تجربة اليهود أنفسهم.. عندما جعلتهم الظروف التاريخية يعيشون فى أوطان عديدة، فإنهم قد تمايزت طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافاتهم، رغم تلك التنظيمات السرية التي ظلت تعمل لتوحيدهم على طول عصور ذلك التاريخ، ورغم العنصرية التي ظلت تشدهم إلى رباطها باستمرار، ورغم الأحلام الاستيطانية والاستغلالية التي ظلت تراودهم جميعًا تقريبًا في أرض فلسطين.

واليوم يشهد المجتمع الإسرائيلي - رغم التخطيط الواعي الذي يواجهون به سلبيات عصور الشتات - انقسام الصهيونية إلى أناس من الدرجة الأولى، والثانية، والثالثة.. ويعيش تناقضات لا يمنع تفجرها سوى ظروف التعبئة التي تعيش فيها هذه الثكنة العسكرية العنصرية باستمرار..

***

أما إذا شئنا - مجرد الإشارة - لتلك الكارثة التي يمكن أن تصيب الوطن العربي، وقسمات أمته القومية، إذا حدث ونجح الاستعمار والصهيونية في ترسيخ الحاجز الذي يشطر أرضنا إلى مشرق ومغرب، فيكفي أن نعلم أن مساحة مصر والمغرب العربي تصل إلى ضعف مساحة المشرق العربي...وأن تعداد السكان في

مصر والمغرب العربي يصل إلى ما يقرب من ثلاثة أضعاف عدد السكان في أقطار المشرق.. وأن اللغة العربية يتكلمها في القارة الإفريقية - أي غربي سيناء - ما يزيد على مائة مليون من البشر.. بل وتتأثر بها وتقترب منها لغات إفريقية أخرى، مثل « السواحلية » و « الهوسا » و « اليوربا » يبلغ عدد الذين يتكلمون بها من أبناء إفريقيا مثل هذا العدد كذلك، وهي إمكانيات حضارية وسياسية لن تستطيع العروبة الاستفادة منها إلا بهزيمة المخطط الاستعماري الصهيوني الذي يدور من حول هدفه الأساسي: فصم عرى الوحدة العربية، والحيلولة دون القومية العربية ودون الوحدة، وذلك عن طريق تقسيم الأرض المشتركة، وتعميق الحاجز الذي أقيم في سنة (١٩٤٨م) في فلسطين، بمده غربًا وجنوبًا في أرض سيناء.

ونحن نستطيع أن نقول أيضًا: إن هذه الأهمية القومية لسيناء ليست وليدة العصر الحديث والصراعات التي يخوضها العرب لتحرير أوطانهم من الاستعمار وحليفته الصهيونية.. وإنما ترجع أهمية سيناء القومية ودورها القومي إلى ما هو أبعد من هذا التاريخ بكثير.. كما أن وضعها كنقطة رئيسية في جدول أعمال الذين خططوا لإعاقة تقدم هذه المنطقة ومنع وحدتها، هو أبعد أيضًا من ذلك التاريخ الحديث.. فمنذ أن قامت للعرب والعروبة إمبراطورية على أنقاض النفوذ والاحتلال البيزنطي لبلاد الشرق، كان لسيناء ذلك الدور القومي العربي.. وللأعداء ذلك المخطط لشل فعالية دورها هذا، والحيلولة بينها وبين القيام

بدور الجسر الحضاري والقومي الذي يربط المشرق بالمغرب ويوحد العرب من الخليج إلى المحيط..

في العصر العربي الأول:

منذ أن عبر الجيش العربي الذي قادة عمرو بن العاص أرض سيناء سنة (٦٤٠م) ليساعد العنصر الوطني المصري على إزاحة النير البيزنطي الاستعماري، وسيناء تلعب في التاريخ العربي دورًا ما زال ينتظر الدراسة التاريخية الكبرى التي تجلي صفحاته، وتضعها بين يدي الباحثين والقراء.

فهي لم تشهد فقط طلائع الجيوش التي حررت مصر، ثم بلاد الشمال الإفريقي، ثم عبرت البحر إلى الأندلس لتقيم الحضارة التي يفخر بها الشرق والغرب حتى هذا التاريخ... وإنما كانت الطريق لكل عالم، ولكل فقيه، ولكل عقل عربي مستنير عبر من بلاد المشرق إلى بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس ليوقد شمعة في عقول الناس وقلوبهم، وليسهم في بناء ذلك المجد الفكري الإنساني، الذي لولا وجوده في العصور الوسطى لشمل وصف « العصور المظلمة » كل بني البشر طوال هذه القرون... ومن يدري؟! ربما لم يكن لأوربا عصر للنهضة بعد ذلك الانحطاط الذي عاشت فيه. فذلك البناء الحضاري الذي صنعه العرب والمسلمون إنما كان ثمرة تفاعل الجذوة الفتية التي خرجت من المشرق، فوصلت إلى المغرب عبر سيناء..

وعندما أخذت الإمبراطورية العربية على عهد (عبد الملك

ابن مروان) (٦٨٥ - ٧٠٥م) تسلك طريق التعريب لأجهزة الدولة، عبرت سيناء تلك الأفكار التي وضعت في دمشق، فربط البريد أجزاء البلاد، وعربت دواوين الحكم والحكومة، وعرفت الأسواق العربية النقود العربية لأول مرة في التاريخ... إلخ.. إلخ..

وفي عهد « هشام بن عبد ملك » (٧٢٤- ٧٤٣م) أخذت القبائل العربية والبيوت البدوية في الهجرة من شبه الجزيرة - عبر سيناء - إلى مصر؛ كي تعيش فيها، وتتفاعل حضاريًّا وعرقيًّا وثقافيًّا مع العنصر المحلي فيها، ولتعطي في النهاية ثمرة عملية التعريب الكبرى التي شهدها ذلك التاريخ، تلك الثمرة التي تمثلت في عروبة مصر، وعروبة المغرب العربي، تلك العروبة التي استعصت على المستعمر عندما أراد اقتلاعها، أو حتى مجرد النيل منها، سواء في العصور الوسطى أو في العصر الحديث..

ففي سنة (١٠٩هـ/ ٧٢٧م) شهدت سيناء عبور طلائع هذه القبائل من عرب (قيس).. ثم تبعتها غيرها.. فانتشرت بذلك العربية كلغة، والعروبة كهوية قومية، والتعريب كعملية حضارية عميقة الجذور في أعماق الملايين من البشر الذين عاشوا غربي سيناء من مصر حتى شاطئ المحيط... وكما شهد الذين أرخوا لتلك العملية «..فلقد كان أكبر عامل في انتشار الثقافة العربية في مصر بتلك الدرجة الناجحة التي لم تبلغها سابقتها الهلينية: هو نزوح العرب الرحل إليها نزوحًا تدريجيًّا واسع

النطاق، واستقرارهم بها.. »[١]، وهو النزوح الذي كانت سيناء معبره وطريقه باستمرار.

وبعض هذه القبائل التي عبرت سيناء إلى مصر واصلت سيرها بعد حين من الدهر إلى بلاد المغرب العربي، فأضافت إلى عقيدة الإسلام قسمة العروبة لهذه البلاد، ولم يعد سكان المغرب مجرد « بربر » مسلمين، وإنما ضربت العروبة بجذورها في أعماق هذه البلاد.. ونحن إذا شئنا أن نعرف جذور ذلك العود العربي الذي استعصى على الفرنسيين اقتلاعه أو كسره في الجزائر والمغرب وتونس، فلا بد لنا من ذكر طلائع العروبة والتعريب التي زحفت إلى هناك في هجرات القبائل العربية من « بني هلال » و « بني سالم » و « رباح » إلخ.. إلخ.. تلك التي هاجرت إلى المغرب في سنة (٤٤٤هـ) سنة (١٠٥٣م).. والتي أضافت بهجرتها تلك إلى تراثنا الثقافي عددًا من الملاحم والأساطير أسهمت في إيجاد التكوين النفسي المشترك للمواطن العربي على امتداد الوطن العربي الكبير..

وعندما اكتملت لهذه المنطقة من إفريقيا مقومات العروبة والتعريب، وقامت في مصر والمغرب الدولة الفاطمية، وبنيت «القاهرة » إيذانًا بأن الوقت قد حان كي تقوم هذه العاصمة بالدور القيادي للوطن العربي كله.. عندما حدث ذلك التحول

---

(١) جورج كيرك « موجز تاريخ الشرق الأوسط » (ص ٣٧)، ترجمة عمر الإسكندري، طبعة الألف كتاب، القاهرة.

الكيفي البالغ الأهمية في تطور العالم العربي أخذت سيناء تردّ إلى المشرق - من المغرب - بعض الدين، فتعطيه زادًا فكريًا وثقافيًا، وعرفت طرقها قوافل الدعاة الفاطميين، أولئك الذين حملوا إلى المشرق رسالة « الأزهر » و« بيت الحكمة » ومعارف مكتبة القاهرة التي لم يكن لها نظير في ذلك التاريخ.. كما عبرت سيناء كذلك جيوش الفاطميين كي تجدد شباب الدولة العربية الإسلامية التي شاخت في العصر الأخير من حكم العباسيين.. وظلت تمارس دورها، معبرًا حضاريًا، وهمزة وصل .. وهي وإن بدت فقيرة عريانة قاحلة إلا أنها عاشت في كنف الحضارة الزاخرة بالغنى وبالحياة، والتي امتدت آثارها إلى ما هو أبعد من المحيط والخليج.

في مواجهة الأخطار:

وعندما بدأت الحقبة الشهيرة من صراع الغرب ضد الشرق، والتي عرفت باسم « الحروب الصليبية »، واستمرت قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١م) بدأت تتكشف للغزاة والمغامرين الأوربيين مخاطر الوحدة العربية كعقبة لا بد من إزالتها حتى يدوم لهم الاحتلال والاستقرار، فكانت عيونهم على فلسطين - تحت ستار المسيحية وقبر المسيح - حتى يصلوا إلى مركز التحكم في طريق التجارة الدولية بين آسيا وأوربا.. ومن ثم وجدوا استقرارهم في هذه البلاد، وبقاء كياناتهم اللاتينية الاستيطانية المزروعة في قلب فلسطين رهن بعزل المشرق عن

المغرب، والحيلولة دون وحدة مصر البرية مع البلاد الواقعة إلى الشرق والشمال من فلسطين.

ومن خلال معارك هذا الصراع وأحداثه اكتشف الطرفان - « العرب والصليبيون » - حقيقة مهمة، ظلت تحكم معاركهما، وبالذات في المائة عام الأخيرة التي بدأت مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي.. وهذه الحقيقة تقول: « إنه لا سبيل للعرب كي يلفظوا الكيانات الصليبية التي زرعتها أوربا في فلسطين والشام إلا بتوحيد المشرق مع مصر، حتى يتم الالتفاف حول هذه الكيانات الغريبة، فيضيق عليها الخناق، فلا تجد سوى البحر المتوسط طريقًا لها جاءت عبره من أوربا، وعبره إلى أوربا تعود.. كما أنه لا سبيل أمام الصليبيين - كي يثبتوا كياناتهم في الشام وفلسطين - إلا بمنع قيام هذه الوحدة العربية بأي ثمن، وبأي شكل من الأشكال ».

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة « مملكة أورشليم » الصليبية التي قامت سنة (١١٠٠م) وقارناها بخريطة الكيان الصهيوني في فلسطين، وخصوصًا من حيث قيام هذين الكيانين وتحقيقهما لعزل المشرق عن المغرب العربي، وإقامة حاجز يمتد من خليج العقبة إلى البحر المتوسط.. أدركنا وحدة الهدف الاستعماري، ووحدة المخطط رغم اختلاف العصور والملابسات، ورغم اختلاف أدوات التنفيذ لهذا المخطط وتلك الأهداف..

وإذا أضفنا إلى ذلك تلك المطالب والآمال الصهيونية الحالية

في سيناء، تلك التي تريد مد عمق الحاجز إلى جنوبي سيناء حتى « شرم الشيخ » أدركنا أنهم اليوم يريدون إحكام المعزل أكثر مما حاول الأولون.. وإنهم يريدون ما هو أبعد من التجارة، والأمن على التجارة الخاصة بهم في البحر الأحمر.. إنهم يريدون الحيلولة دون تنفيذ ما طالب به البعض بعد سنة (١٩٤٨م) من إقامة معبر بري يصل المشرق بالمغرب عبر خليج العقبة وسيناء، وهو الذي يجعل الوحدة الأرضية للقومية العربية قائمة، بل وملتفة حول الكيان الصهيوني الغريب من أغلب الجهات.. كما يريدون تحويل التجارة عن قناة السويس إلى قناة يخططون لإنشائها بين « إيلات » و « أسدود ».. كي يعيدوا تنفيذ وتطبيق ما صنعه البرتغاليون في العصر الوسيط، عندما حولوا التجارة إلى رأس الرجاء الصالح فأصابوا مصر والوطن العربي بالتحلل والتفكك في عصر المماليك؟!..

وكل هذه الأحلام تطوف بسيناء.. وكل هذه المطالب يريدونها من سيناء.. وتحقيق هذه الآمال أو فشلها رهن بالموقف من سيناء..

ذلك أن سيناء كانت هي الطريق الذي سلكه العرب في العصور الوسطى لتبديد أحلام الصليبيين وتحطيم آمالهم.. وذلك عندما عبرتها جيوش صلاح الدين الأيوبي لتحرز الانتصارات الكبرى التي تُوِّجَت باسترداد القدس وتحريرها في سنة (١١٨٧م) .. وعندما عبرتها من بعد ذلك جيوش الملك قطز والظاهر بيبرس لتصد التتار في « عين جالوت »

سنة (١٢٦٠م)، ولتفتح حصون الصليبيين وتحررها منهم بعد ذلك، وعندما عبرتها جيوش السلطان الأشرف خليل (١٢٩٠- ١٢٩٣م) لتحرر عكا، آخر معاقل الصليبيين في الشرق، في مايو سنة (١٢٩١م).. كانت سيناء وعبور سيناء هو بداية النهاية لذلك المد الاستعماري الأوربي الذي زحف على الشرق، ودام في ربوعه قرنين من الزمان؛ كي يعيد السيطرة والنير اللذين خلعهما هذا الشرق عن كاهله عندما ظهر فيه الإسلام، وتسلح أهله بأسلحة العروبة والإسلام.

ونحن إذا شئنا أن نعرف مدى وعي قادة أمتنا العظام بأهمية سيناء كطريق لا بديل له لتحرير الشرق من ذلك الغزو الصليبي، كفانا أن نورد ذلك المثل الذي حدثت وقائعه في معركة العرب ضد الغزو الصليبي في (٨ يونيو سنة ١٢١٨م) .. فلقد استطاع الصليبيون أن يحتلوا يومها مدينة « دمياط »، بل ودام احتلالهم أكثر من ثلاث سنوات « أربعين شهرًا » ودارت يومئذ اتصالات بين الملك الكامل الأيوبي وبين الصليبيين، وعرض عليهم أن يتركوا « دمياط » ويعودوا إلى حصونهم على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، في نظير أن يعيد إليهم عددًا كبيرًا من الحصون التي سبق أن حررها منهم صلاح الدين.. بما في ذلك القدس.. ولكن المفاوضات فشلت لاصطدامها بعقبة لا يمكن إدراك أهميتها إلا في ضوء حديثنا هذا عن دور سيناء، ودور وحدة الأرض العربية في اقتلاع ولفظ الكيانات الغريبة والشاذة التي اجتهد الاستعمار تاريخيًّا في زرعها بأرض فلسطين..

ذلك أن الملك الكامل - كما قلنا - قد عرض على الصليبيين عددًا كبيرًا من الحصون، ولكنه تمسك بالطريق البري الذي يصل سيناء بالمشرق، وبأن تبقى حصون جنوب فلسطين بيد جيشه، وفي مقدمتها حصنا « الكرك » و « الشوبك » شمالي خليج العقبة وجنوبي فلسطين.. وكان الملك الكامل يقدم يومئذ من التنازلات ما لا يتعارض مع الإستراتيجية العربية التي رسمت في عهد الدولة « الزنكية » في المشرق[١]، والتي نفذها « نور الدين » (١١٤٦ - ١١٧٣م) ثم من بعده « صلاح الدين ».. إستراتيجية وَصْلِ المشرق بالمغرب، وتوحيد المشرق ومصر، وإحاطة الكيانات الاستيطانية الغربية من كل الجهات؛ حتى لا يبقى أمامها سوى البحر المتوسط لتعود عبره إلى أوربا حيث جاءت إلى بلادنا من هناك..

وتوقفت المفاوضات بين الملك الكامل وبين الصليبيين.. ودارت الحرب وأحرزت فيها مصر انتصارًا تاريخيًّا بدد كل آمال الغزاة وأحلامهم في سبتمبر سنة (١٢٢١م). توقفت المفاوضات وتعثرت بسبب إصرار العرب على ذلك الممر البري الذي يصل المشرق بالمغرب شمالي خليج العقبة وجنوبي فلسطين .. وهي نفس المنطقة التي دفع « برنادوت » حياته ثمنًا لاقتراحه إعطاءها للعرب عند قيام إسرائيل؟!..

---

(١) وهي التي تأسست في الموصل سنة (١١٢٧م)، وامتد نفوذها إلى الشام، وأحاطت بالكيانات الصليبية بعد وحدتها مع مصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة (١١٧٣م).

في العصر الحديث:

وعندما شرع الاستعمار - مع مطالع العصر الحديث - في تكرار محاولاته التاريخية للسيطرة على هذه المنطقة، كان قد استفاد من كل خبرات أسلافه في هذا الميدان.. ولكن بقي الهدف وهو السيطرة، وظلت وسيلته الأساسية هي تحطيم وحدة الأرض العربية بإقامة كيان غريب في هذا المكان من العالم العربي.. والتقت عندئذ مخططاته بأحلام اليهود والصهيونيين..

فعندما كانت فرنسا تحاول بواسطة « بونابرت » إقامة إمبراطوريتها الشرقية، طلب « بونابرت » من يهود العالم أن يتحالفوا مع فرنسا ضد العرب، وأن يكونوا لفرنسا العميل والشريك الأصغر في النهب الاستعماري الذي جاءت به حملته إلى الشرق العربي في ذلك التاريخ.. ومن على أبواب « عكا » - التي ردته مهزومًا - وجه « بونابرت » نداءه الشهير إلى يهود العالم في ٤ أبريل سنة (١٧٩٩م) طالبًا مؤازرتهم له في نظير أن تعيد لهم فرنسا « وراثة فلسطين »[١]..؟!!

وعندما انهارت أحلام « بونابرت » في سنة (١٨٠١م).. وانهارت من بعدها مخططات بريطانيا في معركة « رشيد » سنة (١٨٠٧م)، ونهضت في مصر دولة مدنية قوية حديثة بقيادة محمد علي حاولت - بأسلوب ذلك العصر - توحيد مصر

---

(١) انظر: نص النداء في كتابنا: « إسرائيل... هل هي سامية؟ » (ص ٣١، ٣٢)، ط. القاهرة، سنة (١٩٦٧م).

والسودان بالمشرق العربي (١٨٣١ - ١٨٤١م) قادت بريطانيا العمل لتحطيم ذلك الاتحاد، وأبصرت يومئذ دور الأقلية اليهودية العنصرية في ذلك المخطط.. وكتب وزير الخارجية الإنجليزي « بالمرستون » إلى سفيره في عاصمة الدولة العثمانية يقول في سنة (١٨٤٠م): « .. إن الشعب اليهودي بعودته إلى البلاد « فلسطين ».. يكون حجر عثرة في سبيل أي أهداف سيئة تخطر في المستقبل ببال محمد علي أو من يخلفه »[١].. ومنذ ذلك التاريخ تحدد دور الحركة الصهيونية، كحجر عثرة في سبيل أهدافنا في الوحدة - وهي الأهداف السيئة في نظر الاستعمار- سواء قام على تنفيذ هذه الأهداف محمد علي أو غيره.. فالهدف هو الحيلولة دون وحدة الأمة العربية وقوتها وتحررها وتقدمها عن طريق تمزيق أرضها المشتركة بزرع الكيان الصهيوني الغريب في هذا المكان..

وقبلت الصهيونية هذا الدور.. بل قامت حركتها السياسية الحديثة على يد « هرتزل » سنة (١٨٩٧م) كي تنهض بدورها في هذا المخطط الكبير .. قامت في سنة (١٨٩٧م) لتنفذ نفس الأهداف التي عبر عنها أحد قادة اليهود الفرنسيين قبل مائة سنة، في (١٧٩٨م) عندما أخذ ينحدث إلى يهود العالم عن أهمية هذا الموقع، وعن توسط سيناء للخريطة التي يحلم بها، فقال: « .. أما البلاد التي ننوي قبوله - باتفاق مع فرنسا -

(١) المرجع السابق (ص٤٢، ٤٣).

فهي: إقليم الوجه البحري من مصر، مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة « عكا » إلى « البحر الميت »، ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر.. فهذا المركز الملائم أكثر من أي مركز آخر في العالم يجعلنا - بواسطة سير الملاحة الآتية من البحر الأحمر - قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وإفريقيا الشمالية والجنوبية.. وموقع بلادنا من البحر المتوسط يمكننا من إقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وغيرها من بلدان أوربا. ولما كانت بلادنا في موقع متوسط من العالم، فإنها ستصبح كمستودعٍ لجميع الحاصلات التي تنتجها البلاد الغنية »[١]؛ فهو يرمي باختصار إلى سلب الوطن العربي قيمته الدولية وموقعه الإستراتيجي، ومركزه التجاري.. كل ذلك بواسطة شطره، والاستيلاء على الموقع المهم الذي تتوسطه سيناء.

وعندما يعقد حزب المحافظين الإنجليزي مؤتمرًا استعماريًّا أوربيًّا في سنة (١٩٠٥م) لدراسة تجارب الفشل والنجاح التي أصابتها من قبل الإمبراطوريات الأوربية في الشرق، يدرك هذا المؤتمر دور الوحدة العربية المرتكزة إلى وحدة أرض المنطقة في فشل إقامة واستمرار هذه الإمبراطوريات؛ ولذلك يوصي هذا المؤتمر « بإقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوربا بالعالم القديم، ويربطهما معًا بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة

---

(١) نقلًا عن كتاب: « يقظة العالم اليهودي » للكاتب الصهيوني إيلي ليفي أبو عسل، (ص ١٠١) وما بعدها، ط. القاهرة سنة (١٩٣٤م).

السويس قوة عدوة لشعب المنطقة، وصديقة للدول الأوربية ومصالحها »[١].. ولقد قامت الحركة الاستعمارية الأوربية بتوظيف الحركة الصهيونية للقيام بهذا الدور منذ ذلك التاريخ..

وهكذا نستطيع أن نبصر من خلال كلماتهم هذه.. كلمات خبراء الشئون الاستعمارية في أوربا، والدعاة الصهيونيين نفس المخطط القديم في ثوبه العصري الجديد.. وأن نرى في أطماع الإمبريالية والصهيونية في سيناء نفس الأطماع التي حلم بها فرسان الصليبيين في العصور الوسطى، مع اختلاف طفيف - يتعلق بالشكل فقط - بين الاختفاء خلف « استعادة قبر المسيح » و« استعادة هيكل سليمان »؟!!..

أما المخطط والأطماع فهي هي لم تتغير: فَصْمُ عُرَى وحدة الأرض العربية، للحيلولة بين العرب وبين التحرر والتقدم والاتحاد؛ وذلك لإحكام القبضة الإمبريالية على ثروات ومقدرات هذه المنطقة من المحيط إلى الخليج.. ومفتاح كل ذلك هو عزل مصر عن المشرق العربي.. وبناء سور استعماري أصم على مقربة من قناة السويس يحول دون نبض القاهرة الثوري حتى لا يُسمع في ربوع المشرق العربي الكبير...

وإذا كان هذا هو المخطط، وتلك هي الأهداف.. فإن فلسفة المواجهة لها والعمل لإحباطها، تظل هي كذلك دون تغيير،

---

(١) انظر: هذه الوثيقة في « ملف وثائق القضية الفلسطينية » (١/ ١٤٣)، ط. القاهرة، سنة (١٩٧٠ م).

فيما يتعلق بالأسس والجوهريات.. نفس الإصرار على وحدة الموقف الثوري لهذه الأمة.. نفس الإصرار على بقاء أرضها المشتركة دون فصم ولا تمزيق.. نفس الإصرار على التقدم في اتجاه تطويق الكيان العنصري الصهيوني الإمبريالي حتى يأتي اليوم الذي يلقى فيه نفس مصير الكيانات الغريبة والشاذة التي زرعها من قبل الاستعمار في هذا المكان. وفي كل المواقف، وجميع المراحل، نفس الإصرار على أن تظل سيناء الجسر الحضاري والقومي الذي يحقق لأمتنا ويضمن لها امتلاك خصائصها وقسماتها القومية، دونما ضعف أو نقصان.. نفس الإصرار على أن تظل سيناء: الشرط الثالث للقومية العربية، ذات الرايات الخفاقة، رغم المصاعب والأزمات والمنعطفات.

* * *



منذ متى كانت سيناء مصرية؟؟!



منذ متى كانت سيناء مصرية[1] ؟!

هذه الصفحة من تاريخ وحدة هذا الوطن، التي تحكيها هذه الدراسة، مهداة إلى أولئك الذين يتصدون اليوم - بالسياسة - لمنازلة قوى العدوان التي خاضت ضدها قواتنا المسلحة معركة أكتوبر المجيدة.. وهي كذلك مهداة إلى كل باحث في وحدة هذا الوطن التي ظلت مقدسة طوال عصور التاريخ.

* في الجولة المسلحة التي أنجزها الإنسان العربي في أكتوبر سنة (١٩٧٣م) ضد الحركة الصهيونية العنصرية المدعومة بالإمبريالية، في هذه الجولة المسلحة - التي هي صفحة من صفحات صراع طويل - أثبت الإنسان العربي قدرته الفائقة في استخدام السلاح، وإحراز الانتصارات في ميادين القتال..

---

(١) في أول زيارة لـ « هنري كيسنجر » - مستشار الأمن القومي الأمريكي - لمصر، عقب حرب أكتوبر سنة (١٩٧٣م)، تساءل هذا التساؤل الاستنكاري!.. فكانت هذه الدراسة التي نشرت - أول مرة - في مجلة « الكاتب » مارس سنة (١٩٧٤م)، تحت العنوان الذي صاغه « كيسنجر »: « منذ متى كانت سيناء مصرية؟! ».

ولم يعد الجندي الصهيوني هو وحده الذي يملك زمام التفوق في هذا الميدان..

ولما كان صراعنا الوطني والقومي والحضاري ضد هذه الغزوة « الصهيونية - الإمبريالية » طويلًا، ومتعدد الفصول، ومتنوع المجالات والميادين، فإنه لأمر حيوي وضروري أن يثبت الإنسان العربي - في نضاله هذا - أن كفاءته في مختلف الميادين - فكرية، وإعلامية، وحضارية - لا تقل عن الكفاءة الباهرة التي استخدم بها السلاح في جولة أكتوبر المجيد..

ولقد علمتنا - وتعلمنا - الحركة الصهيونية العنصرية أن الفكر سلاح مهم جدًّا من أسلحة هذا الصراع، فهي لا تهتم به فقط كي تقنع الرأي العام العالمي وتؤثر في الرأي العام العربي، بل وتلجأ إليه كي تحكم قبضتها على العناصر اليهودية التي تجلبها وتشجعها على الهجرة من مواطنها الأصلية إلى دولة إسرائيل.. تلجأ إلى الفكر كي تقنع هذا الخليط المجلوب من الشتات بأن « الحل الصهيوني » هو الحل الأمثل والوحيد « للمشكلة اليهودية » ولتعميق هذه المفاهيم الصهيونية عن طريق تحويل أساطير التراث اليهودي إلى حقائق واقعية تجعل منها تراثًا قوميًّا « مصنوعًا ومصطنعًا » لكيان عنصري تريد أن تزرعه في قلب الأمة العربية؛ كي يحول دون وحدتها وتحررها من الاستعمار الجديد..

وإذا كانت هذه هي أهمية الصراع « العربي - الصهيوني »

على الجبهة الفكرية، فإن ذلك يلقي المزيد من التبعات على عاتق المفكرين والمثقفين العرب، الذين لا بد لهم وأن ينهضوا بمسئولياتهم على جبهتهم هذه بنفس الكفاءة والعطاء والفداء الذي قدمه المقاتل العربي في جولة أكتوبر المسلحة..

ولقد عودتنا الدوائر الفكرية والسياسية للحركة الصهيونية أن تثير من القضايا وتلقي من الشكوك حول أمور ومسلمات نحسبها بديهية، فنهمل التصدي لها، ثم لا نلبث أن نجد قطاعات من الرأي العام العالمي - فضلًا عن الإسرائيلي - قد أصبحت لا ترى في هذه الأمور إلا ما ألقت إليها الصهيونية من قضايا وشكوك .. حدث ذلك بصدد « عروبة فلسطين »، وبصدد ما زعموا من « حقوق قومية » للحركة الصهيونية العنصرية على أرض إسرائيل الكبرى، التي تمتد من النيل إلى الفرات، وبصدد ما قالوا عن أن غزوهم لسيناء سنة (١٩٥٦م) إنما كان « تحريرًا » لجزء من أرض الشعب اليهودي!!... إلخ ... إلخ..

واليوم.. ونحن نتصدى لجولة من الصراع السياسي والفكري مع الحركة الصهيونية - بعد جولة أكتوبر المسلحة - تطرق أسماعنا أصوات تتساءل مشككة في « عروبة سيناء ومصريتها » وتقول: منذ متى كانت سيناء مصرية؟!

وإذا كان هذا السؤال استفزازيًّا - وهو كذلك - وخاصة عندما يوجه لشعب مثل شعبنا له حضارة وتراث وطني يضرب في أعمق أعماق التاريخ بأبعد الجذور وأطولها.. فإننا يجب أن

لا ندع مشاعر الاستفزاز تسيطر على تفكيرنا ونحن نجيب على هذا السؤال.. ذلك أننا نخوض صراعًا سياسيًّا وفكريًّا ضد عدو يستميت في محاولة الحصول على مكاسب سياسية من وراء هذه الشكوك، ويحاول أن يكسب تأييد الآخرين لما يطرح من قضايا يبنيها على هذه التساؤلات، كما أننا يجب أن ندرك أن تفكيرنا الموضوعي والعلمي، وإجابتنا المدروسة على مثل هذه التساؤلات المشككة ستمثل بالنسبة لنا تعميقًا ضروريًّا ومطلوبًا لوعينا بتاريخنا وتاريخ أرضنا وحضارتنا وتراثنا، وهو أمر ضروري في ضمان النصر لنا في هذا الصراع المتعدد الجنبات والميادين..

خطأ منهجي في الرد:

وبصدد الرد على هذا التساؤل المشكك في عروبة سيناء ومصريتها، والذي يريد أن يصل إلى طرحها على بساط البحث موضوعًا للأخذ والعطاء، ومجالًا تطلب منه المغانم والأسلاب؟!.. فلقد كانت هناك بعض الردود العربية والإجابات.. ولكنها جميعًا وبغير استثناء قد سلكت منهجًا خاطئًا في الرد، فلم تصل إلى الثمرة الفكرية المرجوة من وراء بحث يتصدى لتقرير الحقيقة، التي تؤكد أن سيناء مصرية منذ أن عرف الإنسان تاريخًا يؤرخ لوحدة أرض وطن من الأوطان..

لقد قال البعض في رده على هذا التساؤل المشكك: إن هناك « برديات » مصرية فرعونية تحكي رسائل حب بعث بها ضابط مصري من العريش إلى محبوبته في عاصمة مصر.. وهذا القول

صادق.. ولكنه ليس جوابًا كافيًا ولا مقنعًا.. إذ إن ذلك لا يثبت أن « العريش » كانت جزءًا من « الوطن المصري ».. فأن يكون هناك ضابط أو ضباط مصريون مع حاميتهم العسكرية في سيناء فإن ذلك لا يثبت أن سيناء جزء من الوطن المصري... ففي قلاع سيناء أقام ضباط « فرس » و« رومان » و« إنجليز »، وكتبوا من هناك الرسائل والخطابات في عصور مختلفة وقديمة من التاريخ؟!..

وقال آخرون: إن من الآثار الفرعونية المحفوظة حتى اليوم في متاحفنا ومتاحف أوربا: مجموعة من الصخور التي تسجل أعمال « التعدين المصرية » في مغارات سيناء.. ونحن نعتقد أن حظ هذا الدليل لا يختلف عن حظ خطاب الغرام الذي سجلته « البرديات » من ضابط مصري بالعريش إلى محبوبته في عاصمة البلاد؟!

على أن أكثر المحاولات جدية في التصدي لذلك التساؤل المشكك كانت هي تلك التي سرد أصحابها وقائع محاولات الأتراك العثمانيين اقتطاع سيناء من مصر، خاصة بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة (١٨٨٢م)، ورفض الخديوي عباس حلمي التنازل عن سيناء عندما خلا فرمان توليته عرش الخديوية المصرية من ذكر سيناء سنة (١٨٩٢م)، مما اضطر الصدر الأعظم جواد باشا إلى أن يبرق للخديوي في ٨ أبريل سنة (١٨٩٢م) بأن ولايته على إدارة سيناء قائمة كما كان الأمر زمن جده محمد علي ..

ورغم أهمية هذه الواقعة، وواقعة الاتفاق (المصري - العثماني) الموقع في أول أكتوبر سنة (١٩٠٦م)، والذي ينهي النزاع على الحدود الشرقية لمصر، ويقرر أن سيناء مصرية[١] .. رغم أهمية هذه الوقائع، فإننا نعود فنقول: إن الذين اتجهوا هذا الاتجاه وهم يجيبون على التساؤل المشكك في مصرية سيناء وعروبتها ، قد وقعوا في الخطأ المنهجي الذي يجب أن نتحاشاه ونحن نبحث هذا الموضوع المهم.

ذلك أن التصرفات الصادرة عن السلطة التركية العثمانية التي حكمت مصر - حقيقة أو اسمًا - من سنة (١٥١٧م) حتى سنة (١٩١٤م).. وتعديلات هذه السلطة في حدود مصر لا يمكن أن تتخذ حجة أو دليلًا تاريخيًّا نعطيه أية أهمية ونحن نبحث مثل هذه الأمور.. فالأتراك العثمانيون كانوا وافدين على مصر، والحدود الوطنية لا تقوم ولا تسقط ولا تتعدل بقرارات الوافدين وتصرفاتهم - سواء أكانت إضافة أم انتقاصًا - وذلك بدليل أننا نشهد الكثير من الأمم التي تتحرر تخوض صراعات على الحدود؛ كي تصحح الأخطاء وتعدل الآثار التي صنعها الأجانب، فقيمة وثائق العثمانيين، فيما يتعلق بحدود مصر رغم أهميتها.. ليست هي التي تحسم الشكوك والتساؤلات.. ولا هي أفضل البراهين على مصرية سيناء وعروبتها..

هذا عن الخطأ المنهجي الذي وقع فيه الذين تصدوا للرد على التساؤل المشكك في مصرية سيناء..

---

(١) ألبرت برسوم (سيناء مصرية أولًا وأخيرًا) الأهرام (٧/ ١/ ١٩٧٤م).

كتب الخطط... وعصور الاستقلال:

إذن فلا بد لنا أن ننهج طريقًا آخر كي نضع بين يدي الباحث والقارئ العربي حقيقة عروبة سيناء ومصريتها، وتاريخ ذلك.. ولا بد أن يكون منهجًا علميًّا، حتى نقدم - أيضًا - لأولئك الذين يواجهون حجج العدو وشكوكه وشبهاته سلاحًا فكريًّا وحقائق تاريخية تقطع الطريق على هذه الشكوك..

ونحن نعتقد أن المنهج العلمي في بحث هذا الموضوع يتطلب منا أن نولي الاهتمام لتبين حدود مصر ووحدتها الوطنية في عصور استقلالها على وجه الخصوص... وأن تكون مصادرنا التي نعتمد عليها في ذلك هي الكتب التي اختصت وتخصصت في تحديد حدود الوطن ومسح أرضه، ووصف عمرانه، والحديث عن تقسيماته الإدارية، وقياس أطوال حدوده، ورسم معالمها وآثارها، والتي استخدمت في كل ذلك معارف عصرها والعصور التي سبقته، وهي المصادر التي عرفت في تراثنا التاريخي بكتب « الخطط ».. وأيضًا أن يكون اعتمادنا الغالب على المصريين من كتَّاب هذه « الخطط » بالذات.. ذلك هو المنهج العلمي اللازم لتقرير الحقيقة في مثل هذا الموضوع..

ونحن إذا شئنا أن نستعرض أبرز علماء التاريخ الذين عرضوا لتحديد حدود مصر - وخاصة المصريين منهم، وكتاب « الخطط » بالذات - فإننا سنجد منهم كثرة تبعث سمعتهم التاريخية ودقتهم العلمية على الاطمئنان اليقيني إلى ما يقررون.. فلدينا مثلًا:

(١) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله « المتوفى سنة (٢٥٧هـ / ٨٧١م) » صاحب كتاب: (فتوح مصر وأخبارها) الذي يعد أقدم مرجع يؤرخ لمصر العربية، وهو حجة لا يرقى الشك إليه، سواء في دوائر المؤرخين العرب أو بين علماء الاستشراق .. وهو مصري، ولد وعاش ومات بمصر، وكان أحد علماء عصره..

(٢) ابن خرداذبة، عبد الله بن أحمد (٢٠٥ - ٢٨٠هـ/ ٨٢٠ - ٨٩٣م) وهو مؤرخ وجغرافي شهير.. وإذا لم يكن مصريًّا، إلا أنه قد كتب عن حدود مصر في كتابه الشهير: (المسالك والممالك).. وهو من أوثق المصادر في علم (الجغرافيا)، الذي كان يسمى قديمًا (علم تقويم البلدان).

(٣) المسعودي، علي بن الحسين، المتوفي سنة (٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، وهو مؤرخ ورحالة وبحاثة، نشأ في بغداد، ولكنه جاء إلى مصر فأقام بها وتوفي ودفن فيها.. وهو صاحب المرجع التاريخي الشهير: (مروج الذهب) الذي عرض فيه لتحديد حدود مصر منذ أقدم العصور..

(٤) أبو عمر الكندي، محمد بن يوسف بن يعقوب (٢٨٣-٣٥٥هـ/ ٨٩٦ - ٩٦٦م).. وهو مؤرخ وعالم من علماء الحديث المصريين، بمصر ولد ونشأ وتوفي، كتب عن: (الولاة والقضاة) الذين تولوا الحكم والقضاء بها، ويصفونه بأنه كان « أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثغورها »..

(٥) القضاعي، محمد بن سلامة المتوفى سنة (٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م) وهو مؤرخ ومفسر وفقيه، مصري، اشتغل إلى جانب التأليف بالكتابة لأحد الوزراء الفاطميين. وتولى القضاء، وذهب سفيرًا إلى بلاد الروم.. ومن أشهر آثاره الفكرية - في موضوعنا - كتابه: (المختار في ذكر الخطط والآثار) وفيه وصف حدود مصر كأوضح ما يكون الوصف الذي يرسم الخرائط في عصرنا الحديث..

(٦) ابن بركات، محمد بن بركات بن هلال السعدي المصري (٤٢٠ - ٥٢٠هـ/ ١٠٢٩ - ١١٢٦م) صاحب كتاب: (خطط مصر) الذي كتبه أواخر العصر الفاطمي..

(٧) الجواني، محمد بن أسعد (٥٢٥ - ٥٨٨هـ/ ١١٣١ - ١١٩٢م) وهو مؤرخ وعالم بالأنساب، مصري ، ولد وتوفي بمصر، وكتب وصف مصر في كتابه الذي سماه: (النقط بحجم ما أشكل من الخطط).. نبه فيه على ما حدث من المعالم بعد تأليف السابقين له، وما اندثر من الآثار التي وصفوها.

(٨) ابن عبد الظاهر، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان (٦٢٠ - ٦٩٢هـ/ ١٢٢٣ - ١٢٩٣م)، وهو مؤرخ وأديب مصري، ولد ومات بها، وإلى جانب اشتغاله بالتأليف تولى منصب القضاء.. وكتب في موضوعنا كتابه: (الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة).

(٩) ابن المتوج، محمد بن عبد الوهاب (٦٢٩ - ٧٣٠هـ / ١٢٤١- ١٣٢٩م) وهو مؤرخ مصري، كتب في موضوعنا

كتابه (إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل) في أحوال مصر وخططها، سجل فيه وصفها ورصد معالمها حتى سنة (٧٢٥هـ).

(١٠) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد (٧٥٠- ٨٠٩ هـ/ ١٣٤٩ - ١٤٠٧م) وهو مؤرخ مصري، يصفه المستشرقون بأنه مؤرخ الديار المصرية في عصره ويضعون كل ثقتهم في تاريخه.. وفي موضوع خطط مصر كتب كتابه (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) إلى جانب كتبه التاريخية الأخرى[١].

(١١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (٧٦٦ - ٨٤٥هـ/ ١٣٦٥ - ١٤٤١م) وهو مؤرخ مصري قاهري، ولد وعاش ومات بها، وأتاحت له مناصبه التي تولاها - الحسبة والخطابة والإمامة - أن يغوص في أعماق واقع مصر وأهلها، فألف الآثار التاريخية التي جعلته مؤرخ الديار المصرية في عصره، بل وجعلت منه واحدًا من قلة قليلة يعدون أبرز مؤرخي مصر على امتداد تاريخها العربي.. كما جعلت من كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) أهم الكتب التي وضعت في خطط مصر، خصوصًا وأنه قد سجل فيه آراء من تقدمه من كتَّاب (الخطط) فحفظ لنا ملاحظاتهم، نقرؤها بعد أن فقدت أصولها من مكتبة التاريخ..

هؤلاء هم أبرز علماء التاريخ المصري الذين كتبوا في (خطط مصر) فحددوا حدودها الوطنية، ووصفوا معالم هذه الحدود

---

(١) انظر في ذلك: (خطط المقريزي) (١/ ٦، ٧)، ط. دار التحرير، القاهرة، وكذلك (الأعلام) لخير الدين الزركلي، ط. بيروت.

على مر العصور والأحقاب.. فماذا كتبوا في هذا الموضوع، وبالذات عن الانتماء الوطني لسيناء؟؟..

إننا سنعرض لحدود مصر، والانتماء الوطني لسيناء، كما قرره هؤلاء المؤرخون الأعلام، وذلك في المراحل التاريخية الآتية:

أ- سيناء قبل الفتح العربي لمصر..

ب- سيناء عند الفتح العربي لمصر..

جـ- سيناء بعد الفتح العربي لمصر، وحتى عصر المقريزي - القرن الخامس عشر الميلادي - أي ما قبل الفتح العثماني بثلاثة أرباع القرن..

ما قبل الفتح العربي:

عن حدود مصر، والانتماء الوطني لسيناء - في هذه الفترة - يتحدث المؤرخون بادئين من نقطة البدء التي كان يحلو لهم الوقوف عندها كثيرًا، وهي ما بعد الطوفان.. وابن عبد الحكم يحدد حدود مصر في ذلك الزمن السحيق بأنها كانت تبدأ من مكان خلف مدينة « العريش »، عند مكان كانت فيه شجرتان، وتمتد هذه الحدود جنوبًا حتى « أسوان » ، أما عرضها فيمتد من « برقة » في الغرب حتى « أيلة » في الشرق.. فيقول: إن أول ملوك مصر في ذلك الزمن قد حاز « ما بين الشجرتين » خلف « العريش » إلى « أسوان » طولًا، ومن« برقة » إلى « أيلة » عرضًا[1].

---

(١) ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) (ص ٩)، ط. ليدن (١٩٢٠م)، بتحقيق: المستشرق تشارلس توري.

وهنا يجب أن نلاحظ أن « برقة » تدخل في حدود مصر من الغرب، وأن « أيلة » - التي هي الآن « إيلات » - تدخل في حدود مصر من الشرق.. وأن حدها الشمالي الشرقي لايبدأ من العريش، وإنما من مكان ما « بين الشجرتين » خلف العريش، وهو المكان الذي سيتضح كل الوضوح فيما سنعرض من نصوص..

أما المسعودي فإنه يكتب على نفس الفترة، فيقول: إن المجتمع المصري قد تكوَّن يومئذ « فاجتمع الناس، وانضافوا إلى جملتهم، وأخصبت البلاد » وأن ملك مصر يومئذ قد تملك « وملك » من حد « رفح » من أرض فلسطين من بلاد الشام إلى بلاد « أسوان » من أرض الصعيد طولًا، ومن « أيلة » - وهي تخوم الحجاز - إلى « برقة » عرضًا.. »

يروي المسعودي هذه الرواية على النمط الذي يجعلها الرواية الموثوق بها.... ثم يحكي بصيغة اللغة العربية التي تدل على ضعف الرواية وتدني مرتبتها في الصدق والثقة - صيغة « قيل » - يحكي الرواية التي تقول: إن الحدود الشمالية لا تبدأ من رفح وإنما من مكان بين رفح والعريش، فيقول: « وقيل من العريش، وقيل: من الموضع المعروف بالشجرة، وهو آخر أرض مصر، والفرق بينها وبين الشام، وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح »..

ونحن نعتقد أن أصحاب هذه الرواية التي تقول إن الحدود كانت تبدأ من العريش لم يعنوا العريش كمدينة، وإنما العريش

كمحافظة - بلغة عصرنا - أو كعاصمة و « بندر » إقليمي كانت تتبعه مساحات من الأرض تدخل في ضمنها رفح، وهو التفسير الذي يوفق بين الروايات.. والذي سيأتي عليه الدليل من النصوص التي سنعرض لها بعد قليل..

عند الفتح العربي:

وإذا كان الفتح العربي قد أعاد صياغة المنطقة حضاريًا، وأدخلها في طور جديد لا زال عصرنا الحاضر يشكل امتدادًا متطورًا له، كما أنه قد فتح الطريق لكتابة تاريخها الذي لا زال في يدنا موثقًا محفوظًا، وأدخل في هذا التاريخ كتابه « الخطط » التي تصف المعالم وتحدد الحدود... إذا كان الأمر كذلك، فإن وصف المصادر الأصلية وتحديدها لحدود مصر عند حدوث الفتح العربي لها لهو أمر بالغ الأهمية في تحديد الانتماء الوطني لسيناء منذ ذلك التاريخ..

ولحسن الحظ فإن أقدم هذه المصادر قد وصف وحدد لنا حدود مصر في اللحظات - نعم اللحظات - التي كانت تزحف عليها فيها قوات الفتح التي يقودها عمرو بن العاص، فهي حدود إذن لم يصنعها الفتح العربي، وإنما وجدها العرب الفاتحون..

وفي هذا المقام يتحدث ابن عبد الحكم، وهو يسرد القصة الشهيرة التي تحكي لقاء عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب في « الجابية » بفلسطين، وكيف طلب عمرو من الخليفة أن يأذن له

بالمسير لفتح مصر، وكان الخليفة مترددًا، ولكنه وافق على أن يسير عمرو بن العاص بجيشه نحو مصر، حتى يستكمل الخليفة مشورته وتفكيره، ثم يبعث إليه بكتابه، فإن كان الكتاب يطلب إليه العدول عن فتح مصر وجاءه قبل أن يدخل حدود مصر، فليرجع، أما إن كان قد دخل حدود مصر فليكمل مهمة الفتح، حتى ولو كان كتاب الخليفة يطلب منه الرجوع... إذن فإن تحديد حدود مصر - وبالذات من الشرق - هنا أمر واضح ودقيق.. يقول ابن عبد الحكم: إن عمر بن الخطاب قال لعمرو ابن العاص: «... سر، وأنا مستخير الله في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا - إن شاء الله - فإن أدركك كتابي آمرك فيه الانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره».

فسار عمرو بن العاص... واستخار عمر الله، فكأنه تخوف على المسلمين (وفي رواية) أن عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب، فقال عمر: كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر.. فقال عثمان: يا أمير المؤمنين إن عَمْرًا لجريء، وفيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يعرض المسلمين للهلكة.. فندم عمر... وكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين (عن فتح مصر) فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح، فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الأمر بالانصراف.. فلم يأخذ الكتاب من الرسول... حتى نزل

قرية فيها بين رفح والعريش، فسأل عنها، فقيل: إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه، وقال لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى، قال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني: إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله!..»[١].

فعمرو بن العاص - هنا - لم يشأ أن يتسلم كتاب أمير المؤمنين إلا بعد أن « يتوغل » بعض الشيء في أرض مصر، ويتجاوز حدودها؛ حتى لا تكون هناك شبهة في دخوله حدودها، وكان المكان الذي قطع فيه الطرق على هذه الشبهة قرية في الشرق من العريش.

أما حدود مصر الغربية يومئذ فكانت « برقة » أيضًا و« برقة » داخلة فيها.. فعمرو بن العاص يتحدث عن « قبط مصر » وأهلها، فيذكر فيهم: أهل « أنطابلس » (برقة) عندما يقول : « لقد قعدت مقعدى هذا، وما لأحد من قبط مصر عليّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس - وهي برقة - فإن لهم عهدًا يوفى لهم به.. »[٢].

ما بعد الفتح العربي:

أما بعد الفتح العربي، وعلى امتداد تسعة قرون - هي تاريخها السابق على الحكم العثماني - فإن حدود مصر، والانتماء الوطني

---

(١) المصدر السابق (ص٥٦، ٥٧). (٢) المصدر السابق (ص٨٦، ١٧٠).

لسيناء، قد ظلت واضحة ومتألقة في مصادر التاريخ والخطط التي كتبها الأعلام عن هذه البلاد.

* ففي القرن الثالث الهجري - أي بعد ابن عبد الحكم - يكتب ابن خرداذبة في كتابه: (المسالك والممالك) عن حدودها، فيقول: « وحدها طولًا من « برقة » إلى « أيلة » ، وعرضًا من « أسوان » إلى « رشيد »..»[١].

* وفي القرن الثالث الهجري يكتسب المسعودي، فيقول: « وأرض مصر: ما بين « أسوان » واليمن والعريش وأيلة وفرسيه...وفي قبليها (جنوبيها) النوبة، وفي شرقيها الشام، وفي شمالها بحر الزقاق (البحر المتوسط)، وفي غربها برقة...».

وهو هنا يدخل البحر الأحمر في حدودها، فيجعل اليمن في شرقها المقابل لأسوان.

* وفي القرن الخامس الهجري يأتي القضاعي في كتابه: (المختار في ذكر الخطط والآثار) ليرسم معالم حدود مصر، فيقول: «... الذي يقع عليه اسم مصر: أرض أنطابلس، وهي برقة ».

وفي حديثه عن حدها الشرقي إلى الشمال من ميناء « عيذاب » ، على البحر الأحمر، يدخل كل البحر الأحمر وأجزاء من شاطئه الشرقي في حدود مصر، فيقول: « ثم ينقطع البحر الملح عند عيذاب إلى أرض الحجاز، فينزل الحوراء أول أرض مصر،...

---

(١) تاريخ ابن خلدون، المجلد الثاني، (١/ ٧٨)، ط بيروت.

وهذا البحر هو بحر القلزم (البحر الأحمر) وهو داخل في أرض مصر بشرقيه وغربيه وبحريه (أي شماله، وهو سيناء) فالشرقي والبحري منه مدينة القلزم (ومكانها الآن مدينة السويس) وجبل الطور... فهذا المحدود من أرض مصر.. »[1].

وهنا نود أن نشير إلى أن تحديد القضاعي هذا يثير بعض القضايا وبعض الشبهات..

فهو يؤكد أن حدود مصر الشرقية - على البحر الأحمر - كانت تتخطى هذا البحر شمالي ميناء عيذاب، فيصبح البحر بشاطئيه الشرقي والغربي داخلًا في حدود مصر، ويذكر من المواضع التي تدخل في حدود مصر على شاطئه الشرقي مواضع: الحوراء، وطنسة، والنك، ومدين، ثم أيلة (إيلات) فصاعدًا..

كما يثير شبهة اشتبهت على البعض، ومنهم القلقشندي، صاحب (صبح الأعشى) عندما ظن أن القضاعي يخرج رفح من حدود مصر الشمالية الشرقية؛ لأنه ذكر أنها تبدأ من العريش.. وعن هذه الشبهه يقول القلقشندي: إنه « قد اضطربت عبارات المصنفين في المسالك والمالك في تحديدها (أي تحديد حدود مصر) والذي عليه الجمهور (الأغلبية) أن حدها الشمالي.. يبتدئ مما بين الزعقة ورفح (شرقي رفح) عند حدها من الشام، والبحر شماله، ويمتد غربًا على ساحل البحر المذكور حيث الشجرتين... عند الكُثُب (الرمال) المجنبة عن البحر الرومي

---

(١) خطط المقريزي (١/ ٢٧، ٣٩٨).

(البحر المتوسط) إلى رفح، ثم إلى العريش، آخذًا على الجفار، إلى الفرما ، إلى الطينة، إلى دمياط، إلى ساحل رشيد، إلى الإسكندرية... إلى برقة، إلى العقبة (الكبرى) الفاصلة بين الديار المصرية وإفريقية (تونس الآن).

وحدها الغربي يبتدئ من ساحل البحر الرومي، حيث العقبة (الكبرى)، ويمتد جنوبًا... حتى يقع على صحراء الحبشة، على ثماني مراحل من أسوان... وحدها الجنوبي يبتدئ من آخر هذا الحد بصحراء الحبشة، ويمتد شرقًا.. حتى ينتهي إلى بحر القلزم مقابل أسوان..

وحدها الشرقي يبتدئ من آخر هذا الحد ويمتد شمالًا، وبحر القلزم شرقيه إلى عيذاب، إلى القصير، إلى السويس، ثم يأخذ شرقًا.. إلى تيه بني إسرائيل (أي الموضع الذي تاه وضل فيه العبرانيون عند طردهم من مصر، وهو في سيناء بين مدينة فاران - على خليج السويس في سيناء - وبين أيلة شمال خليج العقبة - وكانت مسافته قديمًا مرحلتين - ثم يعطف شمالًا ويمر على أطراف الشام حتى ينحط ما بين الزعقة ورفح ساحل البحر الرومي حيث وقعت البداءة).

وبعد هذا التحديد الذي قال القلقشندي إنه رأي أغلبية المؤرخين، يمضي ليفصل ويوثق ذلك فيقول:

« وعلى هذا التحديد جرى السلطان عماد الدين صاحب حماة (أبو الفداء) في (تقويم البلدان)، والمقر الشهابي بن فضل الله

في (التعريف)، إلا أنه في (تقويم البلدان) جعل ابتداء الحد الشمالي نفس رفح، ونهاية الحد الغربي حدود بلاد النوبة، وفي (التعريف) جعل ابتداء الحد الشمالي ما بين الزعقة ورفح، ونهاية الحد الغربي صحراء بلاد الحبشة... والأمر في ذلك قريب...

فالقلقشندي هنا يرى أن ابن فضل الله، صاحب (التعريف) قد جعل ابتداء حد مصر الشرقي من الشمال، أبعد - جهة الشرق - مما جعله أبو الفداء.. فالأول جعله ما بين الزعقة ورفح، أي شرقي رفح، بينما الثاني قد جعله نفس رفح..

ثم يأتي دور الانتقادات التي يوجهها القلقشندي، يأتي دورها على القضاعي، فيقول صاحب (صبح الأعشى):

« وخالف في ذلك القضاعي، فجعل ابتداء الحد الشمالي من العريش...وجعل الحد الجنوبي يقطع بحر القلزم وينتهي إلى ساحل الحجاز بالحوراء (أحد منازل طريق الحجاز من مصر)، والحد الشرقي يمتد على ساحل البحر الشرقي إلى مدين، إلى أيلة، إلى تيه بني إسرائيل، إلى العريش...»

ثم يختم كلامه بقوله: « .. واعلم أن جميع المحددين لها وإن اختلفت عباراتهم في ابتداء الحد الشمالي الفاصل بينها وبين الشام، هل هو من العريش؟ أو من رفح؟ أو بين الزعقة ورفح؟ متفقون على أن ابتداء الحد حيث الشجرتين، وكأنهما شجرتان قديمتان حدد في الأصل بهما؟!..»[١].

---

(١) القلقشندي (صبح الأعشى) (٢/ ٣١٠، ٣١٢)، طبعة القاهرة.

ونحن نود أن نقول: إنه ليس هناك خلاف بين كتَّاب (الخطط) و (تقويم البلدان) حول هذا الموضوع، وأن هذا الخلاف - الذي ظنه القلقشندي - ليس له وجود.. وأدلتنا على ذلك:

(١) أن القلقشندي نفسه يعترف باتفاق المؤرخين على أن مكان الشجرتين هو بدء حدود مصر الشرقية الشمالية، وهو ما يقودنا إلى أن الخلاف المتوهم قد ظنه القلقشندي من اختلاف التعبير عند الحديث على هذه الحدود.. فالذين قالوا: إن مبدأها رفح، لم يعنوا مدينة رفح، بل عنوها مع أعمالها، فكلامهم يشمل إلى مكان الشجرتين بين الزعقة ورفح، أي شرقي رفح..

(٢) أن الذين قالوا إن مبدأ الحدود العريش لم يعنوا مدينة العريش، بل قصدوا العريش وما يتبعها.. ولنا على ذلك الأمر الذي فيه الحسم لهذه القضية دليل لا يقبل التأويل.. فالقضاعي - وهو الذي قال إن الحدود تبدأ من العريش - عندما يتعرض لتقسيم مصر الإداري ويعدد بلدانها وعواصمها الإقليمية و « كورها » يتحدث عن « كورة الفرما والعريش والجفار »[١].. فبعد الفرما - شرقًا - يذكر العريش، ثم يذكر بعد العريش: الجفار.. فما هي هذه الجفار؟.. إن المقريزي يحدثنا عنها، فيقول: « اعلم أن الجفار اسم لخمس مدائن، وهي: الفرما، والبقارة، والواردة، والعريش، ورفح.. والجفار كله رمل، وسمي بالجفار لشدة المشي فيه على الناس والدواب، من كثرة رمله وبُعْدِ مراحله، والجفار تجفر فيه الإبل، فاتخذ له هذا الاسم ...»[٢].

---

(١) خطط المقريزي (١/ ١٣٤). (٢) المصدر السابق (١/ ٣٥٣).

إذن؛ فالقضاعي لا يقف بحدود مصر عند العريش، وإنما يدخل فيها رفح وما يتبعها، ولا يختلف في ذلك مع غيره من المؤرخين أي أن كوكبة المؤرخين، الذين وصفوا حدود مصر وتحدثوا عنها لا يزال فكرهم متفقًا على أن هذه الحدود تشمل كل سيناء، وأيلة (إيلات) وما جاورها - بتعبير القضاعي: « أيلة وحيزها »[١]- وأنها تبدأ في الشمال شرقي من مدينة رفح..

* وفي القرن الثامن الهجري يكتب ابن دقماق كتابه: (الانتصار بواسطة عقد الأمصار) فيتحدث عن حدود مصر، فيقول:

« إن الحد الشمالي لديار مصر هو بحر الروم من رفح إلى العريش، ممتدًّا على الجفار إلى الفرما، إلى الطينة، إلى دمياط، إلى ساحل رشيد، إلى الإسكندرية، إلى برقة.. »[٢].

وابن دقماق بهذا التحديد يمثل حلقة متصلة في سلسلة الموقف المتحد - في جوهره - للمؤرخين المصريين والعرب حول هذا الموضوع..

* ثم يأتي القرنان الثامن والتاسع الهجريان، فيكتب أبرز كتاب (الخطط) تقي الدين المقريزي محددًا حدود مصر؛ فيقول:

« اعلم أن أرض مصر لها حد يأخذ من بحر الروم إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة في

---

(١) (الإشارة لمن نال الوزارة)، لابن الصيرفي، هامش (ص ٣٤)، تحقيق: عبد اللّه مخلص، ط. المعهد الفرنسي، القاهرة (١٩٤٤م).

(٢) خطط المقريزي (١/ ٢٦).

حد أسوان - على حد أرض السنجة في قبليّ أسوان - حتى ينتهي إلى بحر القلزم، ويجاوز القلزم إلى طور سيناء، ويعطف على تيه بني إسرائيل مارًّا إلى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح، ويرجع إلى الساحل مارًّا على بحر الروم.

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها: أن حدها في الطول من مدينة برقة.. إلى أيلة من ساحل الخليج (خليج العقبة) الخارج من بحر الحبشة والزنج (البحر الأحمر).. وحدها في العرض من مدينة أسوان.. إلى رشيد.. »[1].

ويؤكد المقريزي في أكثر من موضع أن أيلة (إيلات) جزء من مصر، وكذلك مدين على الشاطئ الشرقي لخليج العقبة.. فيقول: « وفي كور (مصر) القبلية: مدينة فاران،.. ومدينة أيلة.. ومدينة مدين.. وقال البكري: مدين بلد بالشام.. وهذا وهم، بل مدين من أرض مصر... ويذكر أن فاران اسم لجبال مكة، وقيل: اسم الحجاز، وهي التي ذكرت في التوراة، وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين إلى اليوم، وبها نخل كثير مثمر أكلت من ثمره.. وهي خراب يمر بها العربان.. وأكثر هذه المدائن قد خرب..»

ثم يتحدث عن العقبة - المجاورة لأيلة - وعن وقوعها ضمن حدود مصر وقيام سلطان الحكومة المصرية عليها، فيقول وهو يتحدث عن « التيه »: « هو أرض بالقرب من أيلة، بينها

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٣٥).

عقبة لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها، إلا أنها مهدت في زمان خمارويه بن أحمد بن طولون ».

وعن سلطان الحكومة المصرية على أيلة في القرن الخامس الهجري يتحدث المقريزي فيقول: « وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة طرق عبد الله بن إدريس الجعفري أيلة - ومعه بعض بني الجراح - ونهبها... فسارت إليه سرية من القاهرة لمحاربته .. »

أما سلطان القاهرة عليها في القرن السادس الهجري، زمن الاحتلال الصليبي فيتحدث عنه المقريزي قائلًا: « قال القاضي الفاضل: وفي سنة ست وستين وخمسمائة أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مراكب مفصلة، وحملها على الجمال، وسار بها من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة، وكانت قد ملكها الفرنج... فقاتلها في البر والبحر حتى فتحها.. وقتل من بها من الفرنج وأسرهم، وأسكن بها جماعة من ثقاته، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره، وعاد إلى القاهرة.. »[١].

وهكذا.. تستطيع الدراسة المنهجية أن تؤكد لنا - من خلال أوثق مصادر التاريخ المصري التي كتبها أبرز علمائه على امتداد تسعة قرون - أن حدود مصر الشرقية تبدأ لا من رفح فقط، بل من شرقي رفح، وأنها لا تصل فقط إلى رأس خليج العقبة، وإنما تشمل أيضًا « أيلة » (إيلات) وما جاورها، وبتعبيرهم هم:-

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٣٩، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٩٩).

« أيلة وحيزها ».. بل وأن هذه الحدود قد شملت في عصور الاستقلال المصري أجزاء من الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وهي الأجزاء التي سلخها من مصر الفرمان العثماني الذي صدر لمحمد علي سنة (١٨٤١م)..

فسيناء إذن مصرية، تنتمي إلى الوطن المصري، منذ أن عُرِفَ الوطن المصري والتاريخ المصري، وقبل أن يعرف العالم الشعوب والأوطان التي ينتمي إليها أولئك الذين يشككون في مصرية سيناء..

فقط علينا أن نلتزم المنهج العلمي في دراسة تاريخ وطننا، فلربما وضعت دراستنا تلك أيدينا على أضعاف الحجج والبراهين التي قدمناها هنا على « مصرية سيناء » منذ أقدم العصور..

أما الذين يريدون الاحتكام إلى فرمانات آل عثمان، فإننا نقول لهم: إن تصرفات الوافدين لا تصنع ولا تقيم الشرعية في رسم الحدود... وإلا فما رأيهم في أن العثمانيين قد جعلوا من الإسكندرية ولاية مستقلة يحكمها والٍ تركي عثماني تابع للباب العالي مباشرة، وأن هذه التجزئة لم تلغ إلا في عهد محمد علي... فهل يستطيع زاعم أن يزعم اليوم أنها ليست جزءًا من مصر، بناءً على سلخ العثمانيين لها فترة من الزمن عن التبعية لعاصمة البلاد؟!..

إن عهود الاستقلال والسيادة.. ومصادر التاريخ المعتمدة التي أبدعها مؤرخو مصر العظام، وكتب (الخطط) و (تقويم

البلدان) منها بالذات، هي سبيلنا لكتابة تاريخ وطننا، وهو السبيل الذي أكد ويؤكد وحدة أرض هذا الوطن قبل أن تعرف أمة من الأمم لوطنها مثل تلك الوحدة المقدسة والمستمرة عبر عصور التاريخ.

* * *



موقع الفكر الإسلامي الحديث من العقلانية.. والحرية.. والاشتراكية



موقع الفكر الإسلامي الحديث من العقلانية.. والحرية.. والاشتراكية

في أية صفحات تكتب - كي تتصدى لدراسة موقع الفكر الإسلامي الحديث من الاتجاه الليبرالي - لا بد لنا من التنبيه أولًا إلى عدد من المقدمات والعناصر التي لا بد من طرحها والتمهيد بها للدخول في صلب الموضوع، فمثلًا:

* نحن نعني بالفكر الإسلامي الحديث: حركة البعث والإحياء التي كان طليعتها ورائدها الفيلسوف الثائر جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، والتي بذر بذورها - على وجه الخصوص - في سنوات إقامته بمصر (١٨٧١ - ١٨٧٩م)، وهي الحركة التي امتدت في حياته ومن بعد وفاته، وإن كنا نقتصر في تناولنا هنا على قسماتها عند الأفغاني وحده؛ لضيق المقام عن استيعاب دراسة هذه الحركة عند غيره من أمثال محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، والكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢م)؛ ولأن الأفغاني كان أعظم مفكري الثورة والإصلاح الإسلامي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر على الإطلاق.

* إننا عندما نتناول هذا الموضوع لا نعني أن فكر الأفغاني ومدرسته كان امتدادًا للفكر الليبرالي الأوربي في الأرض العربية الإسلامية.. فلقد كان لهم منطلقهم الخاص والمتميز، وذلك بحكم اختلاف واقعهم عن الواقع الأوربي، وتميز ميراثهم الحضاري عن ميراث الأوربيين، وأيضًا لأن منطلق الحركة الليبرالية في أوربا لم يكن منطلقًا دينيًّا، ولم يكن أصحابها حريصين على إقامة الوفاق بين فكرهم وموقفهم، وبين قيم الدين وتصوراته ومعطياته، بينما كان التجديد للفكر الإسلامي ولواقع المسلمين خاصة والشرقيين عامة هو المنطلق الذي انطلق منه الأفغاني وتلاميذه في دعوتهم للثورة أو الإصلاح.. وهذا الاختلاف والتمايز هو الذي يقف وراء ما نراه في فكر هؤلاء المفكرين من وجود بعض قسمات الموقف الليبرالي وغياب بعض القسمات.. بل ووجود قسمات أخرى مضادة لما يراه الليبراليون.

* إن هذه القسمات الليبرالية التي نلتقي بها في فكر هؤلاء المفكرين المسلمين لا يصح النظر إليها باعتبارها « نبتًا » أوربيًّا استعاره هؤلاء المفكرون من الحركة الليبرالية الأوربية، وإنما هي « نبت محلي » أصيل، غرسته هذه الحركة في أرض الواقع المصري والشرقي عندما استوعب روادها حقائق هذا الواقع ووعوا تراثه الحضاري الضارب في أعماق التاريخ، وبالذات تراث العصور الذهبية لهذه الأمة.. أما الذين يرون في هذه القسمات فكرًا أوربيًّا استعاره هؤلاء المفكرون فهم أصحاب

الموقف الرجعي والجامد والمحافظ، الذين حاربوا فكر هذه المدرسة وناصبوا روادها العداء..

وهذا لا يعني أن الصلة كانت مقطوعة بين هؤلاء المفكرين وبين الفكر الليبرالي الأوربي، فلقد قرأوا للمفكرين الأوربيين، ثم رحلوا إلى أوربا وعاشوا فيها - خصوصًا الأفغاني ومحمد عبده - ولكن الأمر الذي يقف خلف هذا التماثل والتشابه في هذه القسمات هو تشابه الواقع المصري الذي كانت تنشأ فيه طبقة بورجوازية تتطلع إلى عالم مختلف كيفيًّا عن عالم الأرستقراطية التركية الإقطاعية الذي ساد قرونًا في ظل الدولة العثمانية.. تشابه هذا الواقع بالواقع الأوربي الذي ظهرت فيه الحركة الليبرالية عندما كانت التعبير عن عالم البورجوازية الثائرة على عالم أمراء الإقطاع والأباطرة والبابوات..

وخلف هذا التماثل والتشابه أيضًا يقف المد الاستعماري والزحف الإمبريالي الأوربي على بلاد الشرق والشرقيين.. ذلك الزحف الذي لم ينقل إلى الشرق حضارة الغرب، ولكنه كان بمثابة التيار الكهربائي الذي « مس » الشرقيين، فلم يصعقهم إلى حد الموت، ولكنه أيقظهم من سبات العصور الوسطى والمظلمة التي خيمت عليهم تحت حكم المماليك والعثمانيين، فكانت البدايات التي أعقبت الحملة الفرنسية، والتي غدت عملاقة في مدرسة الأفغاني « الثورية في بعض الجوانب - والإصلاحية في جوانب أخرى »، عندما أرادت أن يتصدى الشرق لهذا الزحف الاستعماري متسلحًا بنفس الأسلحة التي

مكنت هذا الغرب من بلوغ ما بلغه من قوة وجبروت، وذلك دون أن يفقد الشرق عناصر قوته الخاصة ومميزاته الصالحة للعطاء والقابلة لتطوير حياته، ودون أن يتم اقتلاع الشرقيين من واقعهم وتراثهم بالتفرنج، والتقليد للأوربيين..

فالقسمات الليبرالية في هذه المدرسة - إذًا - هي ثمرة للعناصر المتشابهة في الواقع الطبقي، وكذلك للاحتكاك بين الشرق والغرب الذي نشأ منذ حملة بونابرت سنة (١٧٩٨م).. وبالذات بعد قيام الدولة المدنية الحديثة في مصر بقيادة محمد علي، وهي الدولة التي فتحت النوافذ على العالم، فتم « تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية - بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة - مما أذهب عنها داء الوحشة والانفراد»؟! كما يقول رفاعة الطهطاوي..

والذين يتتبعون دراسة فترات الاحتكاك بين الشعوب والحضارات يلمسون جيدًا ذلك التفاعل والتأثير والتأثر في « القيم » و« الأفكار » و« أدوات الصراع »... فبعد الفتح العربي، ودخول أمم ذات حضارات وثقافات عريقة وغنية في الإمبراطورية العربية الإسلامية واجه « المعتزلة » مثلًا الجوانب التي رفضوها من فكريات الهند وفارس واليونان بصراع فكري تسلحوا له بأسلحة الفلسفة اليونانية، بعد أن هضموا ما وافق تطور الواقع الذي نشأوا فيه..

وعندما أخذت أوربا تستيقظ بعد عصورها الوسطى

والمظلمة اتخذت من فلسفة « أرسطو » كما وصلتها في شروح « ابن رشد » سلاحًا تواجه به اللاهوت الكنسي الضاغط على أنفاسها، ويومها استعارت الكنيسة - ممثلة في « توما الأكويني » - نفس الأسلحة التي حارب بها « الإمام الغزالي » الفلسفة والفلاسفة كي تحارب بها « الرشديين اللاتين ».. فذلك إذًا قانون التأثير والتأثر والتفاعل في فترات الاحتكاك - السلمي أو الحربي - بين الشعوب والحضارات، وهو الذي يقف وراء ما سنشهد من قسمات ليبرالية في فكر الأفغاني، وأيضًا وراء ما نجد من تمايز وفروق بين فكره وفكر الليبراليين الأوربيين..

أما القسمات الليبرالية التي نستطيع أن نتلمسها في حركة الفكر الإسلامي الحديثة هذه، فإن في مقدمتها:

(١) العقلانية التي واجهت بها هذه المدرسة الموقف الذي ساد الشرق لعدة قرون، ركن فيها أهله إلى « النقل » و « ظواهر النصوص »، واعتمدوا فيها على « المتون » و« الموسوعات » التي تجمع شتات ما دونه القدماء، دون إبداع أو ابتكار أو إضافة أو تجديد..

(٢) النزعة التحررية التي واجهت بها هذه المدرسة النظام الاستبدادي الفردي الذي ساد الشرق عدة قرون، حتى ليكاد يصعب على الباحث تلمس الفترات التي نفض فيها هذا الشرق عن كاهله هذا الاستبداد؟!

(٣) رفض الكهانة التي واجهت بها هذه المدرسة ما تراكم

على تعاليم الإسلام من « قيم » و « أفكار» غريبة عن أصوله الجوهرية والبكر، وهي الإضافات التي حاولت أن تدخل فيه نظرية « الحق الإلهي » الإقطاعية، وأنظمة وطقوسًا تكاد أن تحاكي « الكهنوت » الغريب عن جوهر هذا الدين.

(٤) نقد النظام الطبقي المتوارث والثابت، وهو النقد الذي وجهته هذه المدرسة إلى نظام الأرستقراطية التركية، عندما كان هذا النظام يمثل حجر عثرة في سبيل نمو طبقة بورجوازية وطنية جديدة، تحترم العمل، وتنبذ حياة البطالة والتبطل، وتسعى إلى أن يكون السعي والكسب والثروة هي المعايير التي تحدد الوضع الاجتماعي، وليس النسب والحسب الموروث.

وفي هذه القسمة الأخيرة تواجهنا فروق تميزها عن الموقف الليبرالي في هذا المجال..فبسبب من ضعف البورجوازية المصرية والشرقية يومئذ، وبسبب من النشأة الشعبية لأعلام هذه المدرسة الفكرية.. وبسبب من انعطاف الأفغاني بالذات إلى الجماهير الشعبية، وتعليقه الآمال عليها في النضال ضد الاستعمار.. ولأسباب فكرية تمثلت في انحياز كثير من المفكرين المسلمين القدامى الذين كتبوا في (الأموال والخراج) وفسروا آيات القرآن الاجتماعية، انحيازهم إلى صف « الجماعة » ومناصرتهم للعدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي.. لهذه الأسباب وغيرها وقفت هذه المدرسة الفكرية في المسألة الاجتماعية على يسار الموقف الليبرالي، فاتخذ محمد عبده – مثلًا – موقفًا « راديكاليًا » من قضية الأموال والأغنياء والفقراء.. وتحدث الكواكبي عن

الاشتراكية داعيًا لها ومحبذًا إياها.. وختم الأفغاني رحلة تطوره الفكري بالدعوة إليها، بل والقول بحتمية سيادتها جميع أنحاء العالم في يوم من الأيام؟!.

أما الفارق الجوهري بين قسمات هذه المدرسة الفكرية وبين الموقف الليبرالي، والذي لا يعد موقفًا أكثر تقدمًا من الليبرالية، وإنما هو متخلف عنها، فهو موقف الشيخ محمد عبده من نظام الحكم، الذي انحاز فيه إلى جانب سلطة الفرد المقيد بالقانون، والذي تطور على دربه إلى الدعوة لنظرية «المستبد العادل» الذي لا بد للشرق منه كي يتم له ولأهله الصلاح والإصلاح؟!

العقلانية الإسلامية:

في الفكر الإسلامي - بل وفي الفكر الإنساني عامة - أنماط متميزة ودرجات متفاوتة من الإيمان بالعقل والاطمئنان إلى قدراته والثقة في معطياته.. وفي هذا الفكر أيضًا مواقف متعددة إزاء المنطلق الذي يدعو المفكر إلى البدء منه.. فمن الفلاسفة والمفكرين من دعا إلى اتخاذ العقل المنطلق الوحيد، وحبذ إهمال النصوص المأثورة عن الأولين، وبالذات ما تعلق منها بالغيبيات، ومن الفلاسفة والمفكرين من دعا إلى عدم إهمال النصوص.. في نفس الوقت الذي أَعْلَى فيه من قدر العقل، واتخذه الأداة الأولى والوحيدة في البحث عن تفسيرٍ لأمهات المشاكل الفلسفية والقضايا الرئيسية التي انتصبت وتنتصب علامات استفهامها أمام الفكر البشري عبر القرون..

ولذلك فنحن نعرف من تراثنا وتراث الإنسانية أن هناك: « فلاسفة »، وأن هناك « فلاسفة إلهيين »؛ لأن من الفلاسفة من رفض ما سوى معطيات العقل وثمرات بحثه وتفكيره، ومنهم من استخدم هذا العقل في تفسير « النصوص النقلية » بعد أن أقر وآمن بأهمية وضرورة معطيات هذه النصوص، وأعلام مدرسة التفكير الإسلامي الحديث هم من هذا الفريق، فلاسفة إلهيون؛ ولذلك فنحن نسمي « العقلانية » التي كونت قسمة من قسمات مدرستهم: « العقلانية الإسلامية ».. وإن كنا ننبه إلى تفاوت مستوى هؤلاء الأعلام في هذا الميدان.. ونؤمن بأن أكثرهم فروسية في الميدان الفلسفي هو الأفغاني؛ ولذلك كان أجدرهم بأن يُتَّخَذَ نموذجًا في حديثنا هذا عن العقلانية الإسلامية التي تميزت بها مدرسة الفكر الإسلامي الحديث.

في تراث الأفغاني صفحات فلسفية كثيرة، ظلت حتى الآن بعيدة عن أيدي القراء والباحثين، بل ظلت حتى الآن منسوبة إلى غيره، وخاصة الشيخ محمد عبده.. وبعد أن نَشَرْتُ أعماله الكاملة توفرتُ على تحقيق الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده.. وخلال السنوات التي أمضيتها في هذا العمل كَشَفَ لي التحقيق العلمي للنصوص عن عشرات من النصوص هي للأفغاني، ومنسوبة خطأ إلى الأستاذ الإمام، ومنها كتب ورسائل فلسفية، لا يمكن أن يدرس الموقف الفلسفي للأفغاني دون أن تعود نسبتها إليه، وتوضع في هذا الإطار بين يدى القراء والباحثين..

ومن هذه النصوص الفلسفية (رسالة الواردات في سر التجليات) والتعليقات التي شرح بها الأفغاني ما كتبه جلال الدين الدواني على كتاب (العقائد) لعضد الدين الإيجى... وبالطبع فليس هنا مجال للحديث عن مضمون هذه النصوص الفلسفية، وإنما الأمر الذي نريد أن نلفت إليه النظر هو أن الرسالة الأولى قد أملاها الأفغاني سنة (١٨٧٢م). والتعليقات - وهي تكون كتابًا كبيرًا - قد أملاها سنة (١٨٧٥م) - وكان محمد عبده لا يزال تلميذًا بالأزهر - وفي هذه الفترة لم يكن بمصر من يطرق المباحث العقلية النظرية في الفلسفة الإسلامية سوى الأفغاني، على وجه الإطلاق وبلا أية تحفظات، فهو رائد التجديد في هذا الميدان دون جدال.

والأمر الثاني الذي نريد أن نلفت إليه النظر - وهو أكثر أهمية - هو أن تعليقات الأفغاني التي نشير إليها تضع يدنا على حقيقة كبرى وهامة، عندما نرى سعة اطلاع هذا الفيلسوف على الجوانب المتعددة والغنية لتراث العرب والمسلمين في الفلسفة والإلهيات، وانطلاقه هو بإضافاته وتفسيراته من فوق أرضية هذا التراث.. فالكثيرون يحسبون أن تخلف المطبعة العربية حتى ذلك التاريخ عن تقديم كنوز التراث هذه قد حال بين مثل الأفغاني وبين الانطلاق من هذا المصدر العربي الإسلامي، ولكن إحاطة الرجل بتيارات ذلك التراث ومدارسه الفكرية وعرضه لآراء أعلامه ونصوصهم الفلسفية يجعلنا نبصر دور « مكتبات المخطوطات » التي كانت

مصدر بحثه وقراءته، ودور الكتب التي كان قد حققها ونشرها يومئذ المستشرقون الأوربيون..

فكتابات الأفغاني الفلسفية هذه - وهي التي كانت رائدة في هذا الحقل في عصر نهضتنا وبعثنا وإحيائنا - دليل على المنطلق العربي الإسلامي للقسمة العقلانية التي تميزت بها مدرسته الفكرية، وهي القسمة التي أرساها الرجل قبل رحلاته إلى أوربا وحياته في البيئة الفكرية للأوربيين.. فالأمر إذًا لم يكن « استعارة » من الليبرالية الأوربية، وإن كان حدوث التأثير والاستفادة - خصوصًا بعد رحلاته الأوربية - هو أمر وارد وواجب الحسبان.

ونحن إذا تتبعنا « قسمة العقلانية » في تراث الأفغاني وجدنا الكثير من الملامح والتفاصيل، وأيضًا الكثير من المواقف.. ولكننا سنكتفي هنا بتقديم عدد من المواقف الفكرية التي تبرز هذه القسمة العقلانية في فكره:

العلاقة بين العقل والنقل:

تصدى الأفغاني لأولئك الذين يقولون إن « باب الاجتهاد » قد أغلق منذ قرون، وأنه لا مجال للإبداع والابتكار؛ ومن ثَمَّ فلا تجوز مخالفة آراء السابقين.. وكان الفارق بين موقف الأفغاني وموقف خصومه هو الفارق بين الحياة والموت، بين الثورة والجمود، بين الحركة المتدفقة المتطورة للقوى الجديدة النامية والسكون القاتل لمجتمع الإقطاع، بين إحياء الأمة أو بقائها فريسة ولقمة سائغة في قبضة الزحف الاستعماري الأوربي والتخلف الذي فرضته « دولة الرجل المريض ».

ولقد طرق الأفغاني « باب الاجتهاد » الموصد بمنطق: إن السابقين كانوا رجالًا فكروا لعصرهم، ثم تطورت المجتمعات، ونحن رجال لا بد أن نقدم الجديد لهذا العصر الجديد..

فقال: « إنني لا أرتاب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجدين مجتهدين، يستنبطون لكل قضية حكمًا من القرآن والحديث، كلما زاد تعمقهم ازدادوا فهمًا وتدقيقًا »[١].. وذلك لأن التشريعات إنما تتبدل بتطور الزمان، وأن السابقين إنما « أتوا بها ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم »، وأن « تبدل الأحكام بتبدل الزمان » يجعل من الخطأ الذي لا يغتفر أن نقف موقف «الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند أقوال من تقدمهم »[٢]..

وهذا الاجتهاد الذي دعا إليه الأفغاني كان سبيله العقل، فلقد نادى الرجل بإعطاء العقل مكان السيادة في تفسير النصوص، والاحتكام إليه عندما تتعارض ظواهر هذه النصوص مع معطيات العقل وبراهينه؛ وذلك لأن القرآن قد أتى بالكليات والعموميات فيما يتعلق بهذا الحقل، وتفسير هذه الكليات والإشارات إنما يكون على ضوء أحكام العقل ومنجزات العلوم التي وصلت إليها حضارة العصر، والتأويل لظواهر النصوص

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني مع دراسة عن حياته وآثاره، دراسة وتحقيق محمد عمارة (ص٣٣٠)، طبعة القاهرة سنة (١٩٦٧م).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٢٩).

هو السبيل إلى هذا التوفيق المنشود « فإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ورجعنا إلى التأويل؛ إذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة، وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود » كما أن « القرآن يجب أن يجل عن مخالفته العلم الحقيقي، خصوصًا في الكليات »[١].

ومن الأمور التي اهتم بها الأفغاني؛ لتعلقها بقدرة الإنسان المفكر وأهليته وجدارته بالاجتهاد والابتكار والإبداع، وهي قسمات للإنسان الفرد في الموقف العقلاني تحدد مكان هذا الإنسان في الكون، ومركزه الممتاز في العلاقة القائمة بينه وبين هذا الكون، وهو في تصوير علو قدر الإنسان هنا يستعير عبارة الفيلسوف الصوفي محيي الدين بن عربي التي تقول: « أيحسب الإنسان أنه جرم صغير؟ وفيه انطوى العالم الأكبر!». ثم يمضي قائلًا: « نعم.. إن الإنسان أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلًا قد صار ممكنًا، وما صوره جموده، وتوقف عقله عنده بأنه « خيال » قد أصبح « حقيقة »[٢]...

وهذا الموقف الذي يعلي من قدر الإنسان وقدرته على فض كل الأسرار الكونية يتحدد أكثر وأكثر عندما نرى أن الرجل قد

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٤٠، ٤٤١).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٦٤، ٢٦٥).

أبرز العالم المادي كمصدر رئيسي لفكر الإنسان، بل وقدم لنا صيغة فلسفية شديدة العمق والتقدم للعلاقة القائمة أبدًا بين الفكر وبين المادة في هذا الكون، والصلة التي بين الأفكار وبين الأعمال، فنراه يتحدث عن أن الملاحظة (الشهود) تحدث « فكرًا » ثم يعود « الفكر » إلى التأثير في « العمل » والواقع، ثم تستمر علاقة التأثير والتأثر المتبادل، دائـمًا وباستمرار لتحدث التغيير الدائم المستمر في كل الأشياء، وذلك عندما يقول: إن « كل شهود يحدث فكرًا، وكل فكر له أثر في داعية يدعو إليها، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، دور يتسلسل، ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح في الأجساد، وكل قبيل هو للآخر عماد، آخر الفكر أول العمل، وأول العمل آخر الفكر »[1].

وانسجامًا مع هذه العقلانية وتلك الثقة التي أعطاها الأفغاني للإنسان المفكر، أعلن الرجل أنه لا حدود أمام انتصارات الإنسان الفكرية على الطبيعة والكون والمجهول، شريطة أن يتحرر العقل الإنساني من قيود الأوهام، فيقول: إنه « إذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال، وتغلب إقدامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلًا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص في البحار يسابق الحيتان، وسَخَّر البرق - بلا سلك - لحمل أخباره، وتحادث عن بُعْدِ أشهرٍ مع غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى، وهل يبقى مستحيلًا إيجاد مطية

---

(١) المصدر السابق (ص ١٠٤).

توصله للقمر أو الأجرام الأخرى؟! وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان في مستقبل الزمان إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة، التي ما وجدت إلا للإنسان، وما وجد الإنسان إلا لها »[١].

فهو هنا يقدم نظرية جديدة، وتقييمًا جديدًا للإنسان وقدراته، وهي نظرة تقييم تختلف تمام الاختلاف عن تلك التي كانت سائدة ومستقرة فيما قبل عصر النهضة، وظهور الفكر الليبرالي عند الأوربيين.

ولم ينس الأفغاني أن ينبه إلى أن هذه المنجزات التي اختص العقول بإنجازها ليست مما تستطيع الجماهير ولا العامة قبولها بيسر وسهولة.. وذلك أن معطيات العقل كثيرًا ما ترفضها الفطر المريضة، ولا تستسيغها أفهام العوام؛ لأن « العقل لا يوافق الجماهير، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين. والعلم - على ما به من جمال - لا يرضي الإنسانية كل الإرضاء، وهي التي تتعطش إلى مثل أعلى، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها، أو ارتيادها »[٢].

والحديث هنا عن « نخبة المتنورين » ملمح من ملامح الفكر الليبرالي بكل تأكيد.

الديمقراطية الليبرالية:

نستطيع أن نقول إن جوهر الموقف الليبرالي بصدد قضية

---

(١) المصدر السابق (ص ٣٦٥).

(٢) المصدر السابق (ص ١٢٠).

الديمقراطية والحريات، قد تجلى بعمق وأصالة في موقف جمال الدين الأفغاني بهذا الخصوص..

* ففي أوربا كانت الحركة الماسونية قد ازدهرت كتيار فكري ونشاط علمي يناهض سلطة البابا الكنسية المتحالفة مع الأباطرة وأمراء الإقطاع، ويناصر حرية البحث العلمي، ويدعو إلى فصل الدين عن الدولة، ويرفع شعارات الثورة الفرنسية عن (الحرية، والإخاء ، والمساواة).. ومن ثَمَّ أصبحت هذه الحركة، في مجملها، وخاصة في بداياتها ومن خلال أهدافها المعلنة، جهدًا فكريًّا ونشاطًا علميًّا يناصر الليبرالية والليبراليين.

ولقد ظن الأفغاني صدق الحركة الماسونية في مصر، وتوهم جدية ما ترفعه من شعارات ليبرالية فانضم إلى محفلها.. وعندما تكشفت له حقيقة هذا المحفل، وجبن أهله عن مقاومة سلطان الحكومة المصرية المستبدة، وممالأة أعضائه للنفوذ الإنجليزي الزاحف على البلاد، أعلن الثورة عليهم، وكان خطابه الذي هاجمهم فيه مركزًا على موقفهم من الحرية، مما يعكس لنا الموقف الليبرالي لدى الأفغاني من قضية الديمقراطية والحريات، ويجسده إلى حدٍّ كبير.. لقد قال: « إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وتدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة؟!.. أول ما شوقني للعمل في بناية

الأحرار عنوان كبير خطير: (حرية، مساواة، إخاء) غرض: (منفعة الإنسان، سعي وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق).. ولكن ماسونيتكم - أيها الإخوان- اليوم لا تتجاوز « كيس أعمال » و« قبول أخ » يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل، ويسقط مكانة الماسونية في عينيه... »[١].

وهو موقف يؤكد انحياز الأفغاني إلى الفكر الليبرالي في الديمقراطية والحرية، وسعيه للنضال على دربها مسلَّحًا بهذا اللون من ألوان التفكير..

* وعندما تأكد الأفغاني من خيانة المحفل الماسوني المصري لشعارات الماسونية المعلنة، ومهادنته - على الأقل - للنفوذ الإنجليزي الزاحف على مصر، أعلن استقالته من هذا المحفل، بعد خطاب ثوري ألقاه في مؤتمر للمحفل كان يشهده يومئذ ولي عهد إنجلترا.. وقام بإنشاء محفل ماسوني شرقي أشرف هو على تنظيمه واختيار أعضائه، وجعل علاقته بالمحفل الفرنسي كي يستفيد من التناقض الذي كان قائمًا يومئذ بين الفرنسيين والإنجليز على النفوذ في الشرق، والذي جعل الفرنسيين يناوئون أطماع إنجلترا في مصر؛ ومن ثَمَّ أقام أرضًا مشتركة بينهم وبين الوطنيين المناهضين لهذه الأطماع.. وفي هذا المحفل أقام الأفغاني دوائر « للأشغال » و« المالية » و « الجهادية » و« الحقانية »..

---

(١) المصدر السابق (ص ٥٢١، ٥٢٢).

إلخ.. إلخ.. كي يربي قيادات وطنية تستطيع أن تنهض بقيادة مصر على المستوى الرسمي عندما يحين الحين..

وكانت الخطوة التالية للأفغاني في حقل التنظيم السياسي إقامة أول حزب وطني في تاريخ مصر الحديث، وهو (الحزب الوطني الحر) الذي أقامه الأفغاني سرًّا، والذي أعلن عنه وعن نشاطه لأول مرة عندما تحركت قيادته ساعية إلى خلع الخديوي إسماعيل سنة (١٨٧٩م). وعن هذه الحركة التي أعلن بها الأفغاني وجود هذا الحزب يقول الشيخ محمد عبده: «.. ثم ذهب وفد من المصريين - ومعهم السيد جمال الدين - إلى وكيل دولة فرنسا، وأبانوا له أن في مصر حزبًا وطنيًّا يطلب الإصلاح ويسعى إليه... وانتقل ذلك في القاهرة وغيرها، وتناقلته الجرائد، وهي أول مرة عرف فيها اسم الحزب الوطني الحر »[١].

ونحن نعتقد أن هذا الحزب ببرنامجه وأهدافه كان أبرز تجسيد للموقف والفكر الليبرالي بمصر في ذلك التاريخ.. فإقامة التنظيمات السياسية الوطنية، واتخاذها وسيلة لتحقيق أهداف النضال الوطني هو - في حد ذاته - سمة من سمات التجربة الليبرالية في ميدان العمل السياسي، أما أهداف هذا الحزب فهي - وخاصة ما تعلق منها بالديمقراطية والشورى والحريات - دليل ساطع على تبني الأفغاني للموقف الليبرالي في هذا المجال.

---

(١) محمد رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) (١/ ٧٥)، طبعة القاهرة الأولى سنة (١٩٣١م).

فالحزب يناضل من أجل إقامة التجربة الليبرالية في مصر عن طريق قيام مجلس نيابي منتخب من الشعب، ووجود حكومة دستورية مقيدة « بالقانون الأساسي » (الدستور)، ويتحدث الأفغاني إلى الخديوي توفيق - قبل أن يعلن تنكره لآراء الأفغاني - فيطلب منه سلوك هذا الطريق وتنفيذ وعوده القديمة قبل اعتلائه « أريكة الخديوية »، يتحدث الأفغاني إلى توفيق فيقول: « ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصري كسائر الشعوب، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده ينظر به لسموكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وسعيتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم »[١]. فهنا دعوة إلى تطبيق الديمقراطية الليبرالية التي كانت مطبقة في الدولة الأوربية، والأفغاني يدافع عن أهلية الشعب المصري لهذه التجربة ضد الذين كانوا يحاربون ذلك الاتجاه بدعوى جهل الشعب وخموله.

ويزيد الأفغاني هدفه هذا إيضاحًا بقوله: إن « حكم مصر بأهلها إنما أعني به: الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح »[٢]

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٤٧٣).

(٢) المصدر السابق (ص٤٧٧).

ولقد كان الأفغاني يتحفظ بعبارة « الحكم الدستوري الصحيح » على تلك المؤسسات والنظم التي لا تأخذ من الديمقراطية والحكم النيابي الدستوري الشورى إلا المظاهر والأشكال، أو تلك المؤسسات التي يقيمها الأجنبي ذرًّا للرماد في العيون، أو يصنعها الحاكم المستبد كي يموه بها استبداده، ويخفي بواسطتها تفرده بالسلطة عن العيون.. وإمعانًا في الوضوح يقول الأفغاني: « إن القوة النيابية، لأي أمة كانت، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة.. وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية موقوفة على إرادة من أحدثها »[١].. ولذلك اعتبر هذا الفيلسوف الثائر أن حصول الأمة على الحكم النيابي الحقيقي إنما هو أمر مرهون بنضال هذه الأمة، أما ما يقدمه ويهبه الحاكم فإنه لا يمكن أن يتعدى حدود الصور والأشكال، فيقول: إنه « إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال؛ لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك.. بل هاتان النعمتان - الحرية والاستقلال - إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذًا بقوة واقتدار، يجبل (يخلط) التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء، أولي النفوس الأبية والهمم العالية.. أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابي الشوري فهو أيسر مطلبًا وأقرب منالًا »[٢].

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٧٣). (٢) المصدر السابق (ص ٤٧٨).

فهو هنا يؤكد أن الهدف هو « الحرية الحقيقية » لا مجرد استبدال الحكم المطلق والفردي بأشكال للحكم الديمقراطي خالية من المضمون.

ولقد كان خلف سعي الأفغاني هذا إلى إقامة المؤسسات الشورية والدستورية والنيابية في مصر، موقف فكري شديد العداء للحكم الفردي المطلق الذي عانى منه الشرق قرونًا أورثته الاضمحلال، وجعلته لقمة سائغة للغزاة... وعندما أشاع البعض أن الأفغاني داعية لقيام حكم « المستبد العادل » سأله مريده وصديقه « محمد باشا المخزومي »: « إن المتداول بين الناس على لسانك: (يحتاج الشرق إلى مستبد عادل) ».. فإذا بالأفغاني يجيب؛ فيقول: « هذا من قبيل جمع الأضداد، وكيف يجتمع العدل والاستبداد؟!.. خير صفات الحاكم: (القوة والعدل) فلا خير بالضعيف العادل، كما أنه لا خير في القوي الظالم »[1].

أما الطريق إلى قيام هذا الحاكم « القوي العادل » فلقد حدده الأفغاني عندما جعله متمثلًا في « اختيار » الأمة، التي تنصب هذا الحاكم كي يحكم بالقانون الأساسي (الدستور) وتجعله يقسم على احترامه، فإذا حاد عن ذلك سلكت به أحد طريقين: إما العزل، وإما القتل؟!.. وحول هذه الفكرة يقول الأفغاني:

---

(١) انظر: دراستنا عن الأفغاني مفكرًا ومناضلًا « ملف » الطبيعة، عدد أبريل (١٩٦٩م) (ص ١٣٩).

« أنه لا تحيا مصر، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلًا قويًا عادلًا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان؛ لأن بالقوة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة، وحكم مصر بأهلها إنما أعني به الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح.. ذلك الرجل.. تأتي به الأمة فَتُملِّكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي (الدستور)، وتُتَوِّجُه على هذا القَسَم، وتعلنه له: يبقى التاج على رأسه ما بقي هو محافظًا أمينًا على صون الدستور، وأنه إذا حنث بقسمه، وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس؟!! »[١].

والأمر الذي يؤكد لنا أن فكر الأفغاني هذا عن الديمقراطية والشورى والحكم الدستوري وآراءه هذه عن الحريات إنما كانت تجسيدًا للموقف الليبرالي في هذا الميدان أن الرجل كان يستخدم - في سبيل الإقناع بوجهة نظره هذه - ضمن ما يستخدم أسلوب ضرب الأمثلة للناس بذلك النموذج الليبرالي المطبق في المجتمعات الغربية في ذلك التاريخ، فيصف هذا النموذج، ويثني عليه ويحبذه ويقطع بحتمية تطبيقه في بلادنا نحن الشرقيين.. فيقول لشعوب الشرق: « انظروا إلى العالم الغربي، ترونه على تقسيماته الحاضرة، واستقلال عناصره بميزاتهم القومية، لما تساووا، على الوجه النسبي بالفضيلة، انتفى من بين ظهرانيهم

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٤٧٧، ٤٧٩).

أمر التفرد بالسلطة وسَوْق الأمة على هوى السلطان » ثم يمضي مبشرًا بزوال سلطان الحكم الفردي في الشرق كما زال في الغرب، فيقول: « وسينتفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق، عندما يصبح « الحكم للعقل والعلم »؛ لأنه « إذا فشا العلم في الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم، وتعمل على التخلص منه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا »[١].

بعد أن يضرب للناس مثل النظام الليبرالي في الغرب يحدثهم أيضًا عن تجربة المجتمع الشرقي في اليابان، وكيف أن « تقييد الحكومة بالدستور، والنظام الشوري » وقيام « الحكم الدستوري النيابي » واشتراك الأمة بإنهاض نفسها وصون ملكها[٢] إنما كان السبيل إلى ما أحرزه هذا المجتمع الشرقي على درب التقدم والإصلاح.

ونحن إذا علمنا أن التجربة الديمقراطية التي أقامتها الثورة العرابية في فترة حياتها القصيرة، والأفكار الليبرالية التي غرستها في التربة المصرية، إذا علمنا أن هذه التجربة وتلك الأفكار إنما هي ثمرة من ثمرات ذلك الغرس الذي غرسه الأفغاني بمصر، وحصاد لعمل ونضال أولئك الرجال الذين ارتبطوا بفكره ومدرسته وانتسبوا إلى (الحزب الوطني الحر)، إذا علمنا ذلك

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٢٨، ٤٢٩).
(٢) المصدر السابق (ص ٢٠٠).

أدركنا يقينًا أن فكر الرجل « العقلاني » و « الديمقراطي » إنما كان قسمة أصيلة ونقية للموقف الليبرالي في هذه المجالات.

موقف اجتماعي على يسار الليبرالية :

في البدء كان الموقف الاجتماعي للأفغاني هو نفس موقف الليبراليين، إيمان بالفردية، ودفاع عن حرية الفرد وحقه في التملك (الاختصاص كما كان يسميه) وترويج لفلسفة البورجوازية القائلة إن سر التقدم الإنساني وعماد العمران البشري هو المنافسة المطلقة، وأنه لا صلاح للمجتمعات إذا لم ترتضِ التقسيم الذي وزع أبناءها إلى طبقات، والهجوم السافر والشديد على فلسفة النظم الاشتراكية التي كانت يومئذ مجرد دعوات لم توضع بعد في مجال الممارسة والتطبيق.

ونحن نلتقي بموقف الأفغاني في رسالته (الرد على الدهريين)[١] التي كتبها (سنة ١٨٨١م)، والتي نشرت بالعربية للمرة الأولى سنة (١٨٨٦م). ففيها يهاجم الفلسفة الجماعية للدعوات الاشتراكية، ويدافع عن الفلسفة الفردية للنظام الرأسمالي، فيتحدث عن الطوائف والتيارات الاشتراكية قائلًا: « هذه الطوائف.. تسعى لتقرير الاشتراك في المشتهيات، ومحو الامتياز، ودرس رسوم الاختصاص (التملك)؛ حتى لا يعلو أحد على

---

(١) في مقدمة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني تحدثنا عن الظروف الذاتية والموضوعية التي أثمرت موقف الأفغاني هذا، وعن العوامل الأصيلة التي جعلته يطور موقفه الاجتماعي، انظر (ص ٨١، ٩٧). وانظر كذلك الدراسة التي نشرناها بعدد « الطليعة » الصادر في أبريل سنة (١٩٦٩م) (ص ١٣٥ - ١٣٩).

أحد، ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء ما، ويعيش الناس كافة على حد التساوي، لا يتفاوتون في حظوظهم[١] فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح في سعيها هذا، وإن لاق (تناسب) هذا التفكير الخبيث بعقول البشر، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل والأفضل، فلا نجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة، ولا من يتعاطى الحِرَف الخسيسة طلبًا للمساواة في الرفعة.. إن أفكار المصابين بالماليخوليا لا تنتج أحسن من هذه النتيجة، فإن المبدأ الحقيقي لمزايا الإنسان إنما هو حب الاختصاص (التملك) والرغبة في الامتياز. فهما الحاملان على المنافسة، السائقان إلى المباراة والمسابقة، فلو سلبتهما أفراد الإنسان وقفت النفوس عن الحركة إلى معالي الأمور، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات واكتناه حقائق الموجودات، وكان الإنسان في معيشته على مثال البهائم البرية إن أمكن له ذلك، وهيهات هيهات؟!»[٢].

فهو هنا يدافع دفاعًا مجيدًا عن الفلسفة الليبرالية الفردية، ويدبج الحجج لنصرة هذا الموقف الفكري الليبرالي، ولكن الرجل لم يقف حياته كلها عند هذا الموقف وإنما طوره وتطور به تجاه معسكر الفكر الاشتراكي، فتبنى فلسفة متميزة ومغايرة للفلسفة الفردية الليبرالية، إزاء الموقف الاجتماعي، عندما حبذ موقفًا اشتراكيًّا « وسطًا » يقوم على فلسفة تناهض الفردية التي

---

(١) ونحن نلاحظ هنا أن أوصاف الأفغاني خاصة بجماعات الاشتراكية الخالية من الماديين والوضعيين في أوربا، وليست عامة في كل الاشتراكيين.

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ١٥١).

تؤدي إلى تفاوت اجتماعي « لا يتم به نظام الاجتماع » الإنساني[١]، وآمن بأن انقسام المجتمع إلى طبقات لا يمكن أن يظل هكذا ساكنًا ودون صراع طالما كانت المظالم الاجتماعية الناتجة عن ظلم أرباب الأعمال للعمال قائمة، فأرباب الأعمال « الذين أثروا من كد العمال وعملهم، وادخروا كنوزهم في الخزائن، واستعملوا ثروتهم في السفه » لا بد وأن يفضي صنيعهم هذا إلى دفع « طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية، وفي نفيرهم روح الانتقام » مما حدث لهم من ظلم وإفراط « وفي زجرهم، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق»[٢].

ومع حرص الأفغاني على التمييز بين « الاشتراكية الغربية » وبين « الاشتراكية الإسلامية » التي حبذها.. فلقد قرر عددًا من المبادئ العامة والهامة:

(١) فهو قد اعترف بانقسام المجتمع إلى طبقات اجتماعية يحددها الوضع الاقتصادي لهذه الطبقات.

(٢)وسلم بحتمية الصراع الطبقي بين هذه الطبقات نتيجة للظلم الاجتماعي من قبل « أرباب الأعمال للعمال ».

(٣) وقرر أن المسئولية في أعمال العنف التي تقع في هذا الصراع الطبقي إنما يتحمل تبعتها وأوزارها الأغنياء، وأرباب الأعمال؛ لأن هذا العنف ما هو إلا رد فعل لمظالمهم التي أوقعوها بالعمال.

---

(١) المصدر السابق (ص ٤١٧)

(٢) المصدر السابق (ص ٤١٤، ٤١٥).

(٤) وهو لم يسم اشتراكيته بالاشتراكية الإسلامية ليفرغها من مضمونها الاشتراكي - كما يفعل البعض - بل لقد حلل الصراع الذي دار زمن عثمان بن عفان على أساس من الصراع الطبقي الناشئ عن المظالم الاجتماعية التي حدثت بعد وفاة الرسول - عليه الصلاة والسلم - ودافع عن « الثورة » ثورة « طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين » التي قادها أبو ذر الغفاري ﷺ ضد طبقات « الأمراء » و « الأشراف » و « أهل الثروة والثراء والبذخ » في ذلك المجتمع[١].

ومن ثم فإننا نستطيع أن نقول إن الأفغاني صاحب الموقف الليبرالي فيما يتعلق بالاتجاه العقلاني، وفيما يتعلق بالديمقراطية والحريات، قد بدأ حياته ليبراليًّا ذا نزعة فردية فيما يتعلق بالموقف الاجتماعي أيضًا، ثم تطور بهذا الموقف الاجتماعي إلى ما هو أبعد وأكثر تقدمًا من الموقف الليبرالي، بل والراديكالي، وقدم تصورًا اشتراكيًّا خاصًّا، فالاشتراكية الغربية - عنده-: صراع طبقي عنيف، هو رد فعل للمظالم الاجتماعية.. بينما الاشتراكية الإسلامية - التي حبذها - هي فعل، إذا نحن سلكنا طريقه، فلن ندخل دوامة المظالم وردود أفعالها!

* * *

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٢١ - ٤٢٣).



الحزب الوطني الحر



الحزب الوطني الحر

(مصر أحب بلاد الله إليَّ... وقضيتها أهم قضايا المسألة الشرقية، وهي مفتاحها.. ولقد كان المتأمل في سيرها - قبل التدخل الاستعماري فيها - يحكم حكمًا ربما لم يكن بعيدًا من الواقع: أن عاصمتها لا بد أن تصير - في وقت قريب أو بعيد - كرسي مدنية لأعظم الممالك الشرقية، بل كان هذا الأمر أمرًا مقررًا في نفوس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر.

والمصريون هم أحفاد الغزاة الفاتحين من أعز قبائل العرب، وإخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين آثارهم تدل على عظمة هممهم.

وإذا اتحد المصريون ونهضوا كأمة لا ترى بدًّا من استقلالها، ولا تقبل به بديلًا، وثبتوا، وصبروا، ورابطوا ، وارتبطوا، فبشر المصريين بحسن المآل، ونيل الاستقلال.

نعم.. سوف تخلص مصر لأهلها إذا هم عملوا بالحزم، وهيأوا ما يلزم من العزم، وما يتطلبه حكم الذات من القوى).

الأفغاني:

هذا التقدير الخاص الذي أعطاه الأفغاني لمصر، ولدورها القيادي في المنطقة العربية - بل والشرقية بأسرها - يستحق التأمل والتفكير... ذلك أنه لم يكن وليد انطباعات سائح، وإنما كان ثمرة دراسة عميقة لفيلسوف الثورة الشرقية الأعظم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الإطلاق..

ولم يكن هذا التقدير ثمرة لما أعطته مصر للأفغاني من الحياة المريحة والهادئة التي تجعله يستلطفها ويتلطف لها في الثناء والمديح؛ ذلك لأن مصر قد كانت تشهد يومئذ مخاض ثورة ساهم الأفغاني في إيقاد نارها، واكتوى بهذه النار.. ولم يكن حياته فيها (١٨٧١ - ١٨٧٩ م) بالشيء المريح.. ومن ثم فإن هذا التقدير الذي أعطاه الأفغاني لمصر ودورها كان ثمرة لدراسة عبقرية أبصرت الدور القيادي لهذا الوطن، والمسئولية الأبدية التي يتحملها في المنطقة الكبرى التي يتوسطها، والتي تمتد أحيانًا إلى ما وراء المحيط والخليج إلى حيث تعيش الملايين التي تشترك مع العرب في الإيمان بدين الإسلام..

والأمر الذي يعطي تقدير الأفغاني هذا قيمة الحقيقة العلمية: أن الرجل قد عاش في كثير من أقطار الشرق، وساهم في صنع الثورة وتوجيه الأحداث في عديد من البلاد.. في الأفغان..

والهند.. وإيران.. والحجاز.. وتركيا.. إلخ.. إلخ.. ومع ذلك ظلت مصر في نظره مفتاح الأمل في الثورة المنشودة، والطريق الذي لا طريق سواه لإنجاز البرنامج الثوري الذي وضعه الرجل للنهضة بالشرق وتجديد حياة هذه الأمم، وصد الغزو الاستعماري الزاحف على هذه البلاد..

أما الحيثيات التي جعلت الأفغاني يرى هذا الرأي ويقدر هذا التقدير، فإنها تتعلق بالمستوى الحضاري والنضالي الذي كانت عليه مصر يومئذ بالمقارنة إلى ما حولها من البلاد، وما تمتلكه من طاقات وإمكانيات، وما لها في المنطقة من دور تاريخي، وموقع جغرافي، وما قدمت على مر العصور من عطاء وتضحيات.. ولذلك الصمود العجيب الذي جعلها تستعصي على كل المحاولات التي بذلها الأعداء في سبيل تغيير عنصرها وتذويب شخصيتها المتميزة، أو جعلها تتخلى عن الدور القيادي الذي كتب لها على مر العصور...

وكما كان الأفغاني حكيمًا عندما أبصر دور مصر القائد في الشرق... كان حكيمًا أيضًا عندما أبصر جوهر المشكلة والعلة التي يعاني منها هذا الشرق.. والتي كانت تتمثل في الزحف الاستعماري الغربي - السافر والمقنع - على هذه البلاد، وزحف الاستعمار الإنجليزي بالذات... ففي سنة (١٨٣٨م) - أي عام ميلاد الأفغاني - كانت إنجلترا قد احتلت « عدن »، واستقر قدمها - لأول مرة في التاريخ - على أرض عربية... ثم توالى تدخلها في شئون الدولة العثمانية، ومصر بالذات.. وفي شباب

الأفغاني دخل عليه النفوذ الإنجليزي بلاده « الأفغان »، وحارب الرجل ضده كقائد للجيش، وعندما رجحت كفة الأمير الموالي للإنجليز هجر الأفغاني وطنه إلى « الهند » فطاردته سلطة الاحتلال الإنجليزي، ومنذ ذلك التاريخ عاش الرجل حياته كلها في صراع مع الاستعمار في كل مكان، ومع الاستعمار الإنجليزي بالذات.

وطوال معركته الطويلة هذه أبصر أن صد الزحف الاستعماري الغربي هو المبدأ الأول للثورة المنشودة... وفي سبيل كسب هذه المعركة لا بد من أن يتسلح الشرق بسلاح الديمقراطية والشورى، فتوضع مقاليد الأمور بيد الجماهير، وتسقط إلى الأبد سلطة العصور الوسطى الاستبدادية.. وفي سبيل كسب هذه المعركة أيضًا لا بد لهذا الشرق من إصلاح ديني عميق الجذور، يقوم على التفسير العقلي العصري المستنير للعقائد والقيم الجوهرية في أديان الشرق، وبالذات الإسلام، ثم يحكم أواصر الإخاء القومي بين أتباع هذه الأديان... وفي سبيل كسب هذه المعركة كذلك تطلع الرجل - خاصة في أواخر حياته - إلى أفق رحب للعدالة الاجتماعية، تمثل في الاشتراكية التي أرادها وثيقة الصلة بقيم ومعتقدات مجددة للفكر المتقدم عن العدالة الاجتماعية في الإسلام...

على أن هناك إضافة هامة وجوهرية قدمها الأفغاني كذلك إلى يقظة الشرق وثورته تتعدى تحقق رسم الأهداف.. وهذه الإضافة تتعلق بالأسلوب الجديد الذي دعا إليه الرجل وكرسه كي يحقق بواسطته هذه الأهداف ، وهو أسلوب « التنظيم

السياسي السري»، وتكوين الأحزاب والتنظيمات السرية التي يمارس أعضاؤها العمل السياسي والفكري سرًّا وعلنًا بين مختلف الطبقات وفي كل المجالات، وعلى امتداد بلاد الشرق في ذلك الحين... وهي تنظيمات استحدثها الرجل على حياة الشرق السياسية في عصره، وكانت التجارب الأولى لشعوبنا في القرن التاسع عشر في هذا الميدان، وأكثر من ذلك كان الثائر الأعظم ينظر إليها كمجرد وسيلة لتحقيق الأهداف، فهي ليست غاية في حد ذاتها تحول عضويتها إلى « شرف » يريح الضمير الثوري من المعاناة والتفكير والخلق والابتكار.. وإنما هي مجرد وسيلة تبقى بقدر صلاحها للوفاء بتحقيق الأهداف.. إذا عجزت وجب تغييرها بأخرى تكون أقدر على هذا الوفاء... بل لقد نظر الأفغاني إلى « سرية » هذه التنظيمات كصورة مؤقتة، فرضتها الظروف القهرية للاستعمار والاستبداد اللذين رزحت تحتهما بلاد الشرق في ذلك التاريخ... وفي مصر بدأت تجربة الأفغاني على هذا الدرب النضالي الذي كان رائده في عصرنا الحديث، وفي سبيلها أقام كل التنظيمات السرية التي شهدتها حياته الحافلة بالإبداع الثوري والكفاح والمعاناة.

في المحفل الماسوني:

والتجربة الأولى للأفغاني في الكفاح السري كانت في « المحفل الماسوني الأسكتلندي » وهو أحد التنظيمات الماسونية التابعة للمحفل الماسوني الإنجليزي.. ولم يكن الأفغاني هو الذي أقام هذا التنظيم في مصر، أي أن هذه التجربة لم تكن من صنعه هو،

وإنما كان مجرد انضمام إلى هذا المحفل، عندما ظن الأفغاني أن حركة الماسونية - التي لعبت دورًا في العصور الوسطى في مقاومة سلطة الملوك والأباطرة والبابوات في أوربا، وأسهمت في الانتصار للحرية والعلم يومئذ - ظن الأفغاني أنها لا تزال صالحة للقيام بهذا الدور؛ لأن شعاراتها عن (الحرية، والإخاء، والمساواة) لا زالت كما هي دون تغيير... ولأن إعلانها عن أن الغرض منها هو (منفعة الإنسان.. سعي وراء دك صروح الظلم.. تشييد معالم العدل المطلق)، ما زال أيضًا دون تغيير.. تحت تأثير هذا الظن دخل الأفغاني المحفل الماسوني عضوًا في سنة (١٨٧٨م)، أي قبل عام واحد من مغادرته مصر منفيًّا في سبتمبر سنة (١٨٧٩م).

وما هي إلا شهور قليلة حتى كشف الأفغاني زيف هذه الشعارات التي أصبحت ميتة على يد الماسونية في مصر، وكذب ألفاظ هذه الأغراض التي يتستر من خلفها الماسونيون.. بل لعل الرجل أن يكون أول من كشف هذا الزيف وذلك الكذب في بلادنا في العصر الحديث..

والأمر الذي ساعد الأفغاني على سرعة اكتشافه هذا، أنه قد دخل الماسونية ليستعين بإمكانياتها في مناهضة الاستبداد والاستعمار، وليتخذ منها سبيلًا لعمله الثوري، فكان الصدام حادًّا ومباشرًا وسريعًا ... وعندما تحركت عناصر الخيانة في المحفل الماسوني الأسكتلندي لتقف في طريق الأفغاني، وخطب أحد هذه العناصر قائلًا: « إن الماسونية لا تزج بنفسها في السياسة، بل أولى بها أن

تنصرف عنها خوفًا من بأس الحكومة وبطشها » تصدى له الأفغاني بخطاب تاريخي كشف فيه خيانة هذا التنظيم، وقال فيه «... كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسطوانتي المحافل الماسونية... إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر، وإذا آلات البناء التي في يدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وتدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة!!.. يؤلمني أنني للآن ما عرفت لنفسي - بصفتي ماسونيًا - ولا لمطلق الماسونية تعريفًا يجعل لها صورة في الذهن أو وصفًا ينطبق على من ينخرط في تلك العشيرة... أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير: (حرية، مساواة، إخاء) غرض: (منفعة الإنسان.. سعي وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق)، فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية، وهو: همة للعمل، عزة نفس وشمم، واحتقار للحياة في سبيل مقاومة الظلم ... ولكن - مع الأسف - أرى أن جراثيم الأثرة والأنانية وحب الرئاسة، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم، وخضوعًا لشرق عن بعد سحيق يعتوره تهديد ووعيد، وغير ذلك من الأمور التي ما تأسست الماسونية الحرة إلا لملاشاتها، واعتبرت من يصدع ويعمل بها من جبابرة الملوك والحكام أنهم من « الخوارج ».. فالماسونية - على شكلها هذا وتقاليدها- ليست فقط قديمة

العهد، بل هي لم تزل في المهد... وستختنق في المهد ولا تدرج منه... »[١].

ثم كان الصدام الحاد الحاسم بين الأفغاني وذلك المحفل الماسوني « الأسكتلندي » عندما وقف الأفغاني في اجتماع غير عادي لهذا المحفل، وبحضور ولي عهد إنجلترا، ليهاجم الاستعمار الإنجليزي وزحفه على الممالك الشرقية... ويومئذ تمت القطيعة النهائية بين الأفغاني وذلك المحفل الماسوني..

ثم انتقل الرجل إلى تجربة جديدة من الكفاح السري، أراد أن يستفيد فيها بالماسونية كإطار للعمل والحركة يتمتع بحماية قانونية، وكواجهة شرعية للتنظيم الذي يريد إقامته من أجل الثورة في مصر على الاستبداد ونفوذ الاستعمار.. كما أراد الأفغاني أن يستفيد في هذا الصدد من التناقضات القائمة بين الإنجليز والفرنسيين.. فإذا كان قد اكتشف في « المحفل الأسكتلندي » تنظيمًا مواليًا للنفوذ الإنجليزي الزاحف على مصر في عهد الخديوي إسماعيل، وإذا كانت مصلحة فرنسا في عرقلة زحف هذا النفوذ موجودة وأكيدة، فلقد قرر الأفغاني الاستفادة من هذا التناقض، وأنشأ محفلًا ماسونيًّا خاصًّا، جعله تابعًا للمحفل الشرقي الفرنساوي، ومن الناحية العملية والواقعية كانت رئاسته للأفغاني؛ ومن ثم كان تنظيمًا خاصًّا لا أثر فيه للماسونية سوى الاسم فقط.. ولقد اختار الأفغاني في تنظيمه الجديد هذا صفوةً

---

(١) الأعمال الكاملة (ص ٥٢١، ٥٢٢).

مختارةً من قيادات مصر الفكرية والسياسية والعسكرية في ذلك الحين، وقسم هذا « المحفل » إلى شعب عديدة تقوم كل منها على إعداد أعضائها كمتخصصين في مجالهم.. فكانت هناك شعبة للضباط المصريين تستهدف تثقيفهم فكريًّا وسياسيًّا، وإعدادهم لكسب المعركة التي كانوا يخوضونها في الجيش ضد الضباط الشراكسة والأتراك... وشعبة أخرى للعدل (الحقانية)... وثالثة للمالية.. ورابعة للأشغال.. إلخ.. إلخ.. أي أن هذا التنظيم كان مرحلة من مراحل إعداد « الكوادر » المصرية الوطنية؛ كي تتقن فن الحكم والسياسة بمختلف أبعادها، وتتخصص فيه، وذلك تمهيدًا لمرحلة تحقيق الشعار الذي كانت تنظيمات الأفغاني السرية في مصر أول من رفعته، وناضلت في سبيله، شعار (مصر للمصريين)...

وعندما أثمرت هذه التجربة الوطنية في عمل الأفغاني السياسي وتنظيمه السري، وتحول هذا المحفل إلى تنظيم وطني حقيقي، وجد الأفغاني أنه لا داعي للاحتفاظ باسم الماسونية وشعاراتها، وأن الظروف قد نضجت للانتقال إلى مرحلة جديدة في التنظيم السري، يصبح فيها اسم التنظيم معبرًا حقيقيًّا وجريئًا عن خطته وأهدافه... وهكذا بعد عدة أشهر من بدء تجربة (المحفل الماسوني الشرقي) تجاوزها الأفغاني، كما تجاوز من قبل ورفض تجربة (المحفل الماسوني الأسكتلندي) ... وكون أول حزب وطني عرفته بلادنا في عصرها الحديث، وهو (الحزب الوطني الحر).

الحزب الوطني الحر:

كانت المرة الأولى التي ظهر فيها اسم هذا التنظيم علنًا، وعرف لدى الجماهير، وتناقلت خبر وجوده الجرائد ووكالات الأنباء.. إبان سنة (١٨٧٩م) عندما أخذ هذا الحزب يعمل لإزاحة الخديو إسماعيل عن كرسي الخديوية المصرية؛ لاعتقاده أن الخديو إسماعيل هو المسئول عن تدخل أوربا في الشئون المصرية، وأنه هو الذي فتح للاستعمار هذا الباب، ومكنه من هذا الطريق.. وكشف الأفغاني عن وجود هذا التنظيم السري عندما ذهب على رأس وفد من رجالاته لمقابلة القنصل الفرنسي؛ لإقناعه بأن مصلحة مصر تقتضي زوال إسماعيل، واستبدال توفيق به - الذي أوهم هذا الحزب أنه قريب من فكره - ويتحدث الشيخ محمد عبده عن هذه المقابلة، فيقول: « ثم ذهب وفد من المصريين - ومعهم السيد جمال الدين - إلى وكيل دولة فرنسا، وأبانوا له أن في مصر حزبًا وطنيًّا يطلب الإصلاح ويسعى إليه... وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها، وتناقلته الجرائد، وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر ».

أما الإصلاح الذي سعى هذا الحزب إلى تحقيقه في مصر يومئذ، فلقد كان يتمثل - إلى جانب النهضة الفكرية والتجديد العقلي للبلاد - في أهداف سياسية ثلاثة:

(١) مناهضة النفوذ الأوربي الزاحف على مصر، بكل الوسائل، ولقد رأى الحزب أن في مقدمة وسائله لذلك إزاحة الخديو إسماعيل

من فوق كرسي الخديوية.. لا بالعمل السياسي فقط، بل لقد فكروا في ذلك عن طريق الاغتيالات.. والشيخ محمد عبده يتحدث عن ذلك، فيقول: « إننا كنا نتكلم سرًّا في هذا الشأن... واقترح الشيخ جمال الدين عليَّ أنا أن أقتل إسماعيل - وكان يمر بمركبته كل يوم على جسر النيل-... وكنت أنا موافقًا الموافقة كلها على قتل إسماعيل، ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة، ولو أننا عرفنا « عرابي » في ذلك الوقت فربما كان في إمكاننا أن ننظم الحركة؛ لأن قتل إسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله، وكان يمنع تدخل أوربا ».

(٢) كما كان الحزب يستهدف إقامة الحياة النيابية في مصر، وإعطاء البلاد دستورًا يحقق ضبط السلطة الفردية وتقييدها، ووضع مقاليد الأمور في يد الجماهير .. وأفكار هذا الحزب حول هذه القضية كانت من النضج والعمق وشدة الإيمان بالجماهير إلى الحد الذي يجعل القارئ المعاصر يحسبها من فكرنا الديمقراطي المعاصر لنا نحن، وليست فكرًا قد مضى عليه أكثر من قرن من الزمان ... فالأفغاني يحدثنا عن الحياة النيابية المطلوبة لمصر يومئذ، فيقول: « إن القوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي، إلا إذا كانت من الأمة نفسها. وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها ».

...كما يتحدث عن مقصده ومطلبه من وراء قيام الحياة الدستورية بمصر، فيقول: « ... وحكم مصر بأهلها إنما أعني به: الاشتراك

الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح ...»... وهو يرى في هذه الأهداف غايات لا تدرك إلا بالنضال، وهو النضال الذي أقام لتحقيقه تنظيم (الحزب الوطني الحر). فهي غايات لا يمكن أن تتحقق إلا كثمار لمعارك نضالية.. وكما يقول: فإنه « إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب، فأهم هذه الأشياء (الحرية) و(الاستقلال)؛ لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك...بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذًا بقوة واقتدار، يجبل (يخلط) التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء، أولي النفوس الأبية والهمم العالية.»..

(٣) وهناك حقيقة هامة نستطيع أن نستكشفها ونقررها - ونحن نتحدث عن أهداف (الحزب الوطني الحر) - وهي « الأفكار الجمهورية » في صفوف هذا الحزب... ذلك أن العلاقة المخادعة والمؤقتة بين الأمير توفيق باشا وهذا الحزب لم تُلْغِ التفكير في إقامة النظام الجمهوري بمصر من صفوف ذلك الحزب في ذلك التاريخ... وعندما سعت إنجلترا لنفي الأفغاني من مصر في سبتمبر سنة (١٨٧٩م) كان من حججها التي ساقها قنصلها بمصر للخديو توفيق: أنه لا مفر من طرد جمال الدين من مصر، وأن ذلك هو الشرط الضروري للمحافظة على عرشه؛ لأن الأفغاني « يدبر أمر مقاومته، والاتجاه بمصر إلى النظام الجمهوري ».. ولم يكن ذلك مجرد اختراع إنجليزي لتخويف توفيق كي يقتنع بنفي الأفغاني، فمحمود سامي البارودي

يتحدث في ١٨ يونيو سنة (١٨٨٢م) في منزل أحد أعضاء هذا الحزب - حسن موسى العقاد - وبحضور « عرابي » و« عبد اللّه النديم » و« الشيخ محمد عبده ».. إلخ.. إلخ.. يتحدث عن تاريخ التفكير في تحويل مصر إلى النظام الجمهوري، فيرجع بهذا التاريخ إلى بدء حركة هذا الحزب، ويقول: « لقد كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية، مثل سويسرا، وعندئذ كانت تنضم إلينا سوريا ويليها الحجاز. ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة؛ لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم، ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت؟!».

وهكذا ناضل (الحزب الوطني الحر) حول هذه الأهداف السياسية، وفي سبيلها: ضد النفوذ الأوربي.. وإقامة الحياة الدستورية النيابية الحقيقية... والاتجاه بمصر إلى النظام الجمهوري.. وعندما قرر الخديوي توفيق نفي جمال الدين الأفغاني من مصر، ونفذ ذلك في سبتمبر سنة (١٨٧٩م) أصدر مجلس النظار المصري قرارًا يهاجم فيه الأفغاني كرئيس لهذا الحزب... وقال القرار في تبرير النفي: « إنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا؟!».. وعندما تقدم هذا الحزب لقيادة الثورة العرابية وواجهته جيوش الاستعمار الإنجليزي المتحالفة مع الخديو، واستعانت في ذلك أيضًا بنفوذ السلطان العثماني، واستطاعت هزيمة الثورة، وفك تنظيم ذلك الحزب، شرع الأفغاني - من منفاه - في إقامة تنظيمه السري الثوري الجديد، تنظيم (جمعية العروة الوثقى) التي حملت الرسالة

نفسها، رسالة الثورة والتجديد.. الثورة على الاستعمار والاستبداد، والتجديد لحياة الشرق وعقول الشرقيين.

العروة الوثقى:

والبعض يخطئ حين يظن أن (جمعية العروة الوثقى) لم تكن تنظيمًا سياسيًّا ثوريًّا، وإنما كانت مجرد جمعية دينية إصلاحية تستهدف تجديد الإسلام وصلاح حال المسلمين.. ويجهل الكثيرون حقيقة ذلك التنظيم السري الذي كانت تنطق باسمه مجلة (العروة الوثقى) التي أصدرها الأفغاني ومحمد عبده في باريس سنة (١٨٨٤م).

والحقيقة التي تتجلى للباحث في أمر هذا التنظيم، هي أن (جمعية العروة الوثقى) إنما كانت الامتداد - وأيضًا البديل - للحزب الوطني الحر الذي أقامه الأفغاني بمصر قبل نفيه منها.. وأن القضية المصرية كانت أهم القضايا في برنامج هذه الجمعية، بل وأكثر من ذلك كانت هي السبب المباشر الذي دعا إلى إقامة هذا التنظيم... ففي افتتاحية العدد الأول من (العروة الوثقى) نقرأ: « إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا. إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها؛ نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين .. وإن الرزايا الأخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط... فأيقظت أفكار العقلاء... فتقاربوا.. وتواصلوا..

وتألفت عصبات خير من أولئك العقلاء... في عدة أقطار، خصوصًا البلاد الهندية والمصرية... »... إذن؛ فهو تنظيم سري جديد يرأسه الأفغاني، دعت إليه القضية المصرية واحتلال الإنجليز لها في سنة (١٨٨٢م)... وهي لم تكن تنظيمًا خاصًّا بالمسلمين، بل بالشرقيين من كل الأديان، وليس تركيزها على المسلمين إلا من باب أنهم الأغلبية الساحقة لأمم الشرق، وعن طريق التجديد الديني لمعتقداتهم يستقيم الكثير من أمورهم في السياسة، والفكر، والاجتماع.. إلخ.. إلخ..

ويعبر عن هذا الموقف الكثير من مقالات (العروة الوثقى).. فهي تدعو للأخوة الإسلامية، والقَسَمُ السري الذي كان يُقْسِمُه الأعضاء الجدد في التنظيم، يقول فيه العضو منهم: «... ولأبذلن ما في وسعي لإحياء الأخوة الإسلامية، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها (أي مستوى من مستوياتها التنظيمية).. ولأراعينها في غيرهم من المسلمين، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام »..

وهي في ذات الوقت تؤمن بجبهة نضالية واسعة وعريضة ضد الاستعمار، تتجاوز حدودها فروق الجنسيات والمعتقدات؛ ذلك لأن ضراوة الصراع ضد الاستعمار قد استوجبت ذلك، وكما تقول المجلة: « إن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب،

وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة»... بل إن هذه الجبهة التي يدعو إليها هذا التنظيم الثوري لا تقتصر على الأمم التي ابتليت بالاستعمار، فيقيم هذا التنظيم العلاقات والمحالفات مع القوى السياسية المتقدمة في أوربا، تلك القوى التي جعلت من أهدافها السعي لإقامة العدل للإنسان.. ويتحدث المقال الافتتاحي للعروة الوثقى عن هذا التحالف الأممي، فيقول عن أعضاء الجمعية: « ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة، ويحامون عنها من أهالي أوربا..».

ولما كانت المخاطر التي يتعرض لها الشرق يومئذ آتية من قبل الاستعمار الإنجليزي - قبل غيره - كانت نشاطات هذا التنظيم الفكرية والعملية موجهة أساسًا ضد الإنجليز... ومن هنا يأتي التفسير لتركيز هذا التنظيم على نشر عضويته في كل من مصر والهند؛ إذ فيهما كانت تتمثل قوى الاحتلال الإنجليزي في ذلك الحين... وعن خطر هذا الاحتلال يتحدث الأفغاني فيقول: إنه « لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الإنجليزية على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضر!!...» كما يجعل في مقدمة أهداف التنظيم « إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها. ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف

الإسلامية »... وفي سبيل ذلك تدعو (العروة الوثقى) إلى الموقف الثوري في مناهضة الاستعمار، وتكشف مواقع الخيانة والخونة في كل مكان، وترى أن الخائن ليس فقط « من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو... بل خائن الوطن من يكون سببًا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يَدَعْ قدما لعدو تستقر على تراب الوطن، وهو قادر على زلزلتها...»؟!... وهي تتوجه بهذه المهام والواجبات إلى جماهير الشعب العريضة وقواه العاملة والمنتجة، لا إلى المفكرين والمثقفين فقط، فتتحدث (العروة الوثقى) عن « أن مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بإنهزامهم... » كما تتوجه بالإثارة إلى جماهير الشعب المصري كي يقاوم الغزاة، فتقول: إنه « على المصريين عمومًا، والفلاحين خصوصًا أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة (الإنجليزية) كل ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد، قائلين: لا نطيع إلا حاكمًا وطنيًّا.. فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارًا ، بل ومن الجنس الإنجليزي نفسه... »..

وإذا كان هو جوهر الموقف السياسي الثوري الذي اتخذه هذا التنظيم في مواجهة الاستعمار، وهو الموقف الذي ارتبطت به وسعت لخدمته سائر مواقفه الأخرى... فإن الحياة السرية لهذا التنظيم قد حفلت بالعديد من الخصائص والقسمات، وبألوان من النشاط والخبرات التنظيمية التي لم يُكْشَف عنها الستار حتى

الآن، والتي لم تحظ بها تستحق من الدراسة والتقييم... وهي خبرات في التنظيم السري والنشاط السياسي السري ندهش لها عندما ندرسها في ضوء عصرها وظروفها، وتكشف لنا عن عبقرية هذا الشعب وهذه الأمة، وعن ميراثنا الحضاري، والتراث الثوري الذي صنعه هذا الشعب على مر العصور التي قاوم فيها مختلف ألوان القهر والعديد من الغزاة الفاتحين..

* * *



التيار الإصلاحي
والثورة العرابية



التيار الإصلاحي والثورة العرابية

عندما نفي جمال الدين الأفغاني من مصر في سبتمبر سنة (١٨٧٩م) تبلورت في صفوف تلاميذه و(الحزب الوطني الحر) الذي كونه بمصر حينئذ اتجاهات ثلاثة:

* الاتجاه الثورى الذي تمثل في الضباط المصريين (الفلاحين) بالجيش المصري الواقع تحت سيطرة الضباط الشراكسة.. وهو اتجاه يؤمن بدور العسكريين في العمل السياسي، ويرى ضرورة الاستفادة من السلاح الذي بأيديهم، ويضع لهذا السلاح أهمية كبرى في حسم المعارك ضد أعداء البلاد من الأجانب والمحليين.. ويقود هذا الاتجاه: أحمد عرابي، وعبد العال حلمي، وعلي فهمي، وغيرهم من الضباط.

* الاتجاه الثوري الذي يؤمن بالشعب وقواه وطبقاته الكادحة إلى أبعد الحدود، والذي ورث عن الأفغاني خاصية الإيمان بقدرات « العامة والجماهير »، وأضاف إلى فكر الأفغاني إضافات خلاقة تمثلت في الحذر واليقظة من أن يجني الأغنياء العمل

الثوري الذي ينهض بعبئه وتضحياته الفقراء. ولقد قاد هذا التيار واحد من أبر أبناء مصر بها، وأكثرهم التصاقًا بشعبها وترابها وتراثها، وأجدرهم بأن يكون تجسيدًا مكثفًا لشخصيتها، وهو عبد الله النديم، ومن خلفه كثيرون لم يحفل التاريخ الرسمي بتدوين أسمائهم، ربما لأنهم من « العامة والجماهير »، وربما لأنهم أكبر من صفحات هذا التاريخ؟!.

* أما الاتجاه الثالث الذي بقي من تلامذة الأفغاني ورجال حزبه الوطني الحر، فهو ذلك الذي تزعمه وعبر عنه الشيخ محمد عبده، والذي تبلورت آراؤه في مقالات (الوقائع المصرية) التي كتبت تحت عنوان (قسم غير رسمي) حتى يكون معروفًا أنها لا تعبر عن رأي الحكومة، بالرغم من نشرها في صحيفتها الرسمية. ولم يكن هذا الاتجاه « ثوريًّا »، بل كان « إصلاحيًّا »، ولم يكن مؤمنًا « بالثورة » وإنما كان يرى في « التربية والتعليم والاستنارة الفكرية » السبيل لبلوغ هذه الغاية.. لقد كان تيارًا « وطنيًّا » يقف ضد النفوذ الأجنبي، وهو في نفس الوقت لا يؤمن « بالجماهير والعامة »، وإنما يعلق الآمال على « الفئة المثقفة المستنيرة »، ويراهن على الطبقة الوسطى النشطة الطَّموح التي تريد كسب مواقع الأجنبي في البلاد لحسابها، والتسلح بالعلم لخدمة التقدم وتطوير البلاد.. وكان هذا الاتجاه في مجموعه يعادي الطبقة الإقطاعية؛ لأن أغلبها شراكسة أجانب عن ضمير الأمة وحياتها، ولأنهم عمومًا، حتى المصريين منهم، أسرى للخرافة والتقاليد البالية، فرائس للكسل والبطالة والخمول...

كما كان هذا الاتجاه قليل الثقة جدًّا في « جماهير الشعب وعامته » بل يراهم كـمًّا مهملًا لا يفيد في التقدم ولا يعوق هذا التقدم.

ولقد ضم هذا الاتجاه الإصلاحي - غير الشيخ محمد عبده - كثيرين: سلطان باشا، وسليمان أباظة، وحسن الشريعي، وحسن موسى العقاد، وسعد زغلول، والشيخ عبد الكريم سلمان، والشيخ سيد وفا، والشيخ محمد خليل... إلخ، وتبلورت أفكار هذا الاتجاه في كتابات الشيخ محمد عبده كأحسن ما يكون التبلور، وتجسدت في أفكاره أفكار هذا الاتجاه في الإصلاح؛ ومن ثم كانت دراسة فكره وموقفه من الثورة العرابية دراسة للموقف الفكري والعملي الذي اتخذه التيار « الإصلاحي » من « الثورة » في ذلك التاريخ..

ولقد كان التيار الثوري في الجيش (الحزب الجهادي) هو الذي بدأ في اتخاذ المواقف العملية التي قادت إلى اندلاع الثورة وتفجرها بمظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة (١٨٨١م)، ففي أبريل من نفس العام كانت حركة هذا (الحرب الجهادي) قد تعدت نطاق الجيش، ومطالب الضباط الفلاحين (المصريين)، وآمن قادة هذا الحزب أن تحقيق مطالب الأمة وأهدافها في الحكم الدستوري النيابي والتصدي للنفوذ الأجنبي الضمان الأكيد والوحيد لانتصار الضباط المصريين على قياداتهم الشركسية المؤيدة من الخديو توفيق؛ ومن ثم آمن هذا الحزب بأن وضع الضباط المصريين في الجيش لا بد وأن يكون وضع وكلاء الأمة المفوضيين منها لتحقيق مطالبها العامة، بما فيها مطالب الجيش،

وأنهم بذلك بمثابة القوة الضاربة بيد الجماهير.. ولقد تحققت هذه المهمة الجوهرية والهامة بفضل التحام تيار « النديم » بتيار « عرابي »، وتلك التوقيعات والتفويضات التي جمعها النديم من أنحاء مصر لعرابي، كوكيل عن الأمة يتحدث باسمها، ويطلب لها المطالب، ويتصدى - وهي من خلفه - لكل الأعداء..

ومنذ هذا التاريخ، وتلك التحركات الثورية، برز تميز الاتجاه « الإصلاحي » عن الاتجاه « الثوري »، ودعا محمد عبده إلى التدرج في الإصلاح بدلًا من الحسم والطفرة بالثورة، وإلى سلوك طريق التربية البطيء بدلًا من طريق الثورة السريع، وإلى الثقافة والاستنارة لتكوين « الرأي العام » الذي يستحق الحياة السياسية والحقوق السياسية قبل المطالبة بالدستور ومجلس النواب، وتقييد الحكومة بها، وأخذ يتهم التيار الثوري بأنه يقلد أوربا وأمريكا، وينقل عن الآخرين دون مراعاة للفروق بين الشعب عندنا والشعوب المستنيرة في بلاد الأوربيين والأمريكيين .

ولقد كان محمد عبده يعتبر دعاة الحياة الدستورية النيابية « عقلاء »، ولكنهم في نظره عقلاء « مخطئون »؟! فكتب في أبريل سنة (١٨٨١م) سلسلة من المقالات تحت عنوان (خطأ العقلاء) دافع فيها عن وجهة النظر « الإصلاحية » وانتقد الآراء التي كان يدعو لها التيار « الثوري » في الحركة الوطنية المصرية في ذلك الحين.. فهو يعارض التغيير الثوري لنمط حياة الأمة، ويطلب « أن تحفظ لها عوائدها المقررة في عقول أفرادها ».. فقط يطلب « بعض تحسينات » فيها لا تبعد عنها

بالمرة، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج، حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى، من حيث لا يشعرون.. فهو هنا يحدد أن التيار الإصلاحي ليس ضد التغيير، ولكنه ضد الثورة كطريق لهذا التغيير، ومع « التدرج » كسبيل لبلوغ هذه الغايات..

ثم يتحدث - في معرض التمثيل - عن حسنات النظام الجمهوري في أمريكا، ولكنه يقول: إن التفكير في الاستفادة من حسنات هذا النظام في بلاد مثل « أفغانستان » مثلًا هو ضرب من الخطأ؛ لأن مثل هذه البلاد تحتاج إلى سلوك طريق التربية والتعليم، أولًا، ولا بد لها « من قرون حتى ينشأ فيها ما يسمى بالرأي العمومي، فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا ».. وهو يعمم هذه القاعدة لتشمل مصر وما يشابهها من البلاد « التي تعودت أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير، يدير أعمالها بدون أن يكون لها دخل في رؤية مصالحها » فلا « يمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة وإلا فسدت »؟! ثم يلخص نظريته التي يدعو إليها عندما يقول: « إن من يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه... بدون إتعاب فكرٍ ولا إجهاد نفسٍ »[1]. وفي مقال آخر جعل عنوانه (اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم) عاد ليحذر من أن « من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه »؟!

---

(١) الوقائع المصرية: عدد (١٠٧٩)، مقال « خطأ العقلاء » في ٤ أبريل (١٨٨١م).

وأن « عقلاء الناس يجتهدون أولًا في تغيير الملكات وتبديل الأخلاق عندما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظامًا محكمًا فيقدمون التربية الحقيقية على ما سواها؛ ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية »[1].

ويستمر هذا التيار الإصلاحي على موقفه هذا من « الثورة »، ويتزايد نشاط الشيخ محمد عبده في التعبير عن هذا الموقف الفكري، ويبلور الرجل أكثر فأكثر نظرته لهذه القضية في تلك المناقشة الحامية التي دارت بينه وبين عرابي، عندما جمعتهما الصدفة في منزل طلبة باشا، أحد قادة الضباط العرابيين، قبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام، فيقول محمد عبده لعرابي: إن البلاد لم تتهيأ بعدُ لنيل الدستور ومجلس النواب، وإن الواجب أن نبدأ بالتربية والتعليم، وأن نقيم مجالس المديريات والمحافظات كمرحلة يتدرب فيها الناس على ما يأتيهم مستقبلًا من مؤسسات نيابية قومية... يقول: « إن أول ما يبدأ به: التربية والتعليم؛ لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة، وحمل الحكومة على العدل والإصلاح، ومنه تعويدها الأهالي على البحث في المصالح العامة، واستشارتها إياهم في الأمر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات، وليس من الحكمة أن تعطي الرعية ما لم تستعد له، فذلك بمثابة تمكين

---

(١) الوقائع المصرية: عدد (١١٤٢)، مقال « اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم » في يونيو (١٨٨١م).

القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد.. إن المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية، وتقييد سلطتها وإلزمها الشورى والمساواة بين الرعية، إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا إذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام»[١].

وإنصافًا للرجل وللحقيقة، فإن نفوره من الأسلوب العسكري في العمل السياسي، ومعارضته لتولي الجيش زمام الأمور كان من بين العوامل التي جعلته يعارض مسعى الضباط و(الحزب الجهادي)؛ لأن طبيعة تكوين الرجل النظامية العقلانية قد جعلته شديد النفور من سلوك هذا السبيل، فهو يقول لعرابي في هذا اللقاء: « إنه لو فُرِضَ أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة في إدارة شئونها، فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع، فلو تم للجند ما يسعى إليه، ونالت البلاد مجلس شورى، لكان بناء على أساس غير شرعي، فلا يلبث أن ينهدم ويزول »[٢].

وهكذا ظل طوال تسعة أشهر من عمل الحركة الثورية، والمخاض الثوري « إصلاحيًّا » يعبر عن التيار الإصلاحي، ويعارض « الثورة » كأسلوب للتغيير، ويختلف مع الثوار حول أهلية مصر - في ذلك التاريخ - لأن تنال حكومة قانونية مقيدة

---

(١) محمد رشيد رضا « تاريخ الأستاذ الإمام »، (١/ ٢١٧، ٢١٨)، الطبعة الأولى، سنة (١٩٣١م).

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحات.

بالدستور ومجلس النواب.. وساهم في وقوفه هذا الموقف عجز تياره الفكري والعملي عن أن يبصر ما خلف الأفق الإصلاحي المحدود الذي عاش فيه، والذي كان لا يرى سوى قضايا الإصلاح التربوي.. وأيضًا عزلته عن الحياة الثورية التي كانت تحياها مصر يومئذ، بما فيها من دفء الثورة وحرارة الحركة التي يصنعها الثوار.

الانحياز للثورة:

وعندما تفجرت أحداث الثورة العرابية بمظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة (١٨٨١م) حدثت تحولات هامة في الموقف الفكري والعملي لهذا التيار الإصلاحي، الذي يعبر عنه الشيخ محمد عبده، من السياسة، وبالذات من الموقف إزاء طلب الدستور والحياة النيابية للبلاد، بل وإزاء دور الجيش المصري في العمل السياسي في ذلك التاريخ..

* فلم يعد باستطاعته التحدث عن « خطأ العقلاء » في طلب مجلس النواب؛ لأن هذه المظاهرة قد أجبرت الخديو توفيق على التسليم للأمة بمجلس نيابي ينهض بما تنهض به مجالس النواب في غير مصر من البلاد.

* ولم يعد مصطفى رياض باشا – وهو نموذج مصغر للمستبد المصلح عند محمد عبده – هو الذي يحكم البلاد، فلقد استجاب الخديوي لمطلب عرابي بإقالته هو ومجلس نظاره، وخلفه شريف باشا، صاحب الآراء الثورية ونصير الحكم بالدستور.

وعندما يكتب محمد عبده - في أخريات حياته - عن هذا الحدث الذي تغير بعده موقف التيار الإصلاحي من الثورة العرابية، يشير بشكل غير مباشر إلى الأسباب التي جعلته يغير موقفه هذا فيقول: « أما عن مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة (١٨٨١م) فإني أقول: إن سبعة الأشهر التي كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت مفعمة بالنشاط السياسي الذي شمل جميع الطبقات .. فقد صار عرابي محبوبًا عند الأمة، واتصل بالحزب الوطني، وعرف سلطان باشا، وسليمان أباظة، وحسن الشريعي، وعرفني أنا أيضًا »[١]، وقبل ذلك « لم تكن الثورة من رأيـي.. ولكن لما منح الدستور انضممنا جميعًا إلى الثورة لكي نحمي الدستور.. »[٢].

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الرجل وتياره يخطو خطوات وئيدة ولكنها ثابتة نحو مواقع « الثورة » ومنطلقات « الثوار »، ففي ديسمبر من نفس العام دافع عن دور الجيش و« رجال العسكرية » في العمل الوطني والسياسي، وكتب في المادة الرابعة من برنامج (الحزب الوطني الحر) - الذي صاغه هو - هذا النص المهم الذي يقول: « ويرى هذا الحزب أن مجلس النواب ربما أكره على الصمت، كما حصل لمجلس الآستانة.. فيتكدر صفو الراحة، ويحرم الأبناء من التعليم؛ ولهذا فوض الأهالي أمرهم إلى أمراء

---

(١) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر « لبلنت » (ص ٦٢٩)، ط. القاهرة - الثانية.

(٢) المصدر السابق (ص ٦٤٧).

الجهادية، وطلبوا منهم أن يصمموا على طلبهم؛ لعلمهم أن رجال العسكرية هم القوة الوحيدة في البلاد، وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة في النمو، وليس في عزمهم إبقاء الحال على ما هو عليه، بل متى حصلت الأمة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة، فإن أمراء الجهادية عازمون على ترك التدخل في السياسة بعد أن فتح المجلس، فهم الآن بصفة حراس على الأمة التي لا سلاح لها ».

كما يكتب في هذه المادة من هذا البرنامج ما يفيد تقديمه لعوامل « الحياة الشورية النيابية » و « حرية المطبوعات » على عوامل « تعميم التعليم ونمو المعارف » في عملية النهضة والتقدم والإصلاح[١].. فهو الذي طالما علق الحرية السياسية والحياة النيابية والدستورية على « التهذيب » وعموم المعارف والتعليم، يذكر للمرة الأولى في تاريخه الفكري أن « التهذيب » سيكون « بوساطة » مجلس شورى النواب وحرية المطبوعات وليس العكس.. فنحن هنا إزاء تطور فكري على جانب كبير من الأهمية في نظرية هذا التيار الذي قاده الأستاذ الإمام.

وفي شهر يناير سنة (١٨٨٢م) تطورت الأحداث الوطنية والسياسية على نحو زاد من اقتراب الشيخ محمد عبده وتياره الإصلاحي من مواقع الثورة والثوار، فلقد اتفقت حكومة « غامبتا » الفرنسية مع حكومة « غلادستون » الإنجليزية على أن حصول مصر على الحياة النيابية والدستورية هو بمثابة انعتاق لهذه البلاد

---

(١) المصدر السابق (ص ٧٩٥ - ٧٩٧).

من طوق التخلف؛ ومن ثم ضعف الأمل في إيقاعها في قبضة الاستعمار الأوربي الزاحف على بلاد الشرق، وأن التدخل ضد النظام الثوري في مصر هو أمر لا بد منه، وأن باب حماية العرش الخديوي هو المدخل إلى هذا التدخل الاستعماري...

وفي ٨ يناير سنة ١٨٨٢م جاءت المذكرة الثنائية (الإنجليزية - الفرنسية) إلى مصر تتحدث عن عزم الحكومتين على حماية عرش الخديو توفيق؟! وعدت هذه المذكرة بمثابة إعلان للحرب على الحركة الوطنية المصرية، ووجد الشيخ محمد عبده وتياره أن وطنهم في خطر، فأذاب هذا الخطر الجديد بعضًا من تحفظاتهم إزاء النظام الجديد. وكما يقول « بلنت »: « .. هنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لأول مرة.. ليس فيما يتعلق بالحزب الوطني وحده، بل فيما يتعلق بجميع الأحزاب والطبقات، وانضم الشيخ محمد عبده والأزهريون المعتدلون إلى الحزب المتطرف بكل قوتهم »[١].

وبذلك التحمت من جديد - أمام هذا الخطر الأجنبي - تلك الأجنحة الثلاثة التي خرجت من تحت عباءة جمال الدين الأفغاني وحزبه الوطني الحر، جناح عرابي، وجناح النديم، وجناح محمد عبده .. وعاد الحزب الوطني الحر من جديد حزب « الثورة »، عندما تمت لصفوفه هذه الوحدة، والتقى الجناح الإصلاحي بأولئك الذين سلكوا طريق الثورة منذ بداية الطريق..

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٥٠).

معتدلون في صفوف الثورة:

ورغم هذه الوحدة الوطنية التي تمت لصفوف الثوار منذ مظاهرة عابدين، والتي زادت درجتها منذ برزت نوايا التدخل الاستعماري في شئون البلاد، إلا أن التيار الإصلاحي الذي كان يقوده الشيخ محمد عبده، قد ظلت له بعض القسمات المميزة، حتى بعد انضمامه لصفوف الثورة والثوار ، فنحن نستطيع أن نميز في هذه الفترة مجموعتين من الظواهر والوقائع والأحداث والآراء تكونان خطين متوازيين في حياة هذا التيار، كما عبر عنها الشيخ محمد عبده:

المجموعة الأولى: تتمثل في المواقف والآراء التي تدل على أن الرجل وإن اقترب مع مواقع الثورة والثوار، وساهم في صنع أحداثها في تلك الفترة، إلا أنه ظل يمثل الاتجاه الأقرب إلى « الإصلاح » في صفوف « الثوار ».. وإذا جاز التعبير قلنا: إنه يمثل الجناح المعتدل في صفوف الثورة العرابية.

(١) فعندما يجتمع مجلس شورى النواب في ٢٦ ديسمبر سنة (١٨٨١م) لمناقشة مواد الدستور الجديد تظهر في صفوف النواب الاتجاهات الثورية، وكان أصحابها قلة من حيث العدد، بينما يقف في الجانب « المعتدل » أكثر النواب، ويتحدث « بلنت » عن هذه الأغلبية المعتدلة، فيقول: « إن أغلبيتهم بدت، كأصدقائي الأزهريين ، ميالة للاعتدال، ويذكر أن الشيخ محمد عبده كان

زعيمًا لهذا الاعتدال، وأنه قال يومئذ: « لقد لبثنا عدة قرون في انتظار حريتنا، فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر »[١].

(٢) وعندما أصر الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية على حق مجلس النواب في مناقشة ميزانية الدولة وإقرارها، وعارضت ذلك الدول الأوربية صاحبة الديون على مصر، والمراقبون الماليون الذين يمثلونها في القاهرة، وقف الاتجاه المعتدل إلى جانب استثناء الميزانية من المناقشة في المجلس، ونشط محمد عبده على رأس هذا الاتجاه، فجمع أعيان البلاد الأعضاء بمجلس شورى النواب في ١٧ يناير سنة (١٨٨٢م) كي يناقشهم في هذا الأمر مع أصدقائه « بلنت » و « لويس صابونجي »، ولقد نجحوا في إقناع النواب بتعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الماليين السياسيين.. ولكن النواب أصروا على ضرورة مناقشة المجلس لميزانية البلاد[٢].

(٣) وعندما يمتدح الشيخ محمد عبده وزارة شريف باشا، التي خلفت وزارة رياض باشا، وسبقت وزارة البارودي، يصف رئيس النظار وزملاءه بأنهم يعملون « في تمهيد سبيلنا وبإزالة العقبات منه، متوسلين إلى ذلك بالحكمة والاعتدال، آخذين بأسباب التؤدة ومراعاة الأحوال »[٣].

ثم يخطب في حفل أقامه النواب بمناسبة التصديق على لائحة

---

(١) المصدر السابق (ص٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٥٤، ٢٥٥).

(٣) الوقائع المصرية، مقال « الحياة السياسية » في ٩ نوفمبر سنة (١٨٨١م).

مجلسهم، فيتحدث عن « إن الفضيلة وإن تفرعت أصنافها إلا أنها ترجع إلى أمر كلي وهو الاعتدال في السير الإنساني »[١].

(٤) وهو عندما يقيم هذه المرحلة الجديدة التي دخلتها مصر في تاريخها الحديث ببدء الثورة العرابية، يحدد أن البلاد لا تزال في أول مراحل الطريق، طريق السياسة والحرية، والاعتدال عنده هنا لا يعني التوقف عند هذه المرحلة الابتدائية، بل بالعكس يعني ضرورة التقدم، ولكن مع المرور بسائر الدرجات، أي الاستمرارية في التطور دون طفرة قد يحبذها « الثوار »، فيكتب في هذا المعنى مخاطبًا المواطن المصري، فيقول: « فأنت أيها الوطني في أول درجة من مرقاة السياسة، وفي أول مرحلة من طريق الحرية، فلن تبلغ الدرجة العليا إلا إذا صعدت سائر الدرج، ولن تدرك الغاية القصوى ما لم تقطع سائر المراحل، فإن حاولت غير ذلك لم تأمن الهبوط من الدرجة التي بلغت، والرجوع من المرحلة التي وصلت، بل ربما صرت على مسافة أعوام مما كنت ترجو إدراكه بأيام »[٢].

(٥) وعندما تشيع في صفوف الثورة والثوار أفكار عن إعلان الجمهورية في مصر، كرد فعل لانحياز الخديو توفيق إلى صفوف الأعداء. ويسجل البارودي واقعة وجود هذه الأفكار بقوله: « لقد كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية، مثل سويسرا، عندئذ كانت تنضم إلينا سوريا ويليها الحجاز، ولكننا وجدنا العلماء لم

---

(١) المصدر السابق، مقال « مقابلة الشكر بالشكر » في ٢١ فبراير سنة (١٨٨٢م).
(٢) المصدر السابق، مقال « الحياة السياسية » في ١٠ نوفمبر سنة (١٨٨١م).

يستعدوا لهذه الدعوة؛ لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم، ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت »[١] عندما يتبنى التيار الثوري في الحركة الوطنية مثل هذه الأفكار، يعترف الشيخ محمد عبده بأنه قد وقف ضد هذه الأفكار؛ لأن الجهل لم يكن يمكِّن البلاد يومئذ من الرقي إلى النظام الجمهوري[٢].

(٦) وعندما تشتد أزمة الثورة بسبب التهديد البريطاني المسلح، والمتمثل في الأسطول الذي دخل مياه الإسكندرية في يونيو سنة (١٨٨٢م) يبحث الناس عن حل سلمي للأزمة، وعن رسول معتدل يذهب إلى لندن لعرض القضية على المسئولين هناك، فتميل الآراء إلى أن يكون هذا الرسول هو الشيخ محمد عبده، ويكتب « بلنت » كيف أنه اجتمع في ١٩ يونيو سنة (١٨٨٢م) مع محمد عبده ونديم والبارودي، وتحدثوا في الوسائل السلمية لعبور الأزمة « فقال عبده إنه أجمع رأيه على أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التي لديه، أو التي يستطيع حيازتها ويذهب بها إلى إنجلترا؛ لكي يعرضها بنفسه على المستر غلادستون والبرلمان الإنجليزي، وسيأخذ معه أحد وجهاء التجار وأحد الأحرار (أي أعضاء الحزب الوطني الحر) ممن ينوبون عن الفلاحين، فوافق محمود سامي على هذا الرأي، وقال: إنه هو أيضًا يود أن يذهب إلى أوربا لهذه الغاية[٣].

---

(١) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر، (ص ٤٥٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٦٣٧).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٥٣).

وبالطبع ما كان لأحد أن يفكر في إرسال النديم أو عرابي أو محمد عبده – مثلًا – لمثل هذه المهمة، فإن اعتدال الشيخ محمد عبده كان أهم عامل يرشحه لمثل هذه السفارة إلى لندن في ذلك التاريخ. بل إن « بلنت » أرسل إلى « لويس صابونجي » برقية من « لندن » في ٥ يوليو سنة (١٨٨٢ م) يقول له فيها: « يجب ألا تعاكسوا الأسطول، أرسلوا عبده إلى غلادستون »[١].

ولقد كانت هذه الآراء والمواقف المعتدلة التي اتخذها الشيخ محمد عبده – وهو في موقع الثورة وبين الثوار – امتدادًا طبيعيًّا لفكره السابق، ونهج التيار الفكري والسياسي الذي ارتبط به ومثله، في الفترة التي سبقت الانضمام إلى العرابيين، كما كانت انسجامًا طبيعيًّا مع تكوينه العقلاني والنظري (التأملي) ومزاجه الميال إلى الاعتدال، وتعبيرًا عن مواقف القوى الاجتماعية التي وقفت من قضية التقدم والتحرر موقفًا متميزًا عن موقف « العامة والجماهير ».

والمجموعة الثانية: من الظواهر والوقائع والأحداث والآراء التي عايشت ظاهرة « الاعتدال » هذه في تلك الفترة التي انضم فيها تيار محمد عبده إلى الثورة العرابية، وزاملت ظاهرة الاعتدال هذه، وكونت معها تلك الازدواجية التي ميزت موقف الرجل وتياره، هي تلك التحولات الفكرية التي اقتربت به من مواقع الثوار الفكرية ومواقفهم العلمية، بعد أن كان يقف بعيدًا

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٨٠).

عن هذه المواقع يناهض ما لأصحابها من أفكار. ونحن عندما نقرأ كتاباته السياسية في هذه الفترة من حياته نشعر بأنه يهاجم آراءه هو نفسه التي قالها قبل انضمامه للعرابيين، ولعله كان يناقش يومئذ أولئك الذين ظلوا على موقفه الفكري القديم، واحتفظوا بالزعم القائل: إن مصر ليس لها « رأي عام »تستحق به أن تنال الدستور والحياة النيابية والحكومة القانونية المقيدة بهذه القيود.

(١) فبعد أن كان ينكر أن في مصر « رأيًا عامًّا » يجعلها أهلًا للحكم الدستوري النيابي عدل عن هذا الموقف، وكتب يقول: إن أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا طريق الشورى، وسن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على الوجه الملائم، يتبادلون فيه الأفكار الحرة، والآراء الصائبة؛ فلهذا جمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى، وصدرت الأوامر السامية بانتخابهم نوابًا حسب ما قضت به نواميس الحرية، وانشرحت صدور الناس عامة بهذا الأمر، واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل..[١].

(٢) وعندما تتعرض التجربة المصرية الوليدة في الحكم الدستوري الشورى النيابي لهجمات الخصوم وانتقاداتهم، ويطلقون

---

(١) الوقائع المصرية، عدد (١٢٩٠)، مقال « الشورى والقانون » في ٢٥ ديسمبر سنة (١٨٨١م).

ضدها نفس الحجج التي أطلقها من قبل الشيخ محمد عبده قبل انضمامه للثورة، يتصدى الشيخ محمد عبده لهؤلاء الخصوم ويسوق ضد حججهم نفس الأدلة التي قدمها العرابيون منذ البداية، فيقول: « إن بلادنا المصرية - بلا ريب - لا فرق بينها وبين بلاد أخرى تحققت فيها الشورى، ونالت منافعها، وعادت عليها فوائدها.. إن أبناء قطرنا المصري قد انتقلت أفكارهم من مركز الرقدة إلى مجال الجولان في المنافع والمضار، ووجوب السعي لطلب الأولى من طرقها، ولزوم الاجتهاد في دفع الثانية ».

وبعد أن يتحدث عن« الخواص » الذين حصلوا طرفًا من المعارف والعلوم يتقدم خطوة هامة جدًّا؛ ليقول لنا إن التطور الثوري قد شمل « العامة والجماهير » ولم يعد وقفًا على الخاصة من المثقفين، فيقول: « ولا نخص ذلك بالخواص، فإن العامة - وهم أهل الأعمال البدنية المستغرقة لبياض النهار وسواد الليل - قد انتقلوا عما كانوا فيه من قبل بكثير، وإن كان الانتقال في كل من الفريقين (الخواص والعوام) على درجته اللائقة به، المناسبة لما اكتسبه من المعارف أو التجربة أو تأثير الحوادث أو غير ذلك من أسباب الانتقال من حال إلى أعلى منه في الوجود »[١].

ونحن نلحظ في هذه العبارة الأخيرة تطورًا هامًّا في تفكير الرجل، فلم تعد المعارف والعلوم هي السبيل الوحيد لانتقال الإنسان من حال إلى حال أعلى في الوجود، وإنما هو قد أضاف إلى

---

(١) المصدر السابق، مقال « في الشورى » ١٣ ديسمبر (١٨٨١م).

هذا العامل عوامل أخرى، منها « التجربة » و « تأثير الحوادث » وغيرهما.. وهي العوامل التي أتت بها الثورة العرابية، فخلقت روحًا جديدًا في حياة الناس، انتقل بهم إلى طور جديد من أطوار الحياة..

(٣) وفي مقالاته عن (الحياة السياسية) يحدد أن الذين يستحقون أن تكون لهم الحقوق في التمتع بالحريات العامة: حرية الرأي، وحرية القول، وحرية الانتخاب، هم الذين حصلوا القدرة على امتلاك « الأدب السياسي » الذي لا بد في تحصيله « من الطلب والاجتهاد، وحسن الاقتداء، ودقة النظر، والتبصر في أحوال الناس من قبل وفي الحال »[١]. ولكنه ينتهز هذه الفرصة لينفي ما قد يتبادر إلى الأذهان من أن هذا « الأدب السياسي » هو وقف على « خاصة الأمة، وفئاتها المستنيرة، فيقول: « على أن الأدب السياسي وإن لم يتيسر عمومه في الأمة، إلا أنه قد يحصل لأفراد كثيرة منهم، على مقادير مختلفة، فيمكن لمجموعهم أن يسيروا في سبيله آمنين مهتدين اقتداءً وتقليدًا، ويتدرجوا به في مراتب الحياة السياسية، حتى يتوالى التكرار ويطول الاستمرار، فيصير فيهم من الملكات الذوقية التي تُعْرَفُ، كما كان العرب في الجاهلية بالنظر إلى اللغه ينطقون بالكلام المركب بالوضع، ولا يعرفون له من قاعدة غير الذوق »[٢].

---

(١) المصدر السابق، مقال « الحياة السياسية » في ١٠ نوفمبر سنة (١٨٨١م).

(٢) المصدر السابق، مقال « الحياة السياسية » في ١٣ نوفمبر سنة (١٨٨١م).

فهو هنا يثبت إمكانية تحصيل « العامة » للأدب السياسي؛ ومن ثم استحقاقهم المتمتع بحقوقهم في حرية الرأي والقول والانتخاب.. وذلك دون أن يكونوا مثقفين قد تحصلت لهم وتوفرت لديهم المعارف والعلوم.

(٤) وهو يحدد لنا طبيعة المرحلة التي أوصلت الثورة الشعب إليها وقادته إلى رحابها، ويسميها مرحلة « الوطنية » التي برزت فيها عاطفة التعلق بالوطن، وظهرت فيها ملامح القومية وقسماتها، ويحدد العوامل المادية والمعنوية التي جعلت جامعة الوطن رباطًا يجمع أبناءه، بصرف النظر عن العقيدة والأصل العرقي والدين، فيقول: « إن في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة، تشبه أن تكون حدودًا (أي تعريفات):

الأول: أنه السكن الذي فيه الغذاء، والوفاء، والأهل، والولد.

الثاني: أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار حياة السياسة (وهما حسيان).

والثالث: أنه موضع النسبة التي يعلو بها الإنسان ويعز ،أو يسفل ويذل (وهو معنوي محض) فإذا تقرر ذلك.. وجب على المصري حب الوطن من كل الوجوه ».

ثم يمضي ليشن هجومه على أولئك الذين يزعمون أن مصر لم تبلغ طور « الوطنية » ولم توجد بها هذه العاطفة بعد - وكانوا يريدون إرجاع تبعيتها للعثمانيين - فيقول: « ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات

في مصر، وإلباسهم جميعًا لباس الجهالة والذل، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجودًا وطنيًا، ورأيًا عموميًا، ولو كره المبطلون»[١].

(٥) ويتصدى لأولئك الخصوم الذين يحتجون بماضي هذا الشعب الذي عاش فيه أسير أنظمة الاستبداد والاسترقاق، يحتجون بهذا الماضي على عدم أهليته للتحرر والديمقراطية. فيقول: إن هناك « فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاسف القول، من مثل: إننا تعودنا احتمال الظلم والحيف، وألفنا الخدمة والرق، فلن يستقل لنا رأي، ولن نهتدي سبيل الحرية، كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصارًا، وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح، وإن العالم بأسره كان فريقين: أحرارًا يظلمون، وعبيدًا يطيعون» ثم يشير إلى فضل الثورة الفرنسية في تحرير أوربا، وإلى الآمال المعلقة على أن تحرر الثورة العرابية شعبنا من رقه، فيقول: « ولئن كان من فضل هذه المائة (القرن التاسع عشر) أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف، فلقد رجونا - وحقق اللّـه هذا الرجاء - أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر، وحسن ذلك ابتداءً وحسن ذلك ختامًا »[٢].

---

(١) المصدر السابق، مقال « الحياة السياسية » في ٢٨ نوفمبر سنة (١٨٨١م).

(٢) المصدر السابق، مقال « الحياة السياسية » في ٢٨ نوفمبر سنة (١٨٨١م).

(٦) وبعد إجراء انتخابات مجلس شورى النواب اتخذ خصوم الثورة من دخول بعض الجهلة وقليلي الكفاءة إلى المجلس حجة للطعن في هذه التجربة، وقالوا: إن مصر ليست أهلًا لهذه المؤسسات، وأن هذا المجلس بدع بين المجالس النيابية في العالم، فتصدى الشيخ محمد عبده لمناقشة هذه الآراء وتفنيدها، وقال: إن هذا هو حال كل المجالس النيابية في كل البلاد، لا يمكن أن تخلو من مثل هذه العناصر، والعبرة بوجود العناصر التي يحقق وجودها الغاية من وراء قيام هذا النظام، وعندنا « لا يخلو المنتخبون من أن يكون غالبهم من أهل الدراية والمعرفة وأرباب النظر والفكر، الذين يعرفون ما هي الشورى، وما هو المقصود منها، وما هي المنفعة للبلاد، وما هو الطريق الموصل إليها. وقد وقع الانتخاب على كثير منهم في هذه المرة لمجلس النواب، ولا نشك أن في هذا العدد فيه الكفاية التامة لتحقيق منفعة الشورى المقصودة منها في بلادنا المصرية، فإن أي قطر لا يكون المجموع فيه للمشورة إلا على هذا المثال، ولن يضرنا أن يكون القليل ليسوا كالكثيرين في هذه الصفات، كما لم يضر في أحد الممالك المتمدنة وجود مستشاريها على هذا المنوال، بمعنى أن غالبهم كالغالب عندنا، والقليل منهم كالقليل منا، ومع ذلك نالوا ثمرات الشورى، فالقول إذن بأنهم هم ينالونها ونحن نحرم منها - مع تساوي الأمر بيننا وبينهم - مما لا يصلح في الأذهان، ولا تقوم عليه حجة، ولا يؤيده برهان »[(١)].

---

(١) المصدر السابق، مقال « في الشورى » في ١٣ديسمبر (١٨٨١م).

(٧) ولم يقف الشيخ محمد عبده عند حد الدفاع عن هذه التجربة الثورية، والتصدي للذين يجتهدون للنيل منها والتسفيه لمؤسساتها، وإنما اجتهد في الإدلاء بآرائه البناءة التي تعكس المواقف الفكرية للتيار الذي قاده وعبر عنه في صفوف الثورة العرابية، وقدم هذه الآراء كي يتضمنها الدستور الذي كانت مواده موضع مناقشة في مجلس شورى النواب. وفي احتفال أقامته جمعية (المقاصد) بمناسبة التصديق على لائحة مجلس النواب، دعاه عبد الله النديم إلى الخطابة. فألقى الرجل كلمة ضافية - في وجود البارودي وعرابي وغيرهما من النظار والضباط - حدد فيها المبادئ الأساسية التي يجب أن يتضمنها قانون البلاد الأساسي (الدستور)، وذلك مثل:

أ- التأكيد على أن حكومة هذه البلاد هي حكومة قانونية، أي مقيدة بالدستور والقوانين.

ب- النص على دور مجلس شورى النواب في مساعدة الحكومة في حكم البلاد.

جـ- النص على السعي لتعميم المعارف والعلوم في البلاد؛ وذلك لتربية الأعداد اللازمة لتولي مسؤولية النيابة عن جماهير الناس.

د- النص على وجوب تحسين التربية التي تكسب الفضيلة والشرف؛ وذلك حتى تصير المصلحة العامة أهم من المصلحة الخاصة عند من يتصدون للمصلحة العامة، وحتى لا يلتمس أحدهم « منفعته إلا من طريق منفعة العموم ».

هـ- النص على ضرورة ووجوب إطلاق الحريات العامة « حرية المجامع (الاجتماعات)، والمطابع، والأفكار، والأعمال، والأقوال.. على شريطة أن يكون هذا الإطلاق تحت قانون عدل يرسم الحدود، ويبين الواجبات على تفصيل يرفع الإبهام وتبيين يزيل الالتباس ».

و- النص على إيجاد الحوافز « وتقرير أمر المكافأة لمن أتى بعمل غريب وجاء بصنع بديع؛ حتى يكون سائقًا للنفوس على التفكير والتدبر في الوصول إلى ما يستحقون عليه المكافأة والامتياز».

ز- القيام بوضع القوانين الحديثة والملائمة والنظامات التي « تكوِّن الحد الفاصل بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد» في مختلف جوانب حياة المجتمع المصري الجديد[1] إلخ..

وهكذا احتل الشيخ محمد عبده، والتيار الفكري والسياسي الذي مثله وعبر عنه مكانه في الحركة الثورية العرابية، وتحول إلى صوت يدافع عن إيجابياتها، بعد أن كان صوتًا يهاجم هذه الإيجابيات، وإلى مساهم في بناء الحياة الثورية الجديدة، والتاريخ الجديد لوطننا الذي بدأ بمظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة (١٨٨١م)، بعد أن كان بعيدًا عن هذه الظاهرة الثورية، ينتقدها

---

(١) المصدر السابق، مقال « احتفال جمعية المقاصد بالتصديق على لائحة النواب » في ١٥ فبراير سنة (١٨٨٢م).

* بعد كتابة هذه الدراسة قمنا بالجمع والتحقيق والدراسة والنشر للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، انظر نصوصه السياسية في جزئها الأول، الطبعة الثانية، دار الشروق، سنة (١٩٩٣م).

من موقع المثقف الذي عزل نفسه عن مجال التأثير الثوري والتأثر بالثورة والثوار.

ولقد شهد النصف الأول من سنة (١٨٨٢م) تقدم الشيخ محمد عبده - رغم خصائصه المعتدلة - في ميدان العمل داخل إطار الحركة الثورية العرابية، حتى لا يجد الباحث وسط أحداث الثورة بدًّا من وضعه بين القلة القليلة التي يمكن أن يطلق عليها وصف القيادة لهذه الثورة خلال تلك الشهور... لقد كان واحدًا من قادة هذه الثورة، وإن يكن الممثل للتيار المعتدل بين هؤلاء القادة الثوار.. فهو « إصلاحي » اعتقد أن « الثورة » قد حققت وستحقق الآن ما عمل لتحقيقه بعد سنوات وسنوات.. فارتبط بالثورة والثوار، وهو صاحب مزاج غير ثوري، ساهم دفء الثورة وحرارة الثوار في إعطائه جرعة من الحماس، جعلته يتقدم خطوات بعيدًا عن موقع « المصلح » وقريبًا من موقع « الثوري »، وهو ممثل تيار في الحركة الوطنية يومئذ، تحول إلى مدرسة في الفكر المصري وأسلوب في العمل السياسي، لعبت دورًا خطيرًا في حياتنا، ولا زالت مؤثرة حتى هذه الأيام.

هكذا كان موقف هذا التيار الإصلاحي من فكر الثورة وإنجازاتها. وهكذا تعايشت في عقل الشيخ محمد عبده وكتاباته ومواقفه ظاهرتا: الاعتدال، والدفاع عن الثورة والمساهمة في صنع أحداثها منذ انفجار أحداثها في سبتمبر سنة (١٨٨١م) وحتى هزيمتها التي انتهت بدخوله السجن مع زعمائها الأحياء في سبتمبر سنة (١٨٨٢م).


العروة الوثقى



المناخ.. والساحة:

الصراع بين وطننا العربي وبين الاستعمار الأوربي صراع قديم، تمتد بداياته الأولى إلى صفحات وفترات قديمة جدًّا في التاريخ..

* فقبل ظهور الإسلام بعدة قرون كان الإغريق والرومان يتبادلون زعامة أوربا، وكانوا يسعون دائـمًا وأبدًا لاحتلال الشرق؛ لنهب ثرواته، ولإدخاله في إطار ثقافتهم وحضارتهم.. ويومها لم تكن القبائل العربية قد توحدت بعد، فكانت زعامة الشرق بيد الدولة الفارسية، فقامت بينها وبين الإغريق والرومان حروب، استمرت عدة قرون..

ولقد استطاع الغزاة الأوربيون - بسبب ضعف الدولة الفارسية الإقطاعية - إحراز العديد من الانتصارات، وخاصة في حملة الإسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦ – ٣٢٤ ق.م) فتمت سيطرتهم على مصر وشمال إفريقيا والشام، وأيدوا الحبشة في

احتلالها اليمن، ولم يبق بعيدًا عن سيطرتهم من أرض العرب سوى وسط شبه الجزيرة؛ لأنه صحراء وعرة وفقيرة، ولأن قبائله المقاتلة الأبيةِ لا يمكن إخضاعها لحكومات غريبة عنها..

* وعندما ظهر الإسلام، وبنى أول وحدة عربية جمعت القبائل كلها، ووحدت عرب اليمن مع عرب الحجاز والشام والعراق، وقفت شعوب مصر وبلاد الشمال الإفريقي مع المقاتلين العرب والفاتحين المسلمين ضد الجيوش والحاميات الرومية البيزنطية، فتمت الفتوحات التي حررت الشرق كله من آثار الغزوة التي قادها الإسكندر الأكبر، وكانت الإمبراطورية العربية التي تكونت في عهد ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ﷺ هي ثمرة هذه الفتوحات وهذا التحرير الذي اشترك فيه: العرب المسلمون، والعرب المسيحيون في الشام، والمصريون الأقباط وغيرهم من شعوب الشرق التي هبت لتحرير أوطانها من الروم البيزنطيين.

* ولقد ظلت أوربا الاستعمارية، الطامعة في خيرات الوطن العربي، والمعادية لحضارته، ظلت تتربص وتتحين الفرص لإعادة سيطرتها عليه من جديد.. وعندما أصاب التفكك الإمبراطورية العربية، وحل الضعف فيها محل القوة قامت الغزوة الاستعمارية الكبرى التي زحف فيها فرسان الإقطاع الأوروبي على بلادنا في العصور الوسطى باسم الدين المسيحي وتحت ستاره، وهي الغزوة التي عرفت بالحروب الصليبية، والتي دامت قرنين من الزمان!.

وفي الحروب الصليبية اشتركت معظم دول أوروبا وإماراتها وولاياتها، وتركزت هجماتها في البداية على فلسطين والشام، ثم اتجهت إلى مصر حتى لا تقود مقاومة العرب والمسلمين ضدهم، وحتى يقطع طريق المدد والمساعدة التي كان المغرب العربي يستعد لتقديمها لعرب المشرق في صراعهم ضد الصليبيين.. بل لقد اتجهت بعض غزوات هذه الحملات الصليبية إلى بلاد المغرب العربي مباشرة، وأيضًا إلى الدويلات العربية في بلاد الأندلس... فكانت حربًا من أطول حروب التاريخ بدأت سنة (١٠٩٦م) واستمرت حتى سنة (١٢٩١م)!!... وفيها شاركت معظم بلاد أوربا ضد عرب المشرق والمغرب ومصر على السواء!!..

وأمام هذا الخطر الزاحف والمدمر انتفض الوطن العربي بروح المقاومة والفداء، فأعاد بناء وحدة مصر مع المشرق العربي تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ - ١١٩٣م) وبنى العرب جيوشهم ودربوها على نظام الفروسية العربية الإسلامية؛ حتى يستطيعوا هزيمة فرسان الإقطاع الأوروبيين، واستطاعت هذه الصحوة العربية أن تنتزع من الصليبيين المدن والقرى والقلاع والحصون التي استولوا عليها، من خلال معارك طويلة وكثيرة ومريرة، توجت في النهاية بالنصر الكامل للفرسان العرب، فتحررت البلاد من الغزاة الصليبيين، واندحرت موجة الغزو الأوروبي هذه، كما اندحرت سابقتها بفتوحات الإسلام..

لكن الجمود عاد فسيطر على النظم الحاكمة في الوطن العربي، فتخلفت البلاد في عصر المماليك..وكانت أوروبا قد بدأت صحوتها

ويقظتها ونهضتها، وخاصة بعد احتكاكها بعلوم العرب وحضارتهم أثناء الحروب الصليبية.. وبعد حكم المماليك جاء الحكم العثماني، وفي ظله مثلث قواته المسلحة القوية - لفترة طويلة - حماية للشرق العربي من أطماع أوربا المتربصة.. لكن القوة المسلحة للعثمانيين لم تسند إلى تقدم حضاري وتطور فكري وازدهار علمي، فدب فيها الضعف وسرى إليها الاضمحلال، فتحولت إلى السلب والنهب والاعتداء على المواطنين، ولم تعد الدرع الذي يحمي الوطن ويخيف أعداءه المتربصين، وزاد الأمر سوءًا والموقف ضعفًا عداء الأتراك العثمانيين للعرب والعروبة، فكان أن قام الصراع بين العرب وبين الأتراك في الدولة العثمانية، فأصبح جدار الشرق العربي مليئًا بالثغرات التي تغري أوربا الاستعمارية كي تنفذ من خلالها؛ لتعيد غزو الوطن العربي، أملًا في تحقيق حلمها القديم في السيطرة عليه من جديد.. فكان أن بدأت الغزوة الاستعمارية الأوربية الحديثة لبلادنا بقيادة نابليون بونابرت (١٧٩٨م)!!..

* جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨م).. وكانت أحلام نابليون أن يكون الإسكندر الأكبر الجديد!.. لأنه يريد أن يقيم إمبراطورية لفرنسا في الشرق تعيد السيطرة التي اندثرت بفتوحات العرب بعد ظهور الإسلام.. وفي العام التالي - (١٧٩٩م) - غزا فلسطين في محاولة لتوسيع رقعة البلاد التي يحتلها... ولكن المقاومة واجهته، ووقعت قواته وأحلامه بين شقي الرحى - كما يقول التعبير العربي القديم - فمدينة عكا

صمدت لحصار جيش نابليون، وأمام حصونها وأسوارها ومقاومتها انهزم القائد الذي دوخ أوربا وفتح مدنها وحصونها واجتاح جبالها وعبر أنهارها وغير فيها الخريطة والتاريخ!...وثورات مدينة القاهرة ضد جيشه وحكومته، وكذلك مقاومة فلاحي مصر وتجَّارها وشيوخها زلزلت القاعدة التي ظن نابليون أنه قد أقامها، وأنه سيوسع الحدود حولها ليحقق الحلم الاستعماري الأوربي القديم..

وأمام هذه المقاومة الشعبية تراجعت جيوش نابليون.. وتراجعت أحلامه أيضًا!.. فغادر مصر - في جنح الظلام - عائدًا إلى بلاده فرنسا.. وبعده بزمن غير طويل لحقت به جيوشه (١٨٠١م) دون أن تحقق شيئًا من حلم قائدها الكبير!..

* وأدرك العرب - من خلال صراعهم مع الحملة الفرنسية - أن أوربا قد تقدمت ماديًّا، وأن جيوشها تتسلح بالأسلحة الحديثة، على حين لا يزالون هم واقفين عند سيف الفارس المملوكي وحصانه، والزخارف التي يزين بها هذا الحصان!.. وأدرك العرب كذلك - من خلال الاحتكاك ببعثة العلماء الفرنسيين الذين جاءوا مع حملة نابليون - أن هذا التقدم المادي الذي أحرزته أوربا إنما استند وتأسس على تقدم علمي وفكري، على حين لا يزالون هم واقفين عند خرافات العصر المملوكي وجمود العقل العثماني!... وعندما أدرك العرب هذه الحقائق سرت في صفوفهم أحاسيس، وارتفعت أصوات تنادي بضرورة التغيير واليقظة.. فأمام هذه « الدورة الجديدة » من « دورات » الصراع التاريخي

والقديم بين هذا الوطن وبين المستعمرين الأوربيين، لا بد من أن تجدد الأمة ذاتها وحياتها، ولا بد من البحث عن عناصر القوة في هذه الذات، وأيضًا فلا بد من دراسة أسباب تقدم العدو وأسرار تفوقه؛ لامتلاك هذه الأسرار، والاستعانة بهذه الأسباب، والتسلح بهذه الأسلحة؛ وذلك حتى نتسلح في ساحة الصراع، « لا بحقنا » المشروع في حماية وطننا فقط، وإنما أيضًا « بأسلحة العصر» المتقدمة التي تضمن للحق وأصحابه السيادة والانتصار.

ولقد كان في مصر شيخ من علماء الأزهر، عاش في مصر والمشرق وتركيا، وجمع في عقله ثقافة عصره، هو الشيخ حسن العطار (١٧٧٦- ١٨٣٥م)، فلما جاء الفرنسيون إلى مصر اقترب من علمائهم، يتعلمون على يديه اللغة العربية، وكان هو يتأمل منهجهم في التفكير، وما أحرزوه من تقدم في العلوم.. وأدرك الشيخ العطار أن الوطن العربي إنما يقف أمام خطر مسلح بأسلحة لا يعرفها قومه، فقال كلماته المشهورة: « إن بلادنا لا بد أن تتغير، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها!».

* وعندما اجتمع علماء مصر وقادة الرأي فيها (١٨٠٥م) فقرروا عزل الوالي التركي واختيار محمد علي باشا حاكمًا لمصر... وعندما أقام محمد علي الحكومة المدنية العصرية، وأسس جيشًا وطنيًا حديثًا من أبناء البلاد، ودربه وسلحه على أحدث النظم العصرية... وعندما أرسل البعثات العلمية إلى أوربا لتتعلم فنون العصر وعلومه ولتترجم فكره ونظرياته، وعادت هذه البعثات

فأقامت المدارس العصرية، وألفت الكتب وأصدرت المجلات، وأعادت إحياء التراث العربي والإسلامي... عندما حدث ذلك في مصر، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت مصر تحقق وتطبق كلمة الشيخ حسن العطار.. فأمام الخطر الاستعماري الحديث - وحتى تواجه هذه « الدورة الجديدة » في سلسة ذلك الصراع القديم - « لا بد لبلادنا أن تتغير، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها! »...

وعندما أحرزت الدولة العصرية الحديثة قدرًا من النجاح في مصر، تطلعت لتعميم تجربتها في المشرق العربي، فكانت الحرب التي خاضها الجيش المصري ضد الجيش العثماني في الشام ما بين (١٨٣١، و١٨٤١م)، والتي انتهت بانتزاع الولايات العربية العثمانية من إطار التخلف العثماني، حتى لقد أوشكت خريطة الشرق العربي أن تتغير تمامًا، عندما لاحت بوادر قيام دولة عربية كبرى تضم مصر والشرق - تجدد شباب الشرق، وتجعل زمام القيادة في الصراع ضد أوربا الاستعمارية بيد العرب، بعد أن عجز عن ذلك العثمانيون!..

لكن أوربا الاستعمارية رأت في هذه الصحوة الخطر الأكبر على حلمها في استعمار الوطن العربي والسيطرة عليه.. فهي تريد بقاء السيطرة الاستعمارية العثمانية؛ لأن الدولة العثمانية - دولة « الرجل المريض » كما أطلقوا عليها - آخذة في الاضمحلال.. فإذا هزمت مصر، وتراجعت حركة اليقظة والتجديد التي تقودها، ضمن الاستعماريون الأوروبيون أنهم هم الوارثون لتركة « دولة

الرجل المريض »!... فكان التنافس والسباق المحموم بين القوى الاستعمارية الأوربية على التهام الأجزاء من بلاد الوطن العربي... وكان تحالفها جميعًا، بل واتفاقها مع العثمانيين ضد صحوة مصر وتجديدها، وضد الدولة العربية الكبرى التي أرادت بها إنقاذ الولايات العربية من التخلف العثماني؛ كي لا تقع في براثن المستعمرين الأوربيين المتربصين!...

وفي هذا السباق والصراع شهدت المنطقة، وشهد القرن التاسع عشر:

* الحملة الإنجليزية الاستعمارية التي قادها « فريزر » والتي جاءت لاحتلال مصر (١٨٠٧م)؛ لتحقق ما فشل في تحقيقه نابليون... وهي الحملة التي هزمها الشعب المصري في معركة رشيد.

* وبداية الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر سنة (١٨٣٠م).. وهو الغزو الذي استمرت مقاومة الشعب الجزائري ضده، بقيادة بطله الوطني الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ - ١٨٨٣م) حتى سنة (١٨٤٨م)..

* وبداية الاحتلال الإنجليزي لميناء عدن سنة (١٨٣٨م).. لإقامة نقطة مراقبة وتآمر وانقضاض ضد الدولة الكبرى التي كان محمد علي باشا قد أقامها في ذلك التاريخ، والتي كانت تضم: مصر، والسودان، والساحل الغربي للبحر الأحمر، والحجاز، وفلسطين، والشام، والتي امتد نفوذها إلى العراق والخليج!..

* وتبع هذا النصر الإنجليزي قيام تحالفهم مع العثمانيين

ضد الجيش المصري في الشام، فأجبروه على التراجع، وفرضوا على مصر العزلة عن المشرق العربي بموجب معاهدة لندن سنة (١٨٤١م)!..

* وفي سنة (١٨٥٧م) تطورت السيطرة الإنجليزية على بلاد الهند، من السيطرة غير المباشرة، بواسطة شركة الهند الشرقية – وهي شركة إنجليزية استعمارية – إلى سيطرة مباشرة، حكم بها الإنجليز الهند حكمًا استعماريًّا سافرًا، وجعلوا ملكتهم « فكتوريا » إمبراطورة على الهند في سنة (١٨٧٧م)!..

* واستطاعوا كذلك مد نفوذهم إلى أفغانستان سنة (١٨٦٨م) عندما انتصر التيار الموالي لهم بين الأمراء الأفغان المتصارعين!..

* وسرعان ما امتد نفوذهم إلى إيران، وإمارات الخليج والعراق..

* ولقد كان الاحتلال الإنجليزي لمصر (١٨٨٢م) الضربة التي رجحت كفة الزحف الاستعماري الأوروبي على الوطن العربي، فظهر واضحًا أن أوربا الاستعمارية قد كسبت جولة جديدة، بدأت بها « دورة حديثة » في الصراع التاريخي والقديم بين العرب والاستعمار!..

* ثم سقطت تونس في قبضة الاستعمار الفرنسي سنة (١٨٨١م). ومن بعدها توالت عمليات وراثة الاستعمار الأوربي لتركة الدولة العثمانية، جزءًا جزءًا وقطعة قطعة، حتى غطت موجة الغزوة الاستعمارية الحديثة أرجاء وطننا العربي الكبير، بل وكل أرجاء الشرق وسائر أوطان المسلمين؟!..

لقد كانت عاصفة عاتية، وإعصارًا مدمرًا... لكنها لم تخمد جميع الأنفاس ، ولم تزهق كل الأرواح... بل لقد استنفرت عوامل المقاومة في روح الشرق وأعماق العرب وتعاليم الإسلام من جديد!..

والرجل:

وأثناء الغزوة الاستعمارية التي قامت بها أوروبا ضد الوطن العربي والعالم الإسلامي وبلاد الشرق، في القرن التاسع عشر، كان للاستعمار الإنجليزي نصيب الأسد في الاحتلال والاستغلال والتدخل والنفوذ، خاصة بعد نجاح الإنجليز في احتلال مصر سنة (١٨٨٢م)..

غير أن العام الذي تم فيه للإنجليز احتلال أول بقعة في العالم العربي - عام (١٨٣٨م) - عندما استطاعوا احتلال عدن، في جنوبي اليمن، هذا العام كان هو العام الذي ولد فيه الرجل الذي سيصبح قائد المقاومة للنفوذ والاستعمار الإنجليزي، وباعث اليقظة وروح الجهاد ضد الزحف الاستعماري الأوروبي على بلادنا في ذلك التاريخ؟!..

ففي (١٨٣٨م)ولد جمال الدين الأفغاني في أفغانستان... فلقد شهدت بلدة « أسعد آباد »، التابعة لمقاطعة « كنر »، القريبة من العاصمة « كابول »، شهدت مولد جمال الدين.. وكانت أسرته عربية الأصل والنسب، يصل نسبها إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب.. ولذلك كان جمال الدين يسمي نفسه ويوقع مراسلاته ومقالاته باسم: « *جمال الدين الحسيني الأفغاني* »...

وكانت أسرة جمال الدين من الأسر ذات النفوذ في المقاطعة التي تعيش فيها؛ ولذلك حسدهم أمير الأفغان، وخشي نفوذهم على سلطانه واستبداده، فأراد إبعادهم عن المكان الذي يعيشون فيه، فاستدعاهم إلى العاصمة « كابول »، وكان جمال الدين لا يزال طفلًا صغيرًا، ومنذ ذلك التاريخ المبكر في حياته بدأت قصته مع الغربة والرحلة في سبيل المبدأ والرأي، وبدأت صلته بأحداث السياسة والصراعات على السلطة والحكم والنفوذ!..

وقبل أن يبلغ العاشرة من عمره كان قد تعلم - بالمنزل، تحت إشراف أبيه - القراءة والكتابة ومبادئ اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم...

ولقد زاد نفوذ أسرة جمال الدين من تخوف حكومة الأفغان وأميرها، وزاد تخوف الأمير من هذه الأسرة ونفوذها، فرحل والد جمال الدين بأفراد أسرته عن بلاد الأفغان إلى جارتها إيران، هناك عمل الأب مدرسًا في مدرسة « قزوين »، وأصبح جمال الدين تلميذًا بهذه المدرسة، وهو في العاشرة من عمره، وأمضى الفتى بهذه المدرسة عامين، لفت أثناءها أنظار والده وأساتذته بذكائه واجتهاده، وبميوله المبكرة لدراسة العلوم، واهتمامه بعلم الفلك، ورغبته في قراءة كتب الطب، ومحاولته ممارسة التشريح؟!..

كانوا يقيمون في بلدة « أسد آباد » الإيرانية، ويزورون - بين الحين والحين - العاصمة طهران.. وفي إحدى هذه الزيارات ذهب الفتى جمال الدين إلى مجلس واحد من أكبر علماء طهران،

وجلس بين الرجال الذين يلتفون حوله لسماع دروسه العلمية، وفي نهاية الدرس اشترك الفتى في الأسئلة والنقاش، فلفت أنظار الجميع بأدبه وشجاعته ورغبته في العلوم، وحاز انتباه العالم الكبير، حتى لقد أرسل هذا العالم فاشترى لجمال الدين عمامة صغيرة وعباءة جميلة، وبعث إلى والده فحضر، وقام بنفسه، فألبس جمال الدين العباءة والعمامة في حفل علمي صغير؛ تكريمًا لأدبه وجرأته، وتشجيعًا له على مواصلة طريق العلم، بعد أن تحلى - رغم صغر سنه- بزي العلماء!..

وفي سنة (١٨٤٩م) سافر جمال الدين - وكان في الحادية عشرة من عمره - سافر مع والده لزيارة مدينة النجف في العراق.. - وهي مركز عظيم لدراسة علوم اللغة العربية والإسلام - وهناك التحق بمدارسها، ومكث فيها خمس سنوات، تعلم فيها علوم: تفسير القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والفلسفة الإسلامية، والمنطق، وعلم الكلام (الذي يبحث في أصول الدين الإسلامي ومذاهب المسلمين)، وأصول الفقه، والرياضة، والطب والتشريح، والفلك..

وفي (١٨٥٤م) سافر جمال الدين من مدينة النجف، وفي نيته الذهاب إلى الهند حتى يدرس بها العلوم التي لا تُدرَّس في النجف، لكنه قبل الذهاب إلى الهند مر بإيران، وقصد إلى « أسد آباد » لزيادة والده وأسرته هناك.. ولقد عرض عليه أبوه أن يكتفي بما درس من العلوم في النجف، وأن يقيم معهم في « أسد آباد »، ولكن الفتى الطموح اعتذر لأبيه، وأخبر أسرته أن البلدة

التي يعيشون فيها والعالم الصغير الذي يضمهم لا يناسب الآفاق الواسعة التي يتطلع إليها.. ولقد عبر عن طموحه العظيم بكلمات بليغة وعظيمة عندما قال لأسرته: « إنني كصقر محلق، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقًا لطيرانه! وإنني لأتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الضيق الصغير!» ثم ودعهم وانطلق..

ومنذ ذلك التاريخ - وكان في السادسة عشرة من عمره - أصبحت حياته رحلة دائمة لا تعرف الاستقرار... رحلة إلى العلم والعلماء... وطموحًا لتحقيق الأهداف العظيمة... وسعيًا للعودة إلى وطنه أفغانستان الذي أخرجه منه - مع أسرته - الأمير المستبد بالحكم والسلطان !..

ذهب إلى مدينة « بمباي » بالهند - كانت الهند مستعمرة إنجليزية في ذلك التاريخ -.. وبعد « بمباي » سافر إلى مدينة « كلكته » - وكانت مركزًا من مراكز الثقافة والعلوم - فأقام بها أكثر من عام، ودرس فيها الرياضة الحديثة والعلوم الأوروبية... ثم واصل رحلاته، عازمًا على زيارة مكة؛ لأداء فريضة الحج، بعد أن يزور ويشاهد العديد من بلاد العرب؛ ليلتقي بأهلها، ويتعلم علومها، ويدرس أحوالها... ولقد وصل مكة، وأدى فريضة الحج، وهو في التاسعة عشرة من عمره (١٨٥٧م) ... ومن مكة سافر إلى العراق، فزار مدينة النجف ومدينة كربلاء.. ثم سافر إلى إيران، فزار أسرته في أسد آباد، ثم مر بطهران، ومنها ذهب إلى خراسان.. وفي خراسان قرر تنفيذ رغبته التي

ظلت تلح عليه كل تلك السنوات، فسافر منها عائدًا إلى بلده الأصلي أفغانستان!..

وفي كابول - عاصمة أفغانستان - بدأ جمال الدين ممارسة الحياة العامة، فألف أول كتبه عن تاريخ وطنه، وسماه: (تتمة البيان في تاريخ الأفغان) ألفه باللغة العربية!..

وكان الاستعمار الإنجليزي قد بدأ يمد نفوذه إلى بلاد الأفغان، وأخذ يتدخل في الصراعات القائمة بين الأمراء الذين يحكمون البلاد، فيؤيد فريقًا ضد فريق... وفي الصراع الذي دار بين الأمير « دوست محمد خان » وبين الأمير « محمد أعظم خان » بدأ جمال الدين يمارس العمل السياسي، وألقى بثقله في الجانب المعادي للاستعمار الإنجليزي، فتولى عددًا من المناصب في حكومة الأمير محمد أعظم خان، وارتقى في هذه المناصب حتى أصبح الوزير الأول (رئيس الوزراء)!.. وشارك في الإعداد والتحضير للحرب التي دارت سنة (١٨٦٢م) ضد الأمير « دوست محمد خان » وأنصاره، بل وقاد بعض معارك هذه الحرب بنفسه، وشارك مشاركة فعلية في القتال!..

ولما توفي الأمير « دوست محمد خان » انتقل تأييد الاستعمار الإنجليزي إلى الأمير « شير علي خان » فاستمر الصراع في أفغانستان، واستمر نشاط جمال الدين ضد أعوان الاستعمار، حتى كانت هزيمة الأمير الوطني « محمد أعظم خان » في سنة (١٨٦٨م)، فخرج منفيًّا من أفغانستان إلى إيران، وبقى

جمال الدين في « كابول »، بعد أن جُرِّدَ من مناصبه، وأحاطت به العيون والجواسيس، وبعد ثلاثة أشهر أراد السفر من أفغانستان، فوافقت حكومتها على شرط أن لا يذهب إلى إيران؛ خوفًا من أن ينضم إلى الأمير الوطني المنفي هناك؛ وذلك حتى لا يعمل معه جمال الدين على العودة ثانية إلى أفغانستان!.. فغادر « كابول » ذاهبًا إلى الهند..

لكن الإنجليز - الذين حارب نفوذهم في أفغانستان - كانوا هم الذين يحتلون الهند.. فضيقوا عليه فيها الخناق، وعزلوه عن المجتمع، ومنعوه من أن يلتقي بالعلماء والجمهور - وكانت سمعته وقصة نضاله قد بلغت الهنود، فرغبوا في لقائه - ثم خشيت الحكومة الإنجليزية أن يفلت الزمام من يدها ، وأن تغضب الجماهير فتخترق الحصار المضروب حول جمال الدين، فقامت - بعد شهر من وصوله إلى الهند - بترحيله عنها فأركبته إحدى سفنها سرًّا وأبحرت به السفينة من هناك، وأنزلته في ميناء السويس.. ومن السويس سافر جمال الدين إلى القاهرة، فزارها للمرة الأولى سنة (١٨٦٩م)!..

وفي القاهرة استقبله العلماء والأحرار واللاجئون السياسيون - وكانت أخباره وأخبار نضاله ضد الاستعمار قد سبقته وشاعت بين صفوة المفكرين والسياسيين والعلماء -.. وفيها ذهب إليه طلاب العلم الذين يدرسون بالأزهر، وكانوا قد سمعوا بعلمه الغزير، فطلبوا إليه أن يشرح لهم بعض الكتب ويحدثهم ببعض ما عنده من علوم وفنون...

وبعد أربعين يومًا أمضاها جمال الدين بالقاهرة سافر منها إلى « الآستانة » عاصمة الإمبراطورية العثمانية... فاستُقْبِلَ فيها استقبالًا حسنًا من العلماء والأحرار.. وفي « الآستانة » تعلم اللغة التركية في ستة أشهر، ثم عين عضوًا في (المجلس الأعلى للمعارف) وبدأ يمارس نشاطه، فوجد إقبالًا من المثقفين على حديثه وندوته، ولكنه وجد تخوفًا من الحكومة العثمانية ومن السلطان العثماني بالنسبة لنشاطه السياسي.. فأخذ يعقد مجلسًا للعلم في (جامع الفاتح الكبير) سرعان ما اجتذب إليه الصفوة ورجالات الدولة في الآستانة.. وهنا بدأت غيرة الرجعية منه، وبدأ صراعها ضد فكره المتقدم، الذي كان ينادي بالاعتماد على العقل، وتحرير الفكر من الخرافات، وإحياء التراث الإسلامي الذي يساعد الأمة على التقدم حتى تتصدى للزحف الاستعماري الذي يسعى لالتهام بلاد العرب والإسلام...

وبعد محاضرة ألقاها جمال الدين في (دار الفنون) عن « الصناعات » وأهميتها ودورها في نهضة الأمة، سعت الرجعية العثمانية إلى السلطان غاضبة تتهم جمال الدين بالتهم الباطلة، واشتدت الأزمة بينها وبينه، حتى انقسم الناس في العاصمة إلى حزبين، أحدهما مع جمال الدين، والآخر مع « شيخ الإسلام » العثماني... ولقد استطاعت الرجعية تخويف السلطان من عاقبة الفكر المتحرر لجمال الدين، فطلب إليه السلطان مغادرة الآستانة مؤقتًا، فعزم الفيلسوف العالم المناضل على العودة إلى الهند مرة

أخرى، على أن يمر بمصر قبل الذهاب إليها، فوصل القاهرة في مارس (١٨٧١م)..

وفي القاهرة كان استقبال العلماء والطلاب والساسة والأحرار لجمال الدين هذه المرة أكثر حرارة من استقبالهم له في المرة الأولى، فأخبار صراعه في الآستانة ضد فقهائها الرجعيين كانت حديث المنتديات والمجالس في ذلك التاريخ... وفيها استقبله أيضًا رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا (١٨٣٤- ١٩١١م) الذي أعجب بشخصية جمال الدين، فطلب إليه أن يقيم بمصر، فوافق، وقدمت له الدولة منزلًا يقيم به في « خان الخليلي »، وعينت لنفقاته راتبًا شهريًّا قدره عشرة جنيهات!.. فبدأت في القاهرة أعظم سنوات حياة جمال الدين الأفغاني خصوبة وعطاء، سواء في العلم، أو في السياسة، أو في صنع الرجال وتربية المناضلين، أو في إنشاء أولى التنظيمات السياسية التي قامت في الوطن العربي بالعصر الحديث؟!..

* فالمنزل المتواضع الذي سكن به الأفغاني في « خان الخليلي» أصبح ندوة علمية منظمة، يذهب إليها كل الذين يتطلعون إلى فهم الفكر الإسلامي فهمًا جديدًا، يختلف عن ذلك الذي يقدمه شيوخ الأزهر وعلماء الدولة العثمانية، وأغلبهم كانوا يرددون الفكر الجامد الذي ساد وسيطر في العصور المظلمة على عهد المماليك!... أما الأفغاني فلقد أخذ يحدث مريديه ويشرح لرواد ندوته الكتب والآراء والنظريات والأفكار التي تمثل الفكر العربي الإسلامي في عصر نهضته وازدهاره، وأخذت دروسه

هذه تفتح عقول تلاميذه على حقيقة هامة، وهي: أن أوربا ليست وحدها التي تملك حضارة عظمى وفكرًا متقدمًا، بل إننا نحن أيضًا لنا فكر وعندنا تراث عظيم، وإذا نحن بعثناه وبنينا عليه وطورناه، استطعنا أن نسابق الأوربيين فنسبقهم، واستطعنا كذلك أن نقيم سدًّا منيعًا أمام الغزو الاستعماري الذي يريد أن ينهب ثروات بلادنا، وأيضًا يريد أن يمسخ شخصيتنا الحضارية والقومية، ويجعلنا أتباعًا له في الفكر كما في الاقتصاد!.

ولقد كانت تلك هي أهمية التجديد الفكري والديني الذي قام به جمال الدين الأفغاني، فهو يحيي التراث ليبعث الأمة، ويجدد الفكر لتتسلح به الأمة في صراعها ضد الغزاة!..

وكان التخلف الذي أصاب الوطن العربي في ظل حكم المماليك والعثمانيين قد أصاب اللغة العربية بالركاكة، وطبع الأسلوب العربي بالسجع والزخارف، فأصبح الناس يهتمون بزينة الألفاظ ويهملون المعنى والمضمون... فعمل جمال الدين على تربية ملكة البلاغة والكتابة عند تلاميذه، ونجح في تكوين أول مجموعة من الكُتَّاب والأدباء الذين تَخَلَّصَ أسلوبهم من السجع، وتعلموا كتابة المقالات والفصول بأسلوب بليغ وعصري معًا، وكان يطلب إليهم أن يدونوا أفكاره وآراءه التي يلقيها في مجالسه ودروسه، وأن يقوموا بصياغتها هم، وأن ينشروها بأسمائهم في الصحف والمجلات.

* وكانت أغلب الصحف والمجلات - بمصر - حتى ذلك

التاريخ حكومية رسمية تصدرها الدولة، وكان أغلب المفكرين ورجال العلم ودعاة التنوير من رجال الدولة أيضًا.. فلما بدأت تتبلور للفكر والتنوير« مدرسة شعبية » على يد جمال الدين، سعى إلى إصدار عدد من الصحف والمجلات الأهلية والشعبية؛ لتكون مجالًا لفكر هذه المدرسة الجديدة في الإصلاح والتجديد والتنوير... وكان من تلاميذه الكاتب الصحفي أديب إسحاق (١٨٥٦- ١٨٨٥م) فساعده حتى أصدر صحيفة (مصر)، وكان الأفغاني يكتب فيها المقالات والفصول التي لفتت أنظار الناس إلى هذا الفكر الجديد والأسلوب الجديد، وكان يوقع مقالاته هذه باسم مستعار هو (المزهر بن وضاح)!... ثم سعى إلى إصدار صحيفة ثانية، هي صحيفة (التجارة) باسم أديب إسحاق، وسليم النقاش (١٨٨٤م)، وأصبحت ميدانًا لفكره وكتابات تلاميذه ومريديه... وأيضًا وجه تلميذه إبراهيم اللقاني فتولى إصدار صحيفة (مرآة الشرق)، فأصبحت هي الأخرى ساحة لهذا الفكر الجديد..

* وبينما كان منزل الأفغاني ندوة للعلم والفلسفة، كانت ندوته في مقهى « متاتيا » بميدان العتبة الخضراء، بوسط القاهرة، تضم مختلف الناس من مختلف الطبقات، وفي هذه الندوة اقترب الأفغاني من عامة الشعب المصري وجمهوره، وأخذ يستعين بالكلمات العامية والحكم الشعبية في النفاذ إلى أعماق الناس.. بل لقد امتدت دعوته إلى نساء ذلك العصر، فعقدت الاجتماعات التي ضمت الصفوة منهن والتي خطب فيها جمال الدين!..

* وكانت مصر - مثلها مثل كل أجزاء الوطن العربي - تتعرض لخطرين عظيمين:

(١) الاستعمار الأوروبي الزاحف عليها.

(٢) وطبقة الغرباء - من الشراكسة وبقايا المماليك - الذين يحتكرون المناصب العليا فيها، وينهبون ثرواتها، ويفرضون السلطة المستبدة على أهلها.. ومن ثم فإنهم يتيحون بالجهل والغباء والضعف الذي استشرى بسببهم، يتيحون الفرصة للغزو الاستعماري الزاحف على البلاد!.

وأمام هذين الخطرين، رفع جمال الدين الأفغاني - بمصر - شعار: (مصر للمصريين)!.. لا للشراكسة والمماليك ولا للمستعمرين الأوربيين!.. ومضى في سبيله يوقظ الحس الوطني والقومي عند الشعب، ويحدث الناس عن مجدهم، فيقول: « أنظروا أهرام مصر، وهياكل منفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوة، وحصون دمياط... إنها شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم...هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، شقوا صدور المستبدين بكم كما تشقون أرضكم بمحاريثكم، عيشوا - كباقي الأمم - أحرارًا سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء؟!..».

* وشيئًا فشيئًا بدأت البذور التي زرعها جمال الدين في المجتمع المصري تنبت وتورق وتثمر... فتكون من حوله تيار فكري مستنير... وأخذت أفكار هذا التيار تنتشر بواسطة الصحافة الشعبية والندوات والاجتماعات.. وحتى يضمن الرجل لهذا الفكر وهذه

الدعوة دوام الاستمرار وإمكانيات الصمود في وجه أعدائها أقام - سرًّا - أول تنظيم سياسي عرفه الوطن العربي في ذلك التاريخ، وسماه (الحزب الوطني الحر)!... وضمت صفوف هذا الحزب نحوًا من ثلاثمائة من القادة والمفكرين، كان من بينهم معظم الذين فجروا وقادوا الثورة العرابية (١٨٨١م) ضد الاستعمار والاستبداد!..

* لكن الاستعمار الذي كان يحرس ضعف الدول العثمانية، ويحافظ على تخلفها، ويرعى استبداد حكومتها المركزية وحكومات ولاتها وباشواتها وخديويها في الأقاليم والولايات، حتى تأتي اللحظات المناسبة فيدخل في هذه الثغرات؛ لالتهام هذه الأقاليم والولايات... هذا الاستعمار قد وجد في فكر الأفغاني وحركته وحزبه الخطر الأكبر على المخطط الإجرامي الذي يبيت لتنفيذه في مصر والوطن العربي... فالأفغاني يسعى إلى أن تصبح مصر دولة ديمقراطية، يحكمها قادة من أبنائها، بالشورى والانتخاب والبرلمان والدستور، ويسعى إلى أن تصبح خيراتها بيد أهلها... ولو حدث ونجح ذلك في مصر، فإن تأثيره في المشرق والمغرب لن يقاوم، لما لمصر من دور رائد وقائد فيما حولها من البلاد.. وفي ذلك ما فيه من خطر على أحلام الاستعمار الذي يرى في ضعف هذه البلاد ثغرات ستمكنه من النفاذ إليها لالتهامها ونهب ما فيها من خيرات... ولذلك قرر الاستعمار أن يسرع فيعاجل مشروع الأفغاني قبل أن يتحقق له النجاح... فسعى كل من القنصل الفرنسي والقنصل الإنجليزي بالقاهرة إلى حاكم

مصر الخديو توفيق (١٨٥٢ - ١٨٩٢م) ودسوا عنده لجمال الدين، وأخافوه منه ومن حزبه، وأوهموه أن نشاطه يمثل الخطر الأكبر على عرشه وعلى انفراده بحكم البلاد، بل وقالوا له: إن الأفغاني يسعى لتحويل مصر إلى جمهورية!... واستمر سعيهما في ذلك حتى استجاب لهما الخديو، فقرر نفي جمال الدين من مصر... وفي ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد ٢٤أغسطس سنة (١٨٧٩م)، بينما كان الفيلسوف الثائر العظيم عائدًا إلى منزله، أحاط به الجند، واقتادوه إلى قسم الشرطة، وأدخلوه إلى سجنه (التخشيبة - الحجز!)... ومع ضوء الفجر - ودون أن يدري أحد من أنصاره - اقتادوه من السجن إلى عربة مغلقة، وذهبت به إلى محطة السكك الحديدية، ومنها أركبوه القطار، تحت الحراسة المشددة، إلى ميناء السويس... ولم تكن مع الرجل ملابس ولا أمتعة... بل لقد جردوه من الجنيهات العثمانية الثلاثة التي كانت في جيبه!.. وفي السويس صعدوا به إلى الباخرة التي ستبحر به إلى الهند، التي يحكمها الإنجليز!.

وقبل أن تبحر السفينة علم قنصل إيران في السويس بالأمر، فذهب وقابل جمال الدين، وعرض عليه بعض المال، فاعتذر، وقال له: « وفر عليك مالك، فلربما كانت حاجتك إليه أكثر... أما أنا فإن الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته؟!»..

وبينما كانت السفينة تبحر بالفليسوف الثائر منفيًّا من مصر يوم الثلاثاء ٢٦ أغسطس (١٨٧٩م)، كانت حكومة الخديو توفيق توزع على الصحف بيانًا تبرر فيه فعلتها، وتتهم جمال الدين

« بأنه رئيس جمعية سرية، من الشبان ذوي الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدينا! ».

لقد جدد الدين - حتى تتجدد الدنيا - وأقام لذلك أول حزب سياسي في تاريخنا الحديث... لكنهم اتهموه بالعمل على « فساد الدين والدنيا »....

ولم تكن مثل هذه الاتهامات تحزن جمال الدين، فلقد وطن نفسه على استقبال الموت شهيدًا باسم الثغر في سبيل الهدف العظيم الذي سعى ويسعى إليه، وقال في ذلك: « إن السجن في طلب الحق من الظالمين العتاة رياضة! »، والنفي في سبيل ذلك « سياحة ».. والقتل « شهادة »... وهي أسمى المراتب.

وهكذا بدأت مرة أخرى « سياحة » جمال الدين بعد أن أقام بمصر قرابة التسع سنوات!..

ووصلت الباخرة بالفيلسوف الثائر إلى الهند فنزل في بمباي، وبعد أن كان ينظر من خلال مصر إلى الشرق ووطن العرب وعالم الإسلام، أخذ بعد نفيه من مصر يفكر أكثر وأكثر في الرابطة والتنظيم الذي تمتد خلاياه وفروعه ومجموعات مناضليه بكل أجزاء الشرق، وخاصة تلك الأجزاء التي تتعرض أكثر من غيرها لهجمات المستعمرين الغزاة..

* وعندما تفجرت الثورة العرابية بمصر عام (١٨٨١م)، بقيادة (الحزب الوطني الحر) الذي كونه الأفغاني، أسرعت الحكومة الإنجليزية التي تحكم الهند فنقلت جمال الدين الأفغاني

من « بمباي » إلى « كلكته » وعزلته عن الناس والعالم والأخبار، وبعد أن غزت الجيوش الإنجليزية مصر، وهزمت المقاومة الثورية، وتحقق هدف الاستعمار، فكوا حصار الفيلسوف الثائر، وطلبوا إليه أن يغادر البلاد.. فالحصار مضروب من حوله بالهند.. ولن يستطع دخول مصر بعد احتلالها.. وبعد ذلك ليذهب بعيدًا حيث يشاء؟!.

* ولكن الرجل لم ييأس.. بل لقد أخذ ينسج الخيوط ويقيم الروابط ويؤلف القواعد لتنظيم سياسي وفكري جديد، يستطيع به أن يواجه المرحلة الجديدة بعد أن وقعت الكارثة واحتلت إنجلترا مصر، وأخذت تهدد منها ما جاورها من البلاد... وبعد أن قضى الأفغاني عامًا في الهند - عقب هزيمة الثورة العرابية - مهد فيه لإقامة نواة تنظيم (العروة الوثقى) سافر بالبحر من الهند قاصدًا باريس... وعندما كانت السفينة بقناة السويس كتب رسالة بعث بها إلى تلميذه الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) - وكان منفيًّا في بيروت ضمن من نفي من قادة الثورة العرابية - وطلب منه أن يلحق به في باريس للعمل في التنظيم الجديد... تنظيم « العروة الوثقى ».

.. والتنْظيم:

نظر الأفغاني إلى الشرق - ببلاده المختلفة - وإلى أبناء هذا الشرق بعقائدهم وأديانهم المتعددة، فوجد الجميع يتعرضون لموجة من الغزو والاحتلال والنهب، شاركت فيها أوربا الاستعمارية جمعاء، والإنجليز على وجه الخصوص..

وكانت الرحلات التي قام بها - في سنوات شبابه ونضجه - إلى كثير من مدن الشرق وبلاده قد جعلت له الأصدقاء والأنصار والتلاميذ في الكثير من هذه البلاد، بل لقد كان له تلاميذ ومريدون سمعوا عنه، وتتبعوا أخبار نضاله، وتنسموا أحاديث مجالسه، ودونوا خطبه ومقالاته وجعلوا منها هاديًا وإمامًا، وذلك دون أن يروه أو يسمعوا منه أو يصافحوه... ولقد بدأ الأفغاني فاختار صفوة وخلاصة من الرجال الذين عقدوا العزم على قيادة الأمة وتنبيهها للخطر الزاحف عليها، واجتمعت فيهم المقدرة على بث الأمل في وقت تسرب فيه اليأس إلى نفوس الكثيرين... ومن هذه الصفوة تكونت قيادة التنظيم الجديد.. تنظيم (جمعية العروة الوثقى) السري!.. ثم بدأت الاتصالات السرية بين قيادة التنظيم وبين الصفوة التي يرشحها ماضيها وفكرها لعضوية (العروة) أو للتعاون معها، أو لتنفيذ أهدافها في مختلف المدن والأقطار...

ولم يكن الأفغاني قد زار أوروبا حتى هذا التاريخ.... ولم يكن قد تعلم الإنجليزية أو الفرنسية أو الروسية بعد.... ولم يكن قد درس شيئًا من تجارب التنظيم الثوري والسري عند الأوربيين وفي تراثهم.... ومع ذلك جاء تنظيم (جمعية العروة الوثقى) دليلًا على عبقرية في التنظيم ونضج في العمل التنظيمي، والنشاط السياسي السري غير عادي وغير مألوف، خصوصًا بمقاييس العصر الذي قام فيه...بل إن الدارس للقواعد التنظيمية (للعروة الوثقى)، من خلال لائحتها،

ورسائلها السرية، والقَسَم الذي يقسمه الأعضاء الجدد عند الانضمام إليها، يجد فيها من قواعد التنظيم ومبادئه ما لم يكن قد عُرِفَ يومئذ في التنظيمات الثورية الأوربية؟!.. فمن أين جاء الأفغاني وزملاؤه بهذا الفكر التنظيمي؟.. لقد جاءوا به من تراث الحضارة العربية الإسلامية والتاريخ الإسلامي في « التنظيم ».. فعلى امتداد قرون وقرون كانت بلاد العرب والإسلام تموج بحركات المعارضة وتنظيماتها الثورية، من (إخوان الصفا) إلى (القرامطة) إلى (المعتزلة) إلى (الإسماعيلية) إلى كثير من فرق الشيعة وحركات التصوف وتنظيماتها المعارضة والثورية.. ولقد عرفت هذه الجماعات ومارست قواعد في التنظيم السري، وأصبحت لها فيه خبرات، كونت تراثًا غنيًّا استفاد منه الأفغاني، وكانت (جمعية العروة الوثقى) امتداداً متطورًا لهذا التراث في التنظيم؟!.

وحتى اسم التنظيم (العروة الوثقى) جاء ثمرة من ثمرات الارتباط بواقع الأمة وتراثها الفكري، فالحديث عن (العروة الوثقى) قد جاء في آيتين من آيات القرآن الكريم: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي الآية الثانية يقول الله سبحانه: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢] كما جاء ذكر هذا الاسم الجميل، المعبر عن الوحدة المتينة والارتباط القوي في الأحاديث النبوية الشريفة التي ذُكِرَت في (صحيح

البخاري) و (صحيح مسلم) و (مسند الإمام أحمد بن حنبل) و(سنن الإمام ابن ماجه).. وهي من أهم كتب الحديث النبوي الشريف..

ومن المعنى البسيط والواضح لكلمة (العروة) يظهر الهدف من التنظيم.. فـ « العروة » هي: الفتحة في ثوب الإنسان التي تدخل فيها « الأزرار » فيصبح الثوب محكمًا، يضم الجسم ويحفظه ويحميه من الأخطار ويمنعه من الانفراط.. و « العروة » لا تكون صالحة نافعة إلا إذا « عقدت » حولها الخيوط؛ حتى لا تتسع بكثرة الاستعمال فتنفلت منها « الأزرار »، وكل خيط من هذه الخيوط التي تدور حول « العروة » يسمى « عقدًا »!..

ولذلك وجدنا قادة هذا التنظيم يختارون له اسم (العروة الوثقى)... ولما كان نطاق عمله ومجال نشاطه هو بلاد العرب والشرق الذي يتعرض لغزو الاستعمار، فلقد سموا كل تنظيم من تنظيماته وأقسامه الفرعية باسم (العقد)... فهي « عقود » تلتف وتجتمع لتكون (العروة) التي تمثل الرابطة الجامعة للمناضلين ضد الاستعمار!..

ونحن عندما ننظر في تراثنا الفكري والحضاري نجد هذا التراث يسمي قادة الرأي وزعماء الأمة (أهل الحل والعقد)؛ لأنهم هم القادرون على فك المعضلات، وعلى إحكام الأمور، وإبرامها!.. كما نجد في تراث دولة (القرامطة) الثورية أنها قد كونت مجلسًا يشترك مع رئيس الدولة في إدارة شئون البلاد،

وكان هذا المجلس يسمى (مجلس العقدانية)؛ لأنه مؤلف من قادة التنظيمات الفرعية، أي: من رؤساء (العقود)؟!..

وهكذا.. فسواء من حيث الاسم، أو من حيث المعنى والمضمون، كان اسم (العروة الوثقى) ثمرة من ثمار التراث الحضاري للأمة، واستخدامًا عصريًّا لكلمات محبوبة ومعبرة من هذا التراث الذي أبدعته الأمة في « التنظيم »!..

وبسبب السرية الشديدة التي اتبعت في إنشاء هذا التنظيم، والتي استمرت مفروضة على تنظيماته وأغلب مجالات نشاطه، منذ نشأته وطوال حياته، وأيضًا لندرة الأوراق والكتابات التي كتبت عن هيكله التنظيمي وقواعد العمل فيه، والندرة الشديدة لما بقي من هذه الأوراق، فإن المعلومات قليلة جدًّا عن معالم هذا التنظيم... ولكن الجمع لبقايا هذه الوثائق والأوراق، والقراءة المتأنية في المراسلات السرية التي دارت بين قيادة التنظيم وقواعده (عقوده)، والتأمل في اللمحات والإرشادات « التنظيمية » التي وردت في مقالات « الجريدة » التي نطقت باسم هذا التنظيم، وعبرت عن سياسته (جريدة العروة الوثقى)... إن ذلك كله كفيل بأن يكشف لنا عن صورة واضحة لمعالم تنظيم (جمعية العروة الوثقى)، وللقواعد والخبرات التنظيمية التي سادت فيه، وأيضًا للأهداف التي قام لتحقيقها للعرب والمسلمين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر...

* ولقد كان نجاح الإنجليز في احتلال مصر (١٨٨٢م) هو

السبب المباشر في إنشاء تنظيم (جمعية العروة الوثقى).. لما يمثله هذا الحدث الذي زلزل أرجاء الوطن العربي والشرق عمومًا من خطر يتعدى حدود مصر.. فالأفغاني كان يعتبر مصر « باب الحرمين الشريفين »- الحرم المكي وحرم المدينة المنورة - ويعدها القطر الأكثر تقدمًا، والمؤهل - بالتطور والتقدم - لأن يكون النموذج الذي يحتذيه الجيران؛ لأن هؤلاء الجيران مقتنعون بالدور القيادي لهذا البلد في وطن العرب وعالم الإسلام.. ولذلك فإن حادثة احتلال مصر - كما تقول جريدة (العروة الوثقى) في المقال الأول من العدد الأول الذي صدر منها -: « قد أيقظت أفكار العقلاء » فنظموا أنفسهم في عدد من الأقطار الشرقية، وخاصة في مصر والهند... وشرعوا - من خلال هذا التنظيم - يدرسون سر تخلف البلاد العربية والشرقية، ويبحثون وسائل التقدم والنجاح.. وفي مقدمة هذه الوسائل: توحيد الكلمة وضم الصفوف في كل بلد، ثم في مجمل البلدان، وكما يقول « القَسَمُ » الذي صاغه التنظيم ليقسم به العضو الجديد عند انضمامه « للعروة »، فإن الهدف هو: « إحياء الأخوة الإسلامية »، بحيث تصبح منزلتها هي منزلة « الأبوة والبنوة الصحيحتين »!..

كما تقرر أن يكون من مهام هذا التنظيم إعادة النظر في أمر نظام الحكم في البلاد الإسلامية، والشروط التي لابد منها فيمن يتولى السلطة العامة، والواجبات التي تجب على الحكام تجاه الرعايا والشعوب...

وأيضًا فمن مهام (جمعية العروة الوثقى) طَرْقُ كلِّ السبل والأبواب، واستخدام كل الوسائل التي تجلب القوة والقدرة للإسلام والمسلمين: القوة العقلية والمعنوية،، والقدرة المادية والعملية... وبالتنظيم وحده، وليس بجهود الأفراد المبعثرة، يمكن تحقيق ذلك؛ لأن التنظيم - كما تتحدث عن ذلك مراسلات قيادته السرية إلى أعضاء (العقود) - هو الذي يحقق اجتماع الأفكار واتحاد الإمكانيات، الأمر الذي يعين على إنجاز الأعمال العظيمة التي لا تقدر على إنجازها عزيمة الفرد، ولا يكفي لتحقيقها عمر الفرد أو الأفراد.. لقد حددت القيادة دور التنظيم القيادي في الأمة عندما شبهته بدور العقل، أو القوة العاقلة في بدن الإنسان!.. ومثل هذا التنظيم، وما يحقق من إنجازات كبرى هو الكفيل بغرس الأمل في النصر بقلوب الأمة، بعد أن تسرب إليها اليأس من جراء ما حقق الاستعمار على أرضها من انتصارات!.. ذلك هو قانون الحياة، يعلمه المؤمنون عندما ينظرون في الدين، ويطالعه الناظرون في تاريخ الأصدقاء والأعداء على السواء.. فهؤلاء الأعداء « لا يمتازون عنا في شيء من خواص الخلقة، وغاية ما عندهم أنهم لا يحقرون عملًا، ولا يقطعون أملًا، ولا تأخذ أحدهم رهبة في أداء ما يوجبه عليه دينه ووطنه!» كما تقول هذه المراسلات.

وهذا التنظيم الذي فرض الحصار والنفوذ الاستعماري على قيادته العليا أن تصدر جريدته من باريس، كان يلتقي في المجتمعات الأوروبية بالعديد من المفكرين الأحرار والمناضلين

ضد الاستعمار - أفرادًا وأحزابًا وجمعيات - كما كان يلتقي - في السياسة الدولية - بتيارات وقوى تتعارض مصالحها مع السيطرة الاستعمارية الإنجليزية التي كانت لها الغلبة في الشرق العربي والإسلامي، وضدها يتوجه معظم نضال التنظيم.. ولكل ذلك كانت سياسة التنظيم - كما حددتها جريدته - مهتمة بالتحالف مع كل القوى الأوروبية المعادية للاستعمار والمناضلة ضده، وأيضًا بالتحالف مع الحركات الاجتماعية المعادية للاستغلال، والتي هي بطبيعتها معادية للاستعمار.. وكما تقول جريدة (العروة الوثقى) في أول مقال افتتاحي لها، فإن الجمعية قد عقدت « الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة، ويحامون عنها من أهل أوروبا »..

وهذا التنظيم السري.. لم تكن السرية اختيارًا سعى إليه أو رغب فيه، إنما كانت أمرًا فرضته عليه ظروف الحصار الاستعماري.. فالتنظيم واجتماعات أعضائه، ومراسلاتهم مع قيادتهم، ووصول الجريدة من باريس إلى الأعضاء في مختلف بلاد الشرق العربي والإسلامي.. وأموال التنظيم، وسجلات أعضائه ورسله ودعاته.. إلخ.. إلخ، كل ذلك كان في نطاق السرية والكتمان.. حتى لقد كانت المراسلات السرية تستخدم كلمات رمزية أيضًا للتعبير عن بعض الأمور!.. فبدلًا من أن تقول الرسالة للأعضاء مثلًا: إن الجريدة ستصل إليكم، تضع كلمة (الوسيلة) مكان كلمة (الجريدة)؟!.. بل لقد استخدموا الشفرة الخاصة في المراسلات، وفي عناوين هذه المراسلات!..

ومن بين الأوراق القليلة التي بقيت من وثائق تنظيم (جمعية العروة الوثقى) لائحة (العقد الرابع) من عقود هذا التنظيم، ومنها نتبين هيكله التنظيمي، ومهام المجموعات المنظمة، وسبلها في الدعوة لأفكارها، والعلاقة بينها وبين قادة التنظيم.. إلخ.. إلخ، وعلى سبيل المثال:

(١) فالحد الأدني لعدد أعضاء « العقد » - أي المجموعة، أو الخلية - هو ثلاثة أعضاء.. وأعضاء « العقد » يجتمعون مرتين في كل أسبوع.

(٢) وفي الجوانب الفكرية الدينية يهجر أعضاء التنظيم المذاهب والآراء التي فرقت المسلمين شيعًا وأحزابًا، ويعودون فيأخذون فكرهم الديني من أصوله الأولى: من القرآن والسنة، وفي التاريخ السياسي يستلهمون تجربة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فقط!.. وذلك حتى يتوحد فكرهم بالابتعاد عن استلهام التجارب والآراء التي فرقت الأمة وقسمت صفوف المسلمين.. كما يدرس الأعضاء من صفحات التاريخ السياسي: لماذا كانت انتصارات المسلمين؟.. ولماذا تخلفوا، وأصبحوا على ما هم عليه الآن؟!..

(٣) ويدرس أعضاء « العقد » الواقع الراهن لبلادهم ، كيف زحف عليها الأعداء.. وأحكام الجهاد والتكاليف الواجبة على كل مواطن أمام زحف هؤلاء الأعداء على بلاد الإسلام.

(٤) ويتعلم الأعضاء ضرورة الدعوة إلى أهداف التنظيم

بكل السبل والوسائل المناسبة في المناخ الذي يعيشون فيه، وتعين اللائحة بعضًا من هذه السبل، مثل تأليف الكتب في أحوال الأمة وفكرها، وما يقدمه التنظيم من تجديد وإصلاح وعلاج.. وبذل المال في سبيل العمل العام.. وحمل السلاح - للقادرين عليه - لمقاتلة الأعداء!..

(٥) وتدعوا اللائحة الأعضاء إلى اليقظة في التزام السرية والكتمان في كل أمور التنظيم.. فالدعوة للتنظيم واجب دائم، واختيار الأعضاء الجدد - من ذوي الرأي والمكانة والأدوار القيادية في مجالات عملهم - مهمة مقدسة ومستمرة، لكن مع توفير السرية بحيث لا ينكشف أمر « العقد » لغير مَنْ هُم أهل للثقة والاطمئنان!..

(٦) وعندما يقترح أحد الأعضاء ترشيح واحد أو أكثر لعضوية التنظيم، ويزكيه، فعلية أن يشرح لأعضاء « العقد » مبررات هذه التزكية وذلك الترشيح، وعلى الأعضاء أن يدرسوا الأمر.. ولا يصبح المرشح موضعًا للثقة، ومقبول العضوية إلا عند اتفاق آراء الأعضاء وإجماعهم على الثقة فيه!..

(٧) والمداولات التي تتم في اجتماع « العقد » تسجل أفكارها بالتفصيل، ثم توجز هذه الأفكار على وجه الإجمال، ثم تحدد المبادئ والقرارات التي استقرت عليها الآراء.. وجميع الأعضاء ملتزمون بتنفيذ ما اتفق عليه أكثرية المجتمعين، ذلك أن من عبارات « القَسَم » الذي يقسمه العضو عند الانتساب،

قوله: « .. وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين، في شيء يتفق رأي أكثرهم عليه!».

(٨) يجتهد أعضاء كل عقد، بالفكر والممارسة، حتى تصبح المصلحة العامة للجمعية والوطن والأمة - عند كل واحد من الأعضاء - بمنزلة مصلحته الخاصة، أو على من مصلحته الخاصة، على أن تكون الممارسة والتطبيق هي المعيار والدليل على ذلك، وليس العبارات والأقوال!.. لأن ذلك هو مقياس النجاح في تحقيق « الأخوة » التي دعا التنظيم إلى جعلها بمنزلة الأُبوة والنبوة الصحيحتين.. وكما تقول نصوص اللائحة، فإنه في كل الأحوال « يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط، حتى يكون عند كل واحد أن مصلحة الكل هي بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى. ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله، أو مساويًا، والعمل هو: بذل المال والروح!..».

(٩) وتدعو اللائحة أعضاء العقد إلى توسيع دائرة الدعوة إلى مبادئ التنظيم وعضويته، وذلك بإرسال الرسل إلى أرجاء الوطن أو الإقليم الذي يعيشون فيه، وكذلك إلى الأقاليم المجاورة لإقليمهم.. على أن يكون هؤلاء الرسل من أكثر الأعضاء قدرة ودراية بالدعوة والتنظيم، وأن تكون لهم ملكات القادة التي تعينهم على حسن التصرف في الأزمات، دون الحاجة إلى مشورات في وقت يعز فيه المشيرون!.. وعلى هؤلاء الرسل أن يطلعوا أعضاء العقد على صورة كاملة لما شاهدوه وصادفوه وأنجزوه، بحيث يكونون حلقة وصل جيدة التوصيل بين الموطن الذي ذهبوا

إليه وبين قيادة التنظيم، تنقل انفعالات الناس وموقفها من فكر التنظيم، كما نقلت إلى الناس فكر التنظيم.

كما أن باستطاعة أعضاء العقد أن يتدارسوا ويتفقوا على توجيه رسل ليسوا أعضاء في التنظيم، بل وربما لا يعلمون بوجوده، بعد إقناعهم ببعض الأهداف العامة التي يدعو إليها التنظيم... وهؤلاء الرسل يتم اختبارهم - في العادة - من بين الشخصيات العامة التي تكون مرتبطة بروابط عامة مع أعضاء التنظيم!..

(١٠) ويتم الإنفاق على أنشطة العقد العامة، وعلى الأماكن التي يجتمع فيها أعضاؤه، وكذلك إعانة المحتاجين من أعضائه، وإنقاذ من تصيبهم المحن والمآزق والكوارث.. يتم الإنفاق على كل ذلك وغيره، من الرصيد المالي « للعقد »، وهو يتكون من :

أ- رسم مالي يدفعه كل عضو جديد عندما يقبل عضوًا في العقد.. والحد الأدنى لهذا الرسم مائة فرنك، ومتوسطه مائتان، وأعلاه ثلاثمائة - وكان « الفرنك » عملة متداولة ببلاد الشرق في ذلك الحين - ولم يكن يعفى من الرسم المالي هذا إلا العلماء والصالحون الفقراء الذين لا يملكون قيمته، والذين يعرضون بدلًا منه بذل جهد زائد في الدعوة لمبادئ التنظيم وكسب الأنصار لعضوية « العقد ».

ب- الإسهامات المالية لكل عضو - حسب قدرته - عقب كل اجتماع يعقده « العقد »، إذ كان لكل « عقد » صندوق للتبرع،

مغلق، وله فتحة صغيرة من أعلاه، وعقب كل اجتماع يحمله أصغر الأعضاء سنًّا فيطوف به على المجتمعين، فيضع كل عضو فيه ما يناسب استطاعته، دون أن يعرف الواحد مقدار ما أسهم به سواه!..

ولقد كان بكل عقد « أمين » للمال، تجتمع لديه أموال العقد، حيث يضعها في مظروف يكتب عليه: « هذا مال حق التصرف فيه لعقد الإخلاص ، تحت رئاسة.. فلان.. ». ومن هذا المال يتم الإنفاق، بعد موافقة الأعضاء – جميعهم أو أكثريتهم – على شؤون « العقد » ودعوته.. وباستطاعة كل عقد أن ينمي ما يتوفر لديه من مال للعقد بعد النفقات، وذلك وفقًا للعرف في الإقليم الذي يعيشون فيه.. وما زاد عن احتياجات العقد من المال، فمن حق القيادة العليا توجيهه إلى مواطن أخرى للدعوة والدعاة..

وإذا احتاجت نفقات العقد الطارئة إلى ما يزيد على المال المجموع لدى « أمين المال »كان على الأعضاء أن يسهموا بالقدر الذي يكفي لسد المطلوب.

(١١) ومن واجبات كل « عقد » من عقود التنظيم أن تكون لديه أربعة دفاتر – (سجلات) – أحدها: لحصر أسماء أعضاء « العقد ».. وثانيها: لحصر أسماء الرسل والدعاة الذين يرسلهم « العقد » لنشر مبادئه والدعوة لأفكاره.. وثالثها: لحصر الأموال المجموعة لدى « أمين المال »... ورابعها: لحصر الأموال المنصرفة على شؤون العقد وأنشطته..

(١٢) وتحدد لائحة « العقد » واجبات الأعضاء في حماية بعضهم بعضًا، ونصرة كل واحد منهم للآخرين، حماية حقيقية ونصرة فعلية في كل المواطن التي تستدعي الحماية والنصرة، فتقول: إنه « على رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضًا، ويعين كل منهم باقيهم - بقدر الاستطاعة - والاستطاعة لا تفسر بالأهواء، حتى يعد كل وهم عجزًا، وإنما هي المعروفة عند المخلصين، التي لا يعدمها الإنسان ما دام حيًّا قادرًا على الحركة؟!..».

(١٣) ولما كانت (العروة الوثقى) قد ضمت « عقودًا » انتشرت في أقطار عدة، فلقد كان طبيعيًّا أن تختلف أمام أعضائها الملابسات والمهام والواجبات، في عدد من الأمور - الجزئية أو الكبرى - ومن هنا كانت مرونة القيادة العليا للجمعية عندما جعلت مبادئها وبرنامجها العام يدور حول الكليات والقضايا التي لا يختلف الموقف منها بين قطر وآخر، على حين تركت القانون الداخلي لاجتماع كل « عقد » ليضعه أعضاء العقد أنفسهم؛ وذلك حتى يأتي ملائـمًا للمناخ الذي يعلمون فيه.. كما جعلت من حق أهل كل « عقد » أن يزيدوا في قانون الجمعية، وفقًا لأحوال بلادهم، بشرط أن يقترحوا ذلك على قيادة التنظيم أولًا، وأن تأتيهم الموافقة على ذلك بعد المراجعة والدراسة لهذه المقترحات.

(١٤) ومن المراسلات السرية القليلة التي عثر عليها، والتي كتبها الشيخ محمد عبده، بوصفه نائب رئيس التنظيم - وكان

جمال الدين الأفغاني هو الرئيس - نعرف أن رغبة عدد من الأعضاء في الانضمام (للعروة الوثقى) وتكوينهم « عقدًا » من عقود التنظيم، لم يكن يعد أمرًا نهائيًّا إلا بعد أن تعتمد اللجنة العليا والقيادة العامة للتنظيم عضوية هذا « العقد » وقبول هؤلاء الأعضاء .. ونعلم أيضًا أن كل « عقد » من عقود التنظيم كان يقوم « بانتخاب » (اختيار) رئيسه؛ أي أن المسئوليات داخل التنظيم إنما كانت تمارس بالأسلوب الديمقراطي!.. كما كانت هذه المرسلات تطلب إلى أعضاء العقد « ضبط » العضوية في « عقدهم » وتقديم البيانات الدقيقة والضرورية عن الأعضاء - في سرية تامة - إلى قيادة التنظيم.. ومن هذه البيانات، على سبيل المثال: أسماء الأعضاء، وألقابهم، ومواضع إقامتهم، وما يتميز به كل عضو من إمكانيات وطاقات.. إلخ.. إلخ.

(١٥) ولقد أشارت بعض وثائق التنظيم ومراسلاته إلى بعض أساليبه في اجتذاب الأعضاء الجدد وتجنيد الأفراد البارزين في مجالاتهم كي ينخرطوا في صفوفه.. فلقد كانت القيادة تنصح الأعضاء أن يبدأوا أولًا بالأحاديث غير المباشرة، وأن يكون مدخلهم هو عرض قضايا الواقع الراهن، وما حل ببلاد الشرق وعالم العرب والإسلام من محن ونكبات، فإذا ما حدث الاتفاق على تشخيص العلة والداء، انتقل الحديث إلى العلاجات الملائمة لهذا الداء، حتى إذا تم الاتفاق على الدواء، انتقل الحديث إلى الإشارة إلى أهمية الأداة والهيئة التي ترعى العلاج وتداوم عليه وتقود شؤونه...

فإذا ما حدث وتمنى « المرشح » قيام مثل هذه الهيئة، كان على العضو أن يكاشف المرشح بوجودها، ويطلب إليه الانخراط في عضويتها؟!.. وكثيرًا ما كانت أعداد جريدة (العروة الوثقى) تقوم بدور التمهيد الفكري، والخيط الذي يقود المرشح - بعد الحوار معه حول أفكارها وأهدافها - إلى عضوية التنظيم!.. ومن العبارات التي تحدد أسلوب التنظيم في تجنيد الأعضاء الجدد ما جاء في إحدى الرسائل السرية المرسلة من قيادته إلى أحد أعضائه، والتي تقول عن مهمة تجنيد إحدى الشخصيات وضمها (للعروة).. تقول الرسالة للعضو: «... فتقدم لدعوته، وادخل إليه-ابتداء-من طريق لا يعرفه ، وتلطف له في القول، وإن شئت أطلعته على شيء من مقالات (العروة الوثقى)، فإذا انتهيت به إلى ما يعرف ، وآنست منه الميل والرضاء ، فإما أن يكتب إليَّ ، وإما أن يستعد لتلقي كتاب مني . ثم أسرع إليَّ بالخبر !.. ».

(١٦) وكانت قيادة التنظيم تنصح أعضاءه بالمرونة في علاقاتهم بالآخرين ، بحيث يكون من حول كل عضو من الأعضاء حلقات وحلقات من الأنصار والأعوان ،الذين يستجيبون لفكره وآرائه ، حتى وإن لم يكونوا أعضاء في التنظيم ، أو يعلمون حتى بوجود مثل هذا التنظيم.. فهؤلاء الأنصار هم الحماية الحقيقية لأعضاء التنظيم ، وهم وسائل الاتصال بين فكره وتعاليمه وبين الجمهور.

(١٧) وإذا ما حدث ورغب عضو في التخلي عن عضويته،

فإن تعاليم (العروة) كانت تنصح بالمرونة التي تحافظ على ما يمكن المحافظة عليه من العلاقات مع مثل هؤلاء .. فالذين يضعفون عن تحمل أعباء العضوية، ولا يصلحون لمهامها قد يكونون صالحين لما هو أقل من الواجبات والمهام . وفي ذلك تقول إحدى الرسائل السرية، وهي تنصح بذلك أحد الأعضاء : «..وإذا أخذت من أحد بحبل فلا ترسله،ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه!.. ».

أما إذا كان الموقف بإزاء « جاسوس » قد اقترب من التنظيم ليتجسس عليه، ثم اكتشف أمره فإن للمرونة هنا معنى آخر. وعندما بعثت إحدى الحكومات الاستعمارية واحداً من عملائها إلى باريس، واقترب من جمال الدين الأفغاني، وأخذ يقدم العديد من الخدمات الصحفية – وخاصة في ترجمة الأخبار – للجريدة.. ثم اكتشف الشيخ محمد عبده دوافعه وأهدافه استغنى عن جهوده، وأبعده عن العمل، ثم أرسل إلى أعضاء التنظيم في بلده يحذرهم منه، ويقول: « ..وذلك الذي وفد إليكم هو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم، فاحذروه، ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء، لا يتبين منه علمكم بحاله، وتحفظوا منه كل التحفظ، وإياكم ومكاشفته بشيء مما أنتم عليه!. ».

(١٨) ولقد كشفت المراسلات السرية لقيادة التنظيم مع أعضائه عن رحلات سرية كان يقوم بها قادة هذا التنظيم ، وهم متخفون عن أعين الحكومات والجواسيس وعملاء الاستعمار، زاروا فيها البلاد التي تناثرت فيها تنظيمات (العروة) و« عقودها ».

وخاصة عندما كان العمل التنظيمي يتطلب إقامة فروع جديدة، أو عندما كانت الأحداث السياسية والثورات المعادية للاستعمار تتطلب اقتراب القيادة من مواقع الأحداث لتدرسها عن قرب، وتصدر تعليماتها التي تأخذ طريقها للتنفيذ دون إبطاء.

وفي عدد من الرسائل يتحدث الشيخ محمد عبده عن رحلاته السرية التي حملته من باريس إلى مصر وغيرها من بلاد الوطن العربي لينهض - عن قرب، ومباشرة- بمهامه، كنائب لرئيس التنظيم.. ولقد كانت أحداث الثورة المهدية في السودان أهم ما دعا إلى هذه الرحلات .. وهو في الحديث عن هذه الرحلات يستخدم الرمز في التعبير .. فمرة يقول: « .. لقد حولتني الحوادث من الغرب إلى الشرق!! لتكون المواجهة أشد من المكاتبة!.. ».. وعندما يكون سبب الرحلة هو إقامة فروع جديدة للتنظيم يرمز لهذه المهمة فيقول: «.. لقد حولتني ظروف الحوادث عن الغرب إلى الشرق ، حيث يقصد إحكام (العروة) أو تأييد القوة بالقوة؟!.. » وفي رسالة أخرى يكتبها وهو مختبئ عن أنظار الحكومة الاستعمارية، يقول: « لقد حولتني مهمات الشرق عن الغرب.. حتى أكون على مقربة من « معاقد » العروة ومكامن القوة.. واليوم أكتب إليك من وراء ستار!.. » وفي رسائل أخرى يتحدث بالرمز، عن الثورة المهدية في الجنوب - جنوب مصر أي السودان - وكيف أحدثت الضوضاء وأرسلت النداء وراء النداء، الأمر الذي استدعى أن يقوم برحلة سرية،

زار خلالها العديد من المدن والبلاد، التي قام فيها بمهام تنظيمية تؤسس وترعى « عقود » (العروة).

ثم أكمل رحلته سرًّا متخفيًا عن العيون، حتى دخل مصر وهو الذي خرج منها منفيًّا بحكم من حكومتها الاستعمارية - يقيم فيها تنظيمات (العروة)، ويدرس شئون ثورة المهدي في السودان!. يحكي الشيخ محمد عبده إشارات رمزية عن هذه الرحلة عندما يكتب عنها فى مراسلاته، فيقول: « لقد تعاظمت حوادث الشرق، خصوصًا ما مال منها نحو الجنوب؟!.. فلقيت من الأمر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء؟! ومسمع من النداء؟!. فكانت أوقاتي من فراقك، في أسفار .. فمررت على بلاد كثيرة.. عملت في جميعها على إحكام (العروة) وتمكين « عقودها »، ثم يمضى الشيخ محمد عبده فيشير بالرمز - أيضًا - إلى دخوله سرًّا ومتخفيًا إلى مصر، فيقول: « وإني بعد طوافي ببلاد كثيرة أكتب إليك اليوم من: بلاد بها فض الشباب تمائمي.. وأول أرض مس جسمي ترابها؟! ».

فمصر- وحدها- هي أول بلد مس ترابها جسم الشيخ محمد عبده؛ لأنها هي التي ولد فيها؟!.. ثم يتحدث عن عيشه فيها متخفيًا عن أعين الجواسيس وحكومة الإنجليز والخديوي توفيق، فيقول: « .. وأنا اليوم فيها أتعرف الوجوه وأتنكر للعيون؟ ولا يراني من أهلها إلا المخلصون، ولا يعرفني فيها إلا العارفون؟!.. ».

(١٩) ولقد كانت المراسلات السرية لجمعية (العروة الوثقى) تعلو صفحتها عبارة لا تخلو منها رسالة، وهي دائمة لا تتغير، وهذه العبارة هي: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وبيده الحول والقوة)؟!.. ولقد كانت لهذه العبارة التي أصبحت بمثابة شعار هذه المراسلات معاني ذات دلالة على المهام التي ينهض بها هذا التنظيم. فأمام الزحف الاستعماري الذي التهم أهم ديار العرب والمسلمين، وامتد بنفوذه إلى مختلف أرجاء الشرق، تسرب اليأس إلى كثير من النفوس، وظنوا أن الحول والقوة بيد الاستعمار وجيوشه المنتصرة، حتى لقد خافوا قوة المستعمر وكادوا أن يعبدوها من دون الله!.. فكانت (لا إله إلا الله) والتأكيد على الوحدانية، وعلى أن الحول والقوة بيد الله وحده، بمثابة النداء الإلهي لهؤلاء المستضعفين الذين أذهلتهم انتصارات المستعمر: أن تعالوا إلينا، وافتحوا قلوبكم كي تمتلئ بالثقة في الله، وفى الذين يسيرون على هدي سننه وقوانينه في الكون والمجتمع، فتغيير ما بالنفس سيثمر حتمًا تغيير الواقع المأساوي الذي نعيش فيه!..

(٢٠) أما أعضاء (العروة الوثقى)، وهم الذين تحدثت عنهم لائحتها على أنهم بمثابة العقل في الجسم والقوة العاقلة في البدن.. أما هؤلاء الأعضاء فإن تربيتهم وإعدادهم كان يستهدف خلق كتيبة مناضلة مجاهدة، تسترخص الروح في سبيل المبدأ، بل وأكثر من ذلك تسعى سعيًا متصلًا إلى مواقع الصدام ومواطن الاستشهاد!.. ذلك أن « طلب الشهادة هو أفضل

ذخائر السعادة الإنسانية » كما تقول واحدة من رسائل هذا التنظيم (تنظيم العروة الوثقى) إلى أحد أعضاء هذا التنظيم!...

والجريدة..

وكان لابد لتنظيم (جمعية العروة الوثقى) أن يفكر في إصدار جريدة تنطق باسمه، وتعبر عن أهدافه، وتنشر آراءه... فمكان الكلمة المكتوبة في وسائل نضاله وجهاده مكان عال وملحوظ.. ففي لائحته- كما سبق أن أشرنا- نص على أن تأليف الكتب هو واحد من واجبات « عقود » التنظيم!...

ولقد زاد من ضرورة صدور جريدة للتنظيم وجود قواعده و« عقوده » في بلاد عديدة وأقطار متباعدة، الأمر الذي يستدعي وجود « وسيلة » فكرية واحدة، توحد الفكر وتقيم الصلات... ولما كان هذا التنظيم سريًّا، وأغلب المواطن التي انتشرت فيها « عقوده » قد خضعت لاحتلال الاستعمار أو دخلت في مناطق نفوذه، فلقد كان طبيعيًّا أن تصدر هذه الجريدة من مكان بعيد عن هذه المواطن والبلاد... وبسبب من أن إنجلترا قد كان لها نصيب الأسد في الزحف الاستعماري الأوربي على الوطن العربي وعموم الشرق يومئذ، الأمر الذي خلق بعض التناقضات بينها وبين فرنسا، فلقد كانت باريس هي العاصمة المرشحة كي تصدر منها جريدة (العروة الوثقى)!..

ولم يكن قرار صدور (العروة الوثقى) قرارًا فرديًّا من رئيس التنظيم جمال الدين الأفغاني، ولا مبادرة ذاتية من نائبه الشيخ

محمد عبده، وإنما كان قرارًا من قيادة التنظيم ، معبرًا عن رغبة الجمعية، قام الأفغاني ومحمد عبده بتنفيذه!..

وفي المقال الافتتاحي الذي نشرته الجريدة في العدد الأول منها حديث واضح عن هذه الحقيقة التاريخية، فهي تقول: إن أعضاء (جمعية العروة الوثقى) «... طلبوا عدة صور لنشر أفكارهم... واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان (لغة) عندهم، وهو اللسان العربي، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس؛ ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية، تنبيهًا للغافل، وتذكيرًا للذاهل، فرغبوا إلى جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة، بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم، فلبى رغبتهم، بل نادى حقًّا واجبًا عليه لدينه ووطنه، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الأول (أي الأفغاني) على الإجابة، حمل الثاني (أي محمد عبده) على الامتثال »!.

فهي- إذن - جريدة قد صدرت بقرار من الجمعية؛ لتعبر عن « مشربها ومذهبها » أي فكرها وآرائها؛ لتكون أداة الوصل ووسيلة الدعوة والتثقيف للتنظيم خاصة، ولعامة المواطنين على وجه العموم..

وعندما سافر جمال الدين الأفغاني من الهند قاصدًا باريس (١٨٨٣م).. بعد عام من هزيمة الثورة العرابية، ونفي زعمائها،

وتفكك (الحزب الوطني الحر) في مصر، وإغلاق جميع الصحف التي عبرت عن فكر هذا الحزب وآرائه...

كان الأفغانيَ يسعى لتنفيذ قرار جديد لتنظيم جديد، بإصدار جريدة جديدة، هي جريدة (العروة الوثقى)... وأثناء عبور السفينة التي كانت تحمله لقناة السويس، توقفت في ميناء بورسعيد، فكتب جمال الدين رسالة إلى الشيخ محمد عبده - الذي كان يعيش في بيروت منفيًّا - يدعوه فيها إلى اللحاق به في باريس؛ للعمل على تنفيذ قرار إصدار الجريدة.

وكان تاريخ هذه الرسالة ٢٣ سبتمبر (١٨٨٣م).. وفيها أخبر جمال الدين الشيخ محمد عبده أنه سيذهب إلى لندن، قبل ذهابه إلى باريس، وأنه سيرسل إليه من لندن رسالة فيها تفاصيل المشروع..

ولقد وصل الأفغاني إلى باريس،ونزل ضيفًا على المستشرق الإنجليزي الحر « بلنت » (١٨٤٠ - ١٩٢٢م) الذي كان يناصر الثورة العرابية، ويدافع عن زعمائها، ويدعو حكومته للجلاء عن مصر...

وبدأ الأفغاني فتعلم اللغة الفرنسية، وأقام الصلات الودية الوثيقة مع الساسة والزعماء الأحرار المعادين للاستعمار، والذين يناهضون الاستعمار الإنجليزي على وجه الخصوص، وأقام الصلات كذلك مع عدد من مفكري باريس وفلاسفتها والمستشرقين الفرنسيين، وأقام الروابط الفكرية والسياسية

مع الشخصيات العربية والإسلامية والطلاب الشرقيين الذين يعيشون ويدرسون هناك.

وبعد أن لحق الشيخ محمد عبده بالأفغاني في باريس، بدأ التحضير لإصدار الجريدة.. وإن هي إلا أيام قليلة حتى صدر العدد الأول من (العروة الوثقى). صدرت أعظم جرائد الشرق وأهمها في ذلك التاريخ، من غرفة متواضعة جدًّا، على سطح أحد المنازل، في شارع « مارتل » بمدينة باريس! صدرت أسبوعية، كل يوم خميس، وكان تاريخ صدور عددها الأول الخميس ١٣ مارس (١٨٨٤م) ١٥ جمادى الأولى (١٣٠١هـ).. وكان الأفغاني هو مدير سياستها، ومحمد عبده هو المحرر الأول (أي رئيس التحرير).

وكانت (العروة الوثقى) تطبع في حجم المجلات الشهرية التي نراها ونألفها هذه الأيام (٢٥×٢٠ سم) على وجه التقريب.. وكان تقسيم غلافها وعباراته على هذا النحو:

<table>
<tr><td colspan="2">العُرْوَةُ الوُثْقَى
لا انفصام لها</td></tr>
<tr><td>* مدير السياسة: جمال الدين الحسيني الأفغاني.
* ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية.
قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات في السنة لمن تسمح بها نفسه.</td><td>* المحرر الأول: الشيخ محمد عبده.
* من شاء أن يبعث إلينا بتحارير أو رسائل في أي موضوع كان، رغبة نشره في الجريدة، أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان:
« 6 Rue martel a paris »</td></tr>
</table>

ومنذ البداية، وكما هو الحال في المجلات الملتزمة بمبدأ محدد وفكر معين وتنظيم فكري وسياسي، حددت (العروة الوثقى) ماذا تريد؟ فنشرت مقالًا عنوانه: (الجريدة ومنهجها) أوجزت فيه المهام الفكرية والسياسية التي صدرت كي تحملها إلى القراء.. وفى هذه المهام نجد:

- الدفاع عن حقوق الشرق والشرقيين عمومًا، وعن المسلمين على وجه الخصوص...

وعندما لاحظ البعض وهمس البعض الآخر بأن (العروة الوثقى) تكثر من الحديث عن الإسلام والمسلمين، دون غيرهم،

وتوهَّم عدد من الناس أن في ذلك شبهة طائفية وتفرقة وتمييزاً بين أبناء الشرق الذين يتدينون بديانات سماوية متعددة، عادت (العروة الوثقى) لتنفي هذه الشبهة، ولتؤكد على أنها جريدة سياسية لكل أبناء الشرق، تنطق بلسان تنظيم سياسي يسعى لتحرير كل أقطار الشرق، على اختلاف المذاهب وتعدد الشرائع وتمايز الديانات، وأوضحت أنها إذ ركزت على المسلمين فلأنهم هم أغلبية سكان البلاد التي تعرضت وتتعرض لهجمة الغزو الاستعماري... فقالت في هذا الموضوع:

« لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه- بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانًا، ومدافعتها عن حقوقهم - تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة، فليس هذا من شأننا، ولا مما نميل إليه، ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عمومًا، والمسلمين خصوصًا، من تطاول الأجانب عليهم، والإفساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب؛ لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون، وأذلوا أهلها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها. وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب إن شاء الله! ».

* ومحاربة اليأس... في وقت تسرب فيه اليأس إلى قلوب الكثيرين... فأهم الأوطان الشرقية قد سقطت في قبضة الاحتلال أو وقعت تحت نفوذ المحتلين.. وكثير من القيادات قد هادنت المستعمر، وبعضها قد خان القضية التي سبق وناضل في

سبيلها!... والعدو المستعمر يشن على الأمة حربًا فكرية تزعم أن العرب والمسلمين لم يسهموا بشيء جديد في التراث الإنساني في الماضي، وأنهم كانوا مجرد نقلة يحاكون اليونان والفرس والهنود؛ وذلك حتى يجردهم من الاعتزاز بمجدهم الماضي، فلا يطمحون إلى إعادة هذا المجد من جديد!... وهو يتبع هذه الحرب الفكرية - التي تحتل العقل وتجرده من سلاحه - بالحرب المادية التي تحتل الأرض وتجرد أهلها من السلاح ومن موارد الثروة والاقتصاد!... ثم هو يستخدم في ذلك نفرًا من أبناء الأمة خانوا أمانتها، وأصبحوا أدوات لأعدائها، ينشرون اليأس ويبشرون بالهزيمة والقنوط...

لكن (العروة الوثقى) لجأت إلى كل السبل، وإلى جميع الأسلحة في بعث الأمل في النفوس، باعتباره المقدمة الأولية والضرورية للحركة المناهضة للاستعمار... ووجدت في تعاليم الإسلام... وفي تاريخ العرب والمسلمين على عهد نهضتهم وفتوحاتهم... وكذلك في الطرق التي سلكها الأعداء حتى نهضوا من ضعف عصورهم المظلمة... وجدت (العروة الوثقى) في ذلك وأمثاله سبلًا وأدوات بعثت بواسطتها الأمل في نفوس الناس.

- وتنبيه الأمة إلى خصائصها الحضارية المتميزة...

فلقد أدرك القائمون على (العروة الوثقى) أن هدف الغزوة الاستعمارية الحديثة لا يقف عند احتلال الأرض، ونهب الثروات،

وإنما هو يريد أيضًا تغيير الهوية الحضارية المتميزة للعرب والمسلمين؛ لأن ذلك هو السبيل إلى احتوائهم حضاريًّا؛ وتحويلهم إلى ذيول للغرب المستعمر وهوامش لحضارته، ومن ثم ترسخ تبعيتهم له في الحضارة، كما هي في الاقتصاد، وفي ذلك الضمان الأكبر لعدم انبعاث مقاومة هذه الأمة لهذا المستعمر من جديد..

ولذلك فلقد كتبت (العروة الوثقى) وأفاضت في الحديث عن هذه القضية الهامة، ونبهت على أن لهذه الأمة خصائص حضارية متميزة، وأن الحرص عليها هو بمثابة الحرص على الحصون التي تتحصن بها الأمة في مواجهة الأعداء، وأن التقدم والتمدن والتحضُّر وتحصيل أسباب القوة وعوامل المنعة لا يستلزم التخلي عن الأصول والجذور والقسمات الصالحة التي تميزت بها حضارتنا في عصر نهضتها وازدهارها.. كما أن اكتساب علوم الآخرين وفنونهم، وحذق أسباب تقدمهم وتفوقهم لا يعني التبعية الحضارية أو الذوبان القومي... فمن قبل انفتح العرب والمسلمون على مختلف الحضارات والثقافات، وتأثروا كثيرًا، ولكن دون أن يفقدوا ذاتيتهم المميزة وشخصيتهم الخاصة، وأيضًا فلقد انفتح الأوروبيون - وهم في طريقهم للخروج من عصورهم المظلمة - على الحضارة العربية الإسلامية، وأخذوا منها الكثير، ولكن دون أن يصبحوا - حضاريًّا - عربًا أو مسلمين!...

- والتكافؤ في القوة هو معيار العلاقات الدولية...

ففي ساحة السياسة الدولية، وميدان العلاقات بين الدول،

لا وزن للفكر المجرد أو الوصايا الأخلاقية، وليس غير التكافؤ في القوة – سواء أكانت قوة ذاتية أم مكتسبة – سبيلًا للحفاظ على التوازن في العلاقات والروابط السياسية، وفي هذا المجال اتخذت (العروة الوثقى) أحداث السياسة الدولية نماذج تعلّم الشرقيين من خلالها موازين السياسة العالمية، ومعايير العلاقات بين الدول والحكومات؛ وذلك حتى يتجهوا إلى بعث قوتهم الذاتية الكامنة، ثم يضيفوا إليها ما يستطيعون من مصادر القوة المكتسبة، باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد لاتخاذهم مكانًا لائقًا في المجتمع الدولي الذي لا يحترم غير هذا المعايير!..

– وإلقاء الضوء على سبل الاستفادة من تناقضات الدول الأوربية...

فالدول الأوربية التي كانت تسعى لاستعمار الشرق كانت مصالحها المتعارضة ومطامعها المتناقضة وأنانياتها الذاتية توجد بينها العديد من التناقضات، فتكيد إحداها للأخرى، إلى الحد الذي قد يعين عليها الأحرار من أبناء البلاد التي تقع تحت نير احتلالها!... وكانت (العروة الوثقى) تكشف لشعوب الشرق ما بين هذه الدول من تناقضات... مثل ما بين إنجليز وفرنسا، وما بين روسيا القيصرية وإنجلترا... ثم تبصر العرب والمسلمين إلى أفضل السبل لاستثمار هذه التناقضات لحساب هدفهم في التحرر والاستقلال.

- والدعوة إلى الثورة...

فلم تقف (العروة الوثقى) عند حد « الإصلاح » كسبيل للتقدم والتحرر، بل دعت إلى « الثورة »، والثورة ضد المستعمرين بالذات، ووجهت دعوتها للثورة إلى جماهير الشعب، وفي مقدمتهم الفلاحون!... وفي مقال نشرته عن أوضاع مصر تحت الاحتلال الإنجليزي تحت عنوان (فرصة يجب أن لا تضيع) دعت إلى الحرب الشعبية وذكرت أن هذه الحرب أشد فعالية من الحرب النظامية؛ لأنها أطول، وفيها لا تسرع الهزيمة بانهزام الجيش النظامي، فقال: « إن مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة، تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهزامهم! »... ودعت الفلاحين المصريين إلى العصيان المدني وإلى الحرب الشعبية ضد الحكومة الإنجليزية، وقالت: إن ذلك هو الجهاد، وهو ليس « فتنة » كما زعم عملاء الاستعمار.. قالت: « ... إن على المصريين أن يقاتلوا لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب... وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة، فنحن ننادي على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه، وهي سنة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة... فعلى المصريين عمومًا، وعلى الفلاحين خصوصًا، أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة كل ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين: لا نطيع إلا حاكمًا وطنيًّا...

فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارًا، بل ومن الجنس الإنجليزي نفسه؟!...».

-والدعوة إلى وحدة الشعوب المناضلة ضد الاستعمار..

فأمام العدو الواحد - وهو الاستعمار - دعت (العروة الوثقى) شعوب الشرق كله إلى التضامن والاتحاد... ذلك أن اختلافاتها الدينية والقومية والإقليمية لم تمنع الاستعمار من أن ينظر إليها جميعًا كفريسة واحدة، شرع يلتهمها وفق خطة استعمارية واحدة!... ومن هنا كانت دعوة (العروة الوثقى) لاتحاد الأفغانيين مع الفرس، ودعوة الجميع للتنسيق مع الهنود، وتنبيه المسلمين - من مختلف الأقطار والقوميات - على أن رابطة العقيدة إنما تمثل قوة توحيدية في المعركة الواحدة ضد العدو الواحد، وهو الاستعمار!...

وهكذا حددت العروة الوثقى أهدافها، وأعلنت منهجها... وكانت هذه الأهداف وذلك المنهج، وما تجسدا فيه من مقالات نشرتها المجلة: الترجمة الأمنية لمبادئ التنظيم.. تنظيم (جمعية العروة الوثقى)...

ولكنها.. توقفت!

وأدرك الاستعمار الإنجليزي الخطر الكبير الذي تمثله جريدة (العروة الوثقى) على نفوذه في المستعمرات العربية والشرقية، وخاصة بمصر والهند، وأدرك أن حصار الجريدة هو السبيل لتوقفها، فهو لا يستطيع منع صدورها من باريس، ولكنه

يستطيع أن يفرض الحصار الشديد؛ كي لا تدخل البلاد التي يحتلها أو يمتد إليها نفوذه، فإذا أغلقت أبواب الشرق أمام (العروة) الجريدة، انعدمت أداة الوصل والتفاعل والتوجيه بين عقود (العروة) التنظيم!.

وهذا ما فعله الإنجليز؟!..

* لقد فرضوا الرقابة على أجهزة البريد؛ كي لا تحملها إلى القراء!...

* ورصدوا العيون والجواسيس من حول الذين اشتبهوا في قيامهم بتوصيلها أو حيازتها، فأرهبوهم وهددوهم!...

* ثم جعلوا مجلس الوزراء بمصر يسن تشريعًا، ويصدر قانونًا يعاقب بموجبه من يحوز عددًا من أعداد (العروة الوثقى) بدفع غرامة تتراوح ما بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيهًا؟!..

* أما في الهند فلقد أصدرت حكومتهم الاستعمارية قانونًا جعل حيازة عدد من (العروة الوثقى) « جريمة »، يعاقب حائزها بالحبس لمدة سنتين، وبغرامة مقدارها مائة جنيه؟!..

هكذا دخلت الإمبراطورية البريطانية الاستعمارية معركة حياة أو موت ضد جريدة (العروة الوثقى)!... ولقد أثمرت الحملة الإنجليزية، والحصار الذي فرض على المستعمرات كي يمنع تسرب أعداد الجريدة الثورية، أثمر الغاية التي أرادها الإنجليز، فلم تعد بالاستطاعة أن تصل إلى أيدي القراء، الأمر

الذي فرض عليها التوقف والاحتجاب بعد صدور العدد الثامن عشر - فقط - من أعدادها!..

ثمانية عشر عددًا فقط من (العروة الوثقى) هي التي صدرت... صدر عددها الأول في ١٣ مارس (١٨٨٤م)، ١٥ جمادي الأول (١٣٠١هـ)... وصدر عددها الثامن عشر - والأخير - في١٦ أكتوبر (١٨٨٤م)، ٢٦ ذي الحجة (١٣٠١هـ)...ومع ذلك فلقد صنعت هذه الأعداد الثمانية عشر الشيء الكثير في صراع العرب والشرق ضد الاستعمار!..

لقد كانت (جمعية العروة الوثقى): التنظيم السري، الفكري والسياسي، الذي نشأ وتكون تعبيرًا عن يقظة الشرق ضد الخطر الاستعماري الزاحف على أوطانه، ودليلًا على اتخاذ موقف الرفض والمقاومة ضد الخطر الاستعماري...

وكانت جريدة (العروة الوثقي) اللواء الفكري الذي رفعته المقاومة العربية والشرقية ضد الاستعمار، فالتف حوله المناضلون، كما كانت السلاح الذي أيقظ الغافلين لما يبيته الاستعمار لأوطانهم من مكائد وأخطار..

صحيح أن الاستعمار وأعوانه قد أفلحوا في أن يوقفوا الجريدة، ويصيبوا التنظيم بالجمود والتفكك.. ولكن التأثيرات التي صنعتها (العروة الوثقى) قد عاشت ونمت وامتدت في مختلف بلاد العرب والشرق، حتى تحولت إلى ثورات وانتفاضات، وصحف ومجلات، وأحزاب وجمعيات أَقَضَّتْ مضاجع الاستعمار، واقتلعت جذوره من المستعمرات بعد كفاح طويل ومرير...

لقد توقفت (العروة الوثقى) الجريدة.. ولكن مقالاتها ظلت تنسخ باليد، ويتناقلها الناس سرًّا، يطالعها أعداء الاستعمار ويتدارسونها على الأضواء الخافتة للمصابيح والشموع... وليس بين زعماء الوطن العربي والشرق الذين تصدوا للاستعمار منذ أواخر القرن التاسع عشر، وخلال النصف الأول من القرن العشرين من لم يقرأ مقالات (العروة الوثقى).. جميعهم طالعوا مقالاتها... وكثير من المجلات التي صدرت بعد ذلك قد أعادت - مرارًا وتكرارًا - نشر هذه المقالات، حتى لقد أصبحت بمثابة الدستور يدرسه المناضلون ضد الاستعمار، ويتخذون منه أداة لإيقاظ الحس الوطني والقومي عند الشعوب!..

وبعد سنوات من توقف (العروة الوثقى) الجريدة ضعفت وتفككت (العروة الوثقى) التنظيم... لكن روح هذا التنظيم وأفكاره وأهدافه ظلت حية، بل ومشتعلة في نفوس الذين ارتبطوا به ونالوا شرف عضويته، حتى لقد أصبح العديد من أعضاء هذا التنظيم قادة الثورات لشرق الوطنية، ومفجرين لطاقات شعوبهم الثورية ضد الغزاة المستعمرين... كما أصبحت تجربة هذا التنظيم الوطني الثوري النموذج الذي ظل ينبه الأمة دائمًا إلى أهمية « التنظيم » كسلاح لا غنى عنه في الصراع ضد الاستعمار...

ويكفي أن نشير إلى:

* أن سعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧م) - وهو واحد من أعضاء (العروة الوثقى) - هو الذي قاد ثورة الشعب المصري

في (١٩١٩م)... وأعلن في خطبه الثورية أثناء هذه الثورة أن جذورها إنما تعود إلى النشاط الذي نهض به جمال الدين الأفغاني ضد الاستعمار!..

* وأن الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ - ١٨٨٣م) - بطل المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي - كان مع عدد من أبنائه أعضاء في هذا التنظيم!..

* وأن الأديب والعالم اللبناني الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ - ١٩٠٩م) كان يتحدث عن تأثير (العروة الوثقى)، فيقول: « إنه ما كان أحد ليشك في أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابًا عظيمًا في العالم الإسلامي لو طال عليها الزمان! ».

* وأن الزعيم العراقي سليمان الكيلاني كان يقول - كلما طالع عددًا من أعداد (العروة الوثقى)-: « يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا..! ».

* وأن الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) قد تحدث عن مقالات (العروة الوثقى)، وكيف أنها كانت فتحًا جديدًا ليس له مثيل في عصره، ولا في القرون التي سبقت ذلك العصر، فقال: « لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا قرون قبله بعض ما كان (للعروة الوثقى) من إصابة من موقع الوجدان من القلب، والإقناع من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا؟! ».

* وحتى الإمام محمد عبده - وهو الذي كان رئيس تحريرها - فإنه كان يتأملها بعد أن توقفت، ويفكر في المستوى الذي بلغته،

والتأثير الذي أحدثته ولا زالت تحدثه، ثم يعجب بها ويتعجب منها - وهو أحد صناعها - ويقول: « إنني لا أستطيع الآن أن أكتب مثلها؟!...».

لقد توقف صدور جريدة (العروة الوثقى)... لكن تأثيرها لم يتوقف ..بل لقد ازداد.. فلقد عادت فصدرت، ولا تزال تصدر، في كل كلمة حق، وصحيفة صدق، ومجلة رأي تناضل لتجديد الفكر وإحياء روح الأمة ومقاومة الاستعمار...

ولقد توقف تنظيم (جمعية العروة الوثقى)... ولكن تأثيره لم يتوقف... بل لقد انتشر وتزايد... وذلك عندما أصبح العديد من أعضائه والمتأثرين بفكره قادة لأحزاب وجمعيات وحركات فكرية وسياسية تناضل ضد الاستعمار، وتعمل لنهضة الأمة وتقدمها، وتسير على درب (العروة الوثقى) وتواصل رسالة الرائد الخالد جمال الدين!...

***


قصة مدينتين
القاهرة - وبغداد



القاهرة:

عمرها الآن - بالتقويم الميلادي - ألف وثمانية وعشرون عامًا.. وبالتقويم الهجري: ألف وتسع وخمسون سنة!.. ولقد تعاقب على الحكم فيها، خلال عمرها مائتان واثنان وثلاثون حاكـمًا، ما بين خليفة وملك، وسلطان وخديو، ووال وغاز، وباشا، ورئيس جمهورية، و أمير !..

وعندما تحدث عنها المفكر العربي عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) قال: « إنها مدينة المدن، وحاضرة الدنيا، وتاج البرية جمعاء! »..

هذه هي (القاهرة) التي وضع أساسها القائد الفاطمي جوهر الصقلي (٣٨١هـ/ ٩٩٢م) في شهر شوال سنة (٣٥٨هـ) يوليو سنة (٩٦٩م).. بعد أن انتصر على جيش الخلافة العباسية، وأصبحت مصر جزءًا من الدولة الفاطمية، التي كانت قد تأسست بالمغرب قبل ذلك بأكثر من نصف قرن.

كان الفاطميون يدركون موقع مصر من الوطن العربي، وهو موقع الوسط والقلب، ويدركون إمكانياتها المادية والبشرية والحضارية، وهي إمكانيات جعلتها تتمرد على وضع الولاية التابعة لعاصمة الخلافة، وتستقل على يد أحمد بن طولون (٢٢٠-٢٧٠ هـ / ٨٣٥ – ٨٨٤ م). وكانوا يطمحون إلى مد حدود دولتهم إلى الشرق من مصر.. فقرروا أن تكون مصر قاعدة دولتهم، وأن تكون لهم فيها عاصمة ترمز إلى قوتهم الفتية القاهرة.. فكانت تلك العاصمة هي (القاهرة)!

ولأن الفاطميين كانوا يريدونها عاصمة مصر، تتجسد فيها طاقات مصر وإمكانياتها، لم يقيموها كما كان الغزاة والغرباء يقيمون عواصمهم في فترات الاحتلال. فعلى طول تاريخ مصر عرفت البلاد نوعين من العواصم:

الأول: تمثل في تلك العاصمة الوطنية التي أحبها الشعب، ومنحها ولاءه، في الهزائم والانتصارات، في السراء والضراء؛ لأنها كانت الرمز لحضارته ووطنيته وعقائده وصراعه ضد الغزاة منذ أن بناها الملك « مينا » سنة (٣٤٠٠ ق.م)، وسماها (منف)..

الثاني: تمثل في تلك العواصم التي أقامها الغزاة، بعيداً عن منف، وحاولوا أن يجعلوها صورة لحضارتهم الغريبة عن مصر، وأن يفرضوا منها على المصريين ما يناقض العقائد والعادات والتقاليد التي تميزهم عن هؤلاء الغزاة.. فالهكسوس – في القرن الثامن عشر قبل الميلاد– عندما غزوا مصر، أقاموا لهم عاصمة –

غير منف - في شرقي الدلتا، وسموها (أواريس)... والإسكندر الأكبر- والإغريق والبطالمة والرومان - قد اتخذوا (الإسكندرية) عاصمة لهم منذ تأسيسها سنة (٣٣٢ ق.م).. ورغم أن (منف) قد فقدت أهميتها في ظل (أواريس)، و(الإسكندرية) إلا أن ولاء الشعب ظل لعاصمته الوطنية.. وظلت عواصم الغزاة مدنًا « أجنبية » قد زرعت في محيط لا يبادلها الود، ولا يمنحها الولاء!..

أما الحكام الذين لم يدخلوا مصر غزاة ولا مستعمرين فإنهم قد ربطوا العواصم التي أقاموها بعاصمة مصر الوطنية، فأصبحت امتدادًا عضويًّا لها، يرمز إلى وحدة التاريخ، وأيضًا إلى تطوره واستمراريته !.. فـ(منف) كانت قد بنيت على الساحل الغربي للنيل، في المكان المواجه الآن لضاحية حلوان .. ثم امتد عمرانها إلى الجهة الشرقية للنيل، شمالي وجنوبي حصن بابليون...

فلما جاء القائد العربي عمرو بن العاص (٥٠ ق.هـ - ٤٣ هـ / ٥٧٤ - ٦٦٤م) ليقيم عاصمة جديدة، بعد أن حرر مصر من الاحتلال البيزنطي، وأدخلها في الدولة العربية الإسلامية، كانت مدينة (الفسطاط)- التي أقامها (سنة ٢١ هـ/ ٦٤١ م) - في شمال حصن بابليون، الذي يقع إلى الشمال الشرقي- عبر النيل- من منف، فكانت ضاحية للعاصمة المصرية الوطنية . . وفي (سنة ١٣٤هـ/ ٧٥١م) أقام الوالي العباسي على مصر مدينة (العسكر) فكانت هي الأخرى، إلى الشمال الشرقي من (الفسطاط)!. .

ثم جاء أحمد بن طولون فأقام (سنة ٢٥٨ هـ/ ٨٧٠ م) مدينة (القطائع)، وجعلها إلى الشمال الشرقي من (العسكر)!.

وأخيرًا جاء جوهر الصقلي ليبني (القاهرة) في نفس المكان، أي إلى الشمال الشرقي من (العسكر)... فلما جاء صلاح الدين الأيوبي فأقام - مع القلعة - سور القاهرة (٥٧١ - ٥٧٣ هـ/ ١١٧٦ - ١١٧٧ م) وجدنا هذا السور يضم كل عواصم مصر العربية الإسلامية، وبمعنى أدق كل الضواحي التي قامت للعاصمة الوطنية بعد الإسلام.. فلما نما العمران واتسعت المدينة، أصبحت قاهرة اليوم هي (القاهرة الكبرى) التي تضم الجيزة، على البر الغربي للنيل .. أي أن عاصمة مصر العربية اليوم (القاهرة) هي عاصمة مصر منذ أقدم عصور التاريخ، منذ بناء (منف) سنة (٣٤٠٠ ق.م) فعمرها الحقيقي أكثر من خمسة آلاف عام؟! وعمر القاهرة هو حلقة من حلقات ذلك التاريخ الطويل والعريق..

ولقد كانت القاهرة كمصر، بل كانت التجسيد والرمز لمصر.. عرفت النصر والهزيمة، وعاشت السراء والضراء، وحكمها الأبطال، ولم تخل حياتها من الأقزام!.. لكن صفحات مجدها وانتصاراتها كانت كثيرة وساطعة الضياء، ومقاومة شعبها كانت دائمة - حتى وإن هدأت أو استترت - للذين صنعوا الهزائم أو جلبوا على شعبها البؤس والشقاء . .

فكُتُب الأدب والتاريخ زاخرة بالحديث عن التقدم والعمران

والرفاهية التي عاشتها القاهرة قرونًا طويلة، وإن تكن متقطعة، حتى لقد اشتهرت بـ (الكنانة): كنانة الله في أرضه!.. وبـ (المحروسة)!.

لله قــاهـرة المـعـز فـإنـهـا
بلد تخصص في المسرة والهنـا
أو ما ترى في كل مصر مُنْيَـةً
من جانبيها، فهي مجتمع المنى!

وكثيرون من المؤرخين والرحالة قد كتبوا عن مشاهدتهم لعمران القاهرة وغناها ورفاهيتها وتقدمها . . ومن بين هؤلاء الرحالة الفارسي ناصري خسرو (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) .. فلقد زار مصر، وعاش فيها ثلاث سنوات (٤٣٩ - ٤٤٢هـ/ ١٠٤٧- ١٠٥٠م)، ووصف عمرانها وازدهار حضارتها وصفًا فيه الكثير من الأعاجيب .. فسكانها يبلغ عددهم نصف مليون..ومنازلهم جميلة الشكل، منسقة، بل ومرتفعة تتكون من أدوار بعضها فوق بعض، حتى ليقول ناصري خسرو: إنه وجد فيها منازل تتكون من أربعة عشر طابقًا؟!.. ومن هذه المنازل ما كان عدد سكانه يبلغ مائتي ساكن؟!..ولقد كانت الدولة (الخليفة) تملك في القاهرة ثمانية آلاف مسكن، يستأجرها الناس!..

أما حوانيت القاهرة فلقد بلغت - في الكثرة والغنى والاتساع - إلى الحد الذي جعل منها حاضرة التجارة والمال..

فالدولة (الخليفة) كانت تملك فيها عشرين ألف حانوت، يستأجرها التجار، وإيجار الواحد منها قد يبلغ في الشهر عشرة دنانير!.. ولقد بلغ الأمن والأمان فيها إلى الحد الذي كان معه التجار والصيارفة والصاغة يسدلون الستائر على أبواب حوانيتهم، ثم يذهبون لقضاء شئونهم أو أداء الصلاة، دون خشية أو خوف على التجارات والأموال! ..

ولقد أحاطتها - وخاصة من ناحية النيل - الحدائق والمتنزهات وبنيت « المناظر » والقصور على شواطئ بحيرات تدلت في مياهها الأغصان، وصدحت على أفنانها أعذب الأصوات لأجمل الطيور!.. بل لقد جعل الخلفاء من أسطح بعض القصور حدائق، بما زرعوه على هذه الأسطح من زهور وأشجار، حتى بدت هذه القصور للرائي كأنها الحديقة؛ لخضرة أسطحها.. وكأنها المدينة لاتساعها!.. وكأنها الجبال لعلوها ..

وسبقت القاهرة مدن الدنيا في معرفة « الأنفاق »!.. فالمصريون القدماء قد أقاموها في المقابر والأهرامات.. والخلفاء الفاطميون كانوا يخرجون من قصورهم راكبين الخيل، إلى المناظر والمتنزهات، عبر الأنفاق التي أقاموها تحت الأرض !..

وعرفت القاهرة إضاءة الشوارع ليلًا .. حتى لقد أتى عليها عصر كانت الحركة تستمر فيها طوال الليل، ثم تغلق متاجرها بالنهار!.. واستمر ذلك حتى عصر الحاكم بأمر الله . . وكانت مياه النيل تنتقل- للشرب والطعام والنظافة والاستحمام - من

النهر إلى البيوت والحمامات بنظام دقيق وبديع . . فإلى الشوارع الضيقة والحارات يحمل الرجال الماء.. أما الشوارع الواسعة فيحمل الماء إليها أسطول يبلغ تعداده ٥٢٠٠٠ جمل!.. فلما أنشئت قلعة الجبل، حفرت - في الصخر - بئر يوسف العجيبة، وأقيمت قناطر العيون ومجاريها؛ كي تجري عليها المياه التي ترفعها الروافع.. فكانت - ولا زالت - شاهدًا على ما بلغته القاهرة في الرفاهية والعمران منذ تاريخ بعيد!. .

وفي الصناعة تقدمت القاهرة على كثير من المدن التي عاصرتها.. فنسجت أرقى الأنسجة، ومنها ذلك الذي كان يصنع في « الفسطاط »، والذي شغف به الأوربيون، وسموه « الفستياني » نسبة إلى « الفسطاط »!.. وصنعت الخزف الذي بلغ في الشفافية حدًّا نافس فيه الزجاج !.. وقامت بها « دار صناعة » السفن، حربية ومدنية.. وقال ناصري خسرو إنه رأي فيها سفنًا يبلغ طول الواحدة منها ٢٧٥ قدمًا وعرضها ١١٠ قدم!.. و« دار الصناعة » هذه هي التي قلدها الأوربيون، بل وأخذوا اسمها، بعد تحويره، فسموها « الترسانة » (**ARENAL**).

أما المساجد والجوامع والخوانق .. والتكايا .. والمدارس .. والخانات .. والوكائل .. والأسواق .. والمناظر .. والقصور .. والقناطر . . والحمامات.. والفوارات (النافورات) فلقد كانت - في العدد والروعة - مضرب الأمثال . . بل لقد أصبحت أضرحة الموتى ومشاهد الأولياء ومزارات الصالحين تحفًا فنية، حتى لقد تحدث الرحالة العربي ابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤هـ /

١١٤٥ - ١٢١٣م) عن « قرافة » القاهرة فقال: « إنها إحدى عجائب الدنيا »..

ولم تكن مشاهد القاهرة هذه حكرًا على فئة أو طبقة.. فلقد كان الجميع - بنسب متفاوتة - يستمتعون بها في المناسبات، وكانت مناسبات الاستمتاع عند أهل القاهرة كثيرة كثيرة..

فأعياد هذه المدينة بلغت - خصوصًا في العصر الفاطمي- ثلاثين عيدًا على مدار العام.. مهنا الإسلامي، والمسيحي.. ومنها الديني والقومي.. إلخ ..إلخ.. وزاد من فرص الاستمتاع هذه ما كان يفيضه الخلفاء على العامة من عطاء..عطاء دولة عجز الرحالة ناصري خسرو عن تقدير حجم ثروتها وثرائها، فكتب يقول: « إنني لم أستطع حصر ثروتها ولا قدرها، ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر! »..

وفي مجالات الفكر والعلوم أصبحت (القاهرة) منارة ومعقلًا وطليعة أيضًا، ففيها نشأ وعاش وكتب وأبدع الكثيرون من الأدباء والشعراء والرسامين والفقهاء والفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام.. وفيها قامت للفكر والعلم أرسخ المؤسسات وأعرقها وأشهرها في دنيا العروبة وعالم الإسلام ..

* فجامع عمرو بن العاص.. أول مسجد وضع للناس في إفريقيا، ظلت ساحته مصدر إشعاع لدروس الفقه والقرآن والحديث والسيرة والقصص والتاريخ، حتى لقد أحصى أحد المؤرخين حلقات الدرس فيه وقت العشاء فوجدها مائة وعشرًا!..

* والجامع الأزهر، الذي انتسب إلى فاطمة الزهراء - بنت الرسول علية الصلاة والسلام - أسسه جوهر الصقلي في ٢٢ جمادى الأولى سنة (٣٥٩هـ)، ٣ أبريل سنة (٩٧٠ م) ..ثم افتتح للصلاة في ٩ رمضان سنة (٣٦١هـ)، ٢٤ يونيو سنة (٩٧٢ م)..

وبعد قليل تحول من مجرد جامع للصلاة والعبادة إلى مركز للعلم، تلقى فيه الدروس، بدأ ذلك في صفر سنة (٣٦٥ هـ) أكتوبر سنة (٩٧٥ م) في بداية عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٤٤ - ٣٨٦هـ/ ٩٥٥ - ٩٩٦م).. ثم ما لبث أن ارتقت نظم العلم والدراسة فيه، وتطورت من دروس فقه وفلسفة يلقيها الفقهاء والقضاة والمتكلمون إلى ما يشبه الجامعة العلمية، التي تدرس فيها علوم الدين والدنيا، من علوم القرآن والحديث والكلام والفلسفة والفقه..إلخ.. إلى علوم الهندسة والطب والحساب والفلك والموسيقى..إلخ.. ورصدت له الأموال التي تأتيه من الأوقاف..وأصبح - كما يقول المؤرخون - بحق: « قبلة للعلماء والطلاب، دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الطبقة؟! ».

* وغير الأزهر.. شهدت القاهرة ذلك المجمع العلمي والفكري الذي أنشأه الخليفة الفاطمي الفيلسوف: الحاكم بأمر الله (٣٧٥ - ٤١١هـ / ٩٨٥ - ١٠٢١ م)، والذي سماه (دار الحكمة) أنشأها في جمادى الآخرة سنة (٣٩٥ هـ)، مارس سنة (١٠٠٥م)، ولقد ضمت (دار الحكمة) هذه أقسامًا يشرف عليها كبار علماء العصر، ويدرس فيها الطلاب علوم

الدين والدنيا: القرآن وعلومه.. والحديث وعلومه.. والتاريخ ونقده.. والأدب وفنونه.. واللغة وعلومها.. والفلك، والطب، والهندسة، والرياضة، وشكل الأرض، وجغرافية البلدان.

ورغم أن مذهب الحكام كان المذهب الشيعي، فلقد كانت مذاهب الإسلام السنية تدرس في (دار الحكمة)، وكانت تعقد فيها - وبحضور الخليفة - المناظرات بين الفقهاء والعلماء والمتكلمين.. وفي (دار الحكمة) أنشئ قسم خاص للنساء يتعلمن فيه!.. وضمت مكتبة غنية فتحت أبوابها للجمهور، وكان فيها - إلى جانب الكتب الكثيرة - جميع ما يتطلبه الاطلاع والبحث من أدوات: أوراق، وأقلام، ومحابر، وأحبار، والمشرفون على المكتبة يقدمون كل ذلك لروادها بالمجان!..

وغير مكتبة دار الحكمة.. كان للقاهرة مكتبتها العامة التي فاقت - في الضخامة والغنى - خيال المؤرخين..حتى ليقول عنها المؤرخ أبو شامة (٥٩٩ - ٦٦٥ هـ/ ١٢٠٢ - ١٢٦٧ م)- وهو الذي رآها بعد أن نهبت أكثر من مرة -:

« إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة! »..

وبالطبع، فلم تكن المطبعة قد اخترعت بعد.. ولكن دار الكتب هذه قد أنشأت قسمًا خاصًّا لنسخ الكتب وتجليدها وزخرفتها .. وكان قسم النسخ هذا يحرص على أن تضم المكتبة نسخًا من الكتب بخط مؤلفيها، زيادة في الثقة، ومبالغة في

التوثيق.. كما حرص القائمون بالنسخ على توفير عدد كبير من نسخ كل كتاب، تيسيرًا لاطلاع أكثر من باحث وقارئ على الكتاب الواحد في الوقت الواحد . . حتى لقد نافسوا المطبعة - قبل وجودها - في بعض الأحيان! . . ويكفي أن نعلم أن هذه المكتبة قد ضمت كتبًا منها ما بلغ عدد أجزائه ستين مجلدًا؟!.. وكان عدد نسخ (كتاب العين) للخليل بن أحمد فيها ثلاثين نسخة؟!.. وعدد نسخ كتاب (الجمهرة) لابن دريد مائة نسخة؟!.. أما تاريخ الطبري- بأجزائه الكثيرة - فلقد بلغ عدد نسخه في مكتبة القاهرة ألفًا ومائتي نسخة؟!!.

وكانت لهذه الكتب خزائن (دواليب) تحفظ فيها.. ورفوف توضع عليها.. وكانت لها فهارس تيسر الاستفادة منها على القراء والباحثين.. ومن الأوقاف التي خصصت لهذه المكتبة كان يأتيها المال الذي يكفي كل وجوه الإنفاق ..

هكذا.. ضمت القاهرة الغنى الفكري إلى الغنى المادي، وجمعت إلى غذاء الجسم غذاء الروح ..

لكن تاريخ القاهرة وأيامها لم تكن كلها على ما يرام!..

بل لعل من أسباب إعجابنا الشديد بوجهها المشرق وعمرانها الباذج: فجيعتنا حينما نقرأ صفحات البؤس والفاقة التي مرت بها، والتي عانى منها أهلها، في جزع حينًا، وصبر في أغلب الأحايين!..

فمجتمع ذلك التاريخ كان مجتمعًا طبقيًّا، تتفاوت فيه حظوظ

الناس وأنصبتهم من الثروة والرفاهية والمال.. وتتفاوت كذلك حظوظهم من تحمل المصاعب والمشاق التي تأتي بها الحياة والأيام . . والمؤرخ المقريزي (٧٦٥ – ٨٤٥ هـ / ١٣٦٤ – ١٤٤١م) يكتب لنا عن طبقات المجتمع، فيقول إنها سبع طبقات، فالسماوات سبع.. والأرض سبع.. وكذلك الطبقات!.. بل وإن بين هذه الطبقات وبعضها من الفروق والمسافات مثل ما بين السماوات والأرض؟! فهناك :

(١) الحكام والولاة، ورجال الدولة، وكبار الموظفين.. ويسميهم المقريزي « أهل الدولة »!..

(٢) وكبار الأغنياء.. ويسميهم المقريزي « أهل اليسار والغنى، من التجار والملاك أولي النعمة من أهل الرفاهية »!..

(٣) ومتوسطو الثراء.. المشتغلون بالأعمال التجارية المتوسطة، والحرفيون الذين يملكون أدوات إنتاج صناعاتهم الحرفية.

(٤) والفلاحون (سكان الريف) الذين يفلحون الأرض لحساب « الملتزمين » (الإقطاعيين).

(٥) والصناع (العمال) من أصحاب المهن، الذين لا يملكون أدوات إنتاجهم، فيبيعون قوة عملهم للآخرين ..

(٦) والفقراء الذين لديهم من الدخل أقل مما يلزمهم من المصروفات ..

(٧) والمعدمون.. ذوو الحاجة والمسكنة!..

وفي مجتمع طبقي كهذا، كان طبيعيًّا أن تستأثر القلة بالكثرة!. فالضرائب والمكوس كثيرة.. والحروب كثيرة.. والمجاعات والأوبئة - بسبب نقصان ماء النيل- كثيرة أيضًا!.. وفي كل هذه المحن يتحمل الفقراء والعمال والفلاحون والمعدمون كل الأهوال.. أما الأغنياء فإنهم يستفيدون منها، ويزدادون ثراء على ثراء!.. وكما يقول المقريزي فإن الصنف الأول والثاني - أي طبقة الحكام وكبار الأغنياء - « يستفيدون من المحن والشدائد ».. أما الطبقة المتوسطة فإنها تنفق مما عندها، لا تحتاج ولا تزيد ثروتها.. أما الطبقات الأربع الأخرى: الفلاحون، والعمال، والفقراء، والمعدمون، فإن المقريزي يعبر عن حالهم في المحن والشدائد التي مرت بالقاهرة، فيقول إنهم « ما بين فان، وميت، ومشتهي للموت في مثل تلك الظروف!.. ».

ولقد كتب المقريزي كتابًا عن تاريخ المجاعات التي مرت بالقاهرة - ويسميها: الشدائد - وحدثنا كيف اضطربت الأسعار على عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) فبعد أن كان سعر الخبز: عشرة أرطال بدرهم، أصبح سعر الرغيف - الرغيف الواحد - خمسة عشر دينارًا، أي: مائة و ثمانين درهمًا؟!.. وكيف نفدت الحبوب، ونفدت الماشية، فأكل الناس الخيل والبغال والحمير.. والكلاب.. ثم أكلوا جثث الأموات.. وكيف هجم الجياع على بغلة الوزير فذبحوها وأكلوها، فلما شنق جماعة منهم أكلت جماعة أخرى جثث المشنوقين؟!.. وكيف هجم الناس على قصر الخليفة

فأكلوا ما فيه.. حتى أصبح الخليفة مسكينًا ليس لديه سوى حصير يجلس عليه، وتأتيه « جراية » طعام تتصدق عليه بها ابنة أحد العلماء!.. ولم ينقذ المدينة من الفوضى إلا استدعاء الجيش الذي كان يقوده بدر الجمالي (٤٠٥ - ٤٨٧هـ / ١٠١٤-١٠٩٤م) فأعاد الأمن، وهدد التجار والمحتكرين، ففتحوا مخازن الغلال التي كدسوها!.. وفي مقابل ذلك خضعت الخلافة لحكم العسكر، فذبلت مؤسسات الفكر وثمار العقل، وأصبحت الغلبة للجند والقوة في البلاد!..

وكانت أوربا الاستعمارية قد جمعت جموعها - تحت ستار الدين - لتعيد السيطرة الاستعمارية على الوطن العربي، فجاءت الحملات الصليبية لتعيد حلم المستعمرين الأوربيين في امتلاك الشرق، ذلك الحلم الذي بدأ الإسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م) تحقيقه منذ ما قبل الميلاد!.. وكانت عينهم على الأرض المقدسة فلسطين.. ولكنهم أدركوا أن مصر القوية هي جسر لمدد عربي سيأتي ضدهم من المغرب العربي، وهي قلب وقاعدة للحرب ضد الكيانات الاستيطانية التي أقاموها في فلسطين، فاتفق رأيهم على أن الطريق لبقائهم في القدس وفلسطين يمر عبر مصر والقاهرة! . . وبعبارة المؤرخ العربي ابن واصل (٦٠٤- ٦٩٧هـ / ١٢٠٨- ١٢٩٨م) - وهو الذي عاصر تلك الأحداث - فإن لويس التاسع قد توجه بحملته الصليبية إلى مصر؛ لأن « نفسه حدثته أن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج.. وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية!..».

وعلى نفس درب الصليبيين، ولتحقيق نفس الحلم وذات الأهداف.. جاء الفرنسيون بقيادة بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) سنة (١٧٩٨م)، وجاء الإنجليز بقيادة فريزر سنة (١٨٠٧م) .. وبقيادة ولسن (١٨٨٢م)..

لكن القاهرة سهرت - وخاصة منذ الدولة الأيوبية - على تدبير الأمور وتوفير الظروف التي تبدد أحلام الصليبيين، وتعيد لفلسطين عروبتها.. فكانت فتوحات صلاح الدين التي بدأت (سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م) طريقًا سارت عليه القاهرة، حتى استطاع السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣م) أن ينهي الوجود الصليبي بتحرير عكا سنة (١٢٩١م).. وسهرت كثيرًا وطويلًا؛ لمقاومة كل موجات الغزو، ومختلف جنسيات الغزاة..

وكما صمدت أمام الغزو وقاومته.. فلقد صمدت أمام المظالم الاجتماعية، وقاومت الظالمين.. لأن أهلها كانوا دائمًا يحلمون بأن تكون صفحات تاريخ مدينتهم كلها زاهية، وبأن يكون واقع حياة سكانها خاليًا من الاستعمار والقهر والاستغلال..

* ولقد استخدم أهل القاهرة وسيلة « المنشورات » فعبروا بواسطتها عن رفضهم الظلم ومقاومتهم للظالمين.. كما استخدموا المواكب والهتاف في المظاهرات.. فلقد كان الفاطميون شيعة، يغضبهم الثناء على بني أمية، وخاصة معاوية بن أبي سفيان . . فكانت المظاهرات في القاهرة تهتف: « معاوية خال المؤمنين،

وخال علي! » - إشارة إلى أنه أخو صفية زوج الرسول ﷺ، وهي من أمهات المؤمنين؟!..

* وعندما زعم الخليفة الفاطمي العزيز بالله أنه يعلم الغيب! صاغوا مقاومتهم واعتراضهم شعرًا كتبوه في منشورات وزعوها، ووضعوا واحدًا منها على المنبر، فلما صعد العزيز ليخطب قرأ في المنشور:

بالظلم والجور قد رضينا
وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أُعطيت علم غيب
فقل لنا كاتب البطاقة؟!

فهم يعارضونه .. ويتحدونه أن يعلم كاتب المنشور ..!

* بل لقد استخدم أهل القاهرة ألوانًا أخرى من « الفن » و « الأدب » للتعبير عن ضجرهم من الظلم، ولتحدي الحاكمين!.. فعندما منعهم الإرهاب من التعرض للحكام بالشكايات، صنعوا التماثيل التي حاكت صور الأحياء، وألبسوها الملابس، وجعلوا أيديها تمتد بالشكايات، معترضة مواكب الطغاة؟!.. بل وكتبوا شكاياتهم تلك في « شكل قصص »؟!..

والمؤرخ ابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ/ ١٣٠٢ - ١٣٧٣ م) يتحدث في كتابه (البداية والنهاية) عن هذا الأسلوب من أساليب المقاومة عند أهل القاهرة، فيقول: « إنهم كانوا يكتبون ظلاماتهم للحاكم بأمر الله، ولأسلافه، في صورة قصص .. حتى

لقد عملوا صورة امرأة من ورق، بخفيها وإزارها، وفي يدها قصة بها من الشتم واللعن والمخالفة شيء كثير. فلما رآها الحاكم ظنها امرأة، فذهب ناحيتها، وأخذ القصة من يدها فقرأها، ورأى ما فيها، فأغضبه ذلك جدًّا، فأمر بقتل المرأة، فلما تحقق أنها من ورق ازداد غيظًا إلى غيظه؟!..»

* وكذلك استخدموا - في الاحتجاج على ظلم المماليك والعثمانيين - سلاح الإضراب، فأضرب التجار عن فتح الحوانيت، والحرفيون عن العمل، وطلبة الأزهر عن تلقي الدروس.. بل لقد أضربوا - أحيانًا - عن الأذان والصلاة، وأغلقوا أبواب المساجد، واستخدموا مآذنها في الصياح والاحتجاج والدعاء على الظلمة بالهلاك والفناء! .. وذلك حتى يستفزوا مشاعر العامة إلى خطر الظالم وجور الظالمين !!.

وعندما عجز « النقد » للوالي التركي عن ردعه وردع جنوده الذين احترفوا السلب والنهب والاغتصاب.. اجتمع شيوخ القاهرة وعلماؤها وقادة تجارها وأهل الرأي فيها في دار القضاء (بيت القاضي) في ١٢ مايو سنة (١٨٠٥ م)، فصاغوا مطالبهم في أول وثيقة سياسية للحقوق عرفها الشرق العربي في العصر الحديث.. وفيها طلبوا:

(١) ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان..

(٢) وأن تجلو الجنود عن القاهرة، وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة..

(٣) وألا يسمح بدخول أي جندي إلى المدينة حاملًا سلاحه..

(٤) وأن تعاد المواصلات في الحال بين القاهرة والوجه القبلي ..

ولما رفض الوالي خورشيد باشا مطالب الشعب هذه، اجتمع هؤلاء القادة في اليوم التالي وأعلنوا ثورتهم « السياسية - الدستورية »، فقرروا - للمرة الأولى - عزل الوالي، واختاروا محمد علي باشا واليًا على البلاد.. اختاروه بإرادتهم هم، ودعوا السلطان العثماني إلى إقرار هذا الاختيار الشعبي.. فانعزل الوالي، واستجاب السلطان لإرادة زعماء القاهرة، بعد أن كان قد أصدر « فرمانه » بنقل محمد علي واليًا على جدة.. وفي هذه الوثيقة - التي أرَّخت لتولي الشعب اختيار حاكمه في عصرنا الحديث - كتب الشيخ محمد المهدي (١٢٣٠ هـ/ ١٨١٥ م): « إن للشعوب - طبقًا لما جرى به العرف قديمًا، ولما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية - الحق في أن يقيموا الولاة، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم؛ لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة! »..

* وكما عرفت القاهرة التمردات والانتفاضات والثورات ضد مظالم حكامها وفساد النظم الاجتماعية الجائرة التي فرضها ورعاها هؤلاء الحكام.. كذلك عرفت التعبئة والاستبسال والتضحية ضد موجات الغزو والاستعمار..

(١) فلمواجهة الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع،

أعلن في القاهرة « النفير العام » (التعبئة العامة)، فقدم الناس الأموال، بل وخرجوا قاطبة، في زحف تزلزلت له الأرض - كما يقول المؤرخون - وأسرعوا إلى المنصورة لقتال الغزاة.. وفي هذا الزحف خرج مع المقاتلين: الأمراء والعلماء والقضاة والصوفية والأشراف.. إلخ .. إلخ..

(٢) ونابليون - الذي دوخ أوربا وأخضعها - حكمت القاهرة على غزوته لمصر سنة (١٧٩٨م) بالفشل عندما ثارت ضده ثورتها الأولى في ٢٠ أكتوبر سنة (١٧٩٨ م)، ١٠ جمادى الأولى سنة (١٢١٣ هـ).. وفي هذه الثورة كانت المساجد والجوامع - وخاصة الأزهر، والسلطان حسن - وكذلك الأحياء الشعبية مراكز للمقاومة، وأهدافًا دكتها المدافع الفرنسية التي نصبت على التلال والجبال!..

ثم كانت ثورة القاهرة الثانية في ٢٠ مارس سنة (١٨٠٠م)، ٢٣ شوال سنة (١٢١٤هـ) بمثابة التأكيد على فشل المشروع الفرنسي لاحتلال البلاد . .

(٣) وعندما جاءت حملة فريزر، الإنجليزية، سنة (١٨٠٧م) لتحقق لحساب الإنجليز ما فشلت فرنسا في تحقيقه، ونزلت هذه الحملة في الإسكندرية، ثم اتجهت إلى رشيد.. اجتمع زعماء القاهرة، في شكل « جبهة وطنية » سماها المؤرخ الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ/ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) (جمعية بيت القاضي)، وقرروا دعم مقاومة رشيد « والاستعداد لحرب الإنجليز وقتالهم وطردهم » وقيام وحدة بين الشعب والحكومة « ويجب أن يكون

الناس والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد.. وأن يساعدوا بعضهم بعضًا على دفع العدو! »، وقرروا كذلك تحصين القاهرة، استعدادًا لملاقاة الغزاة، ونهض بتلك المهام الوطنية أبناء القاهرة جميعًا، علي اختلاف المذاهب والأديان: المسلمون، والأقباط « نصارى ديوان المكس، والنصارى الأروام، والشوام!..».. وحمل الناس السلاح الذي وزع عليهم، وطلب الشيخ عمر مكرم (١١٦٨ - ١٢٣٧ هـ/ ١٧٥٥- ١٨٢٢م) نقيب الأشراف، من طلبة الأزهر ترك الدروس وحمل السلاح!..

(٤) وكما عرفت مصر بناء الجيش الوطني، بعد أن حررتها الدولة العصرية الحديثة من سلطة المماليك العثمانيين .. شهدت القاهرة أولى الثورات الوطنية التي أنابت الأمة فيها جيشها الوطني كي يتقدم صفوف الثوار . . فقاد أحمد عرابي (١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ/ ١٨٤١ - ١٩١١ م) الجيش المصري في المظاهرة التي أحاطت بقصر عابدين في ٩ سبتمبر سنة (١٨٨١ م)، والتي أجبرت الخديو توفيق (١٢٦٢ - ١٣٠٩ هـ/ ١٨٥٢ - ١٨٩٣ م) على تمكين الثورة من تحقيق مطالبها:

أ - الوقوف في وجه النفوذ الأجنبي الاستعماري.

ب- والديمقراطية النيابية والدستور . .

جـ- وصبغ الإدارة بالصبغة الوطنية، حتى تكون « مصر للمصريين »!..

(٥) وفي مارس سنة (١٩١٩م)، جمادى الثاني سنة (١٣٣٧ هـ)

شهدت القاهرة بدء الثورة الوطنية ضد الاستعمار الإنجليزي.. وهي الثورة التي وحدت صفوف الأمة خلف سعد زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ/ ١٨٥٧ - ١٩٢٧م)، وأحدث مدًّا وطنيًّا ضد الاستعمار على امتداد الوطن العربي، وكانت نموذجًا تعلم منه زعماء الوطنية في آسيا وإفريقيا الكثير من الدروس.

(٦) وأخيرًا ..شهدت القاهرة ليلة ٢٣ يوليو سنة (١٩٥٢م)، أول ذي القعدة سنة (١٣٧١هـ) بداية أحداث ثورة يوليو.. تلك الثورة التي فتحت صفحة جديدة في نضال مصر والعرب ضد الاستعمار والصهيونية، وانتقلت بالأمة العربية ونضالها إلى طور جديد..

فكم في صفحة تاريخ القاهرة من عبر ودروس!.. وكم في هذه الصفحة من مباهج وآلام.. وكم لشعب هذه المدينة الصامدة من مواقف وتضحيات.. فلا الأيام الحلوة تنسيه المخاطر المحتملة ولا الشدائد والمحن تفقده الأمل في تحقيق الانتصارات؟!.

بغداد:

عمرها الآن، بالتقويم الهجري: ألف ومائتان واثنان وسبعون عامًا (١٢٧٢) وبالميلادي: ألف ومائتان وخمس وثلاثون سنة (١٢٣٥)!.. وفي هذا العمر المديد تعاقب على حكمها مائة وسبعون حاكما، ما بين خليفة، ووال، وباشا، وأمير، وصاحب شحنة؟!، ومملوك، وديكتاتور، وملك، وثائر!.. أما أسماؤها التي اشتهرت بها أو عرفت في هذه القرون، فهي - غير بغداد -:

مدينة المنصور.. ومدينة الخلفاء.. والمدينة المدورة.. والزوراء.. ومدينة السلام !..

هي « مدينة المنصور »؛ لأن بانيها هو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ - ٧٧٥ م) ثاني خلفاء الدولة العباسية .. وهي « مدينة الخلفاء »؛ لأنها كانت مقر حكم خلفاء الدولة العباسية.. والمنارة التي شعت منها على العالم الحضارة التي ازدهرت في عصر هؤلاء الخلفاء، فهي ثمرة لقيام الدولة العباسية، وعاصمة لها، وميدان الإبداع الفكري والحضاري الذي اقترن بحكم العباسيين لبلاد العرب وعالم الإسلام.

ومع كل ذلك، فلم تكن بغداد هي أولى عواصم العباسيين، وإن كانت قد أسدلت الستار الكثيف على ما تقدمها من عواصمهم .. فعقب نجاح الثورة العباسية ضد بني أمية اتخذ العباسيون « الكوفة » عاصمة لهم.. ثم انتقلوا إلى « الأنبار ».. ثم بنوا « الهاشمية »، وجعلوها لهم عاصمة.. لكنها كانت عواصم مؤقتة، ناسبت دولة في مرحلة التأسيس .. فلما استقرت السلطة لبني العباس، ودخل المجتمع العربي الإسلامي - تحت حكمهم - في مرحلة جديدة، استهدف فيها تحقيق طموح حضاري عظيم، وقفزة كبرى في مختلف فروع التقدم وميادينه، وضحت الحاجة إلى عاصمة جديدة، تتسع لما في النوايا والأفكار والعزائم والخيالات!..

ولقد خرج الخليفة المنصور - بنفسه - ومعه الأعوان يستكشفون الموقع المختار للعاصمة الجديدة، وانتهت بهم رحلة الاستكشاف إلى موضع به قرية صغيرة، وبالقرب منها دير للرهبان.. وسأل المنصور كاهن الدير ورهبانه عن مناخ المنطقة وتقلبات الطبيعة فيها: الحر، والبرد، والأمطار.. وعما بها من الحشرات والهوام!.. وقضى هناك النهار والليل، يختبر - عمليًّا - صدق ما سمع من معلومات.. وأرسل أعوانه فباتوا في مختلف القرى القريبة من هذا المكان.. وفي الصباح اجتمع بهم، وسمع منهم، وشاورهم في صلاحيات المكان؛ كي يكون موضعًا للعاصمة!.. ثم درس مع مستشاريه الميزات العسكرية للموقع، فعنده يكون اقتراب نهر دجلة من نهر الفرات، حيث يكون الفاصل أربعين كيلو مترًا، الأمر الذي يجعل النهرين مانعين طبيعيين يحميان بغداد!.. ودرس كذلك ميزات المكان في التجارة والاقتصاد.. ولقد علم أن هذا الموقع كان - منذ الحضارة والدولة السامرية القديمة - مركز التقاء التجارة الصحراوية.. وهو الآن معبر للتجارة القادمة من الصين، كما أن طرق الإمدادات مفتوحة بينه وبين أقاليم الجزيرة وأرمينية، وكذلك الحال مع الرقة والشام، وله إمكانات المواصلات البرية والنهرية معًا.. وأيضًا فإن هذا الموقع يتوسط عددًا من أهم مدن العراق، مثل: البصرة، وواسط، والكوفة، وإقليم «السواد» الذي تتركز فيه الثروة الزراعية!..

وعندما استقر رأي المنصور ومستشاريه على هذا الموقع، وقرر التنفيذ، جمع المهندسين والصناع والعمال من مختلف المدن والأقاليم، بل وجمع كذلك عددًا من المفكرين والعلماء والفقهاء وأهل العدل والصلاح والتقوى؛ كي يشاركوا في بناء عاصمة الدولة ومستقر حضارة الإسلام!.. وذكر المؤرخون أن الذي تولى الإشراف على « ضرب » الطوب الذي بنيت به بغداد وقام بعده، وباشر عملية البناء كان هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان!..

وبعد أن خطط المهندسون - بالرماد، على الأرض - صورة المدينة، تجول المنصور في ربوع التخطيط!.. ثم أعطى إشارة البدء بالتنفيذ، ووضع بيده أول لبنة في بنائها، قائلًا: باسم اللّـه، والحمد للّـه، والأرض للّـه يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.. ابنوا على بركة اللّـه!.. وكان ذلك سنة (١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) ..

وفي البداية قامت بغداد على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة.. وبعد ست سنوات (١٥١ هـ / ٧٦٣ م) أنشأ المنصور حي « الرصافة » على الضفة اليسرى لدجلة، تجاه حي « الكرخ » القائم على الضفة اليمنى، فقامت « المدينة المدورة» يتوسطها قصر الخليفة، وبجواره المسجد الجامع، ويحيط بها سوران، أحدهما داخلي والآخر خارجي، وجعل لها أربعة أبواب، سميت بأسماء الجهات التي تواجهها:

(١) باب خراسان.

(٢) وباب الكوفة.

(٣) وباب الشام.

(٤) وباب البصرة..

وحول قصر الخلافة والمسجد الجامع والدور التي قامت لمجالس الخلافة وجهاز الدولة قامت الأحياء (الأرباض) وبنيت المنازل والمنشآت ..

ورغم أن أرض بغداد تعلو سطح البحر باثنين وثلاثين مترًا، إلا أن حرها ملحوظ؛ ومن ثم عرفت وسائل عدة للتغلب على هذا الحر.. فالمنصور قد بنى « القبة الخضراء » على ارتفاع يزيد عن ثمانين ذراعًا؛ ليشرف منها على المدينة وبساتينها!.. وفي شوارعها امتدت الجداول والقنوات تظللها الأشجار وتحيط بها الحدائق الغناء، وتناثرت في أفناء بيوتها أحواض المياه التي ترتفع من فوقها القباب المنقوشة والمزخرفة.. حتى لقد قال أحد المستشرقين - آدم متز -: « إن بغداد كانت شبيهة بمدينة البندقية بإيطاليا! »... بل لقد اتخذ أهلها- كي يبعدوا الحر عن مجالسهم - الأسراب والأنفاق تحت الأرض!..

وكانت منازل الأثرياء والخاصة ثلاثة أقسام: للنساء « مقاصير الحرم »، وللخدم «حجرات » وللرجال « مجالس السلام »، ويطوف بهذه الأقسام سور يجمعها.. أما منازل العامة والشعب فلا أقسام بها، وليس لها أسوار!..

وفي بغداد تناثرت المنشآت التي نلمح في عمارتها وزخرفتها

فن الفرس الذي طوعه الذوق العربي، ودخل به إلى حيث أصبح بعضًا من نمط العمارة والزخرفة والفن في حضارة العرب الإسلامية.. ولقد بلغت جوامعها الكبرى أحد عشر جامعًا.. أما مساجدها فلقد بلغ عددها ٢٧,٠٠٠ مسجد!.. وتناثرت فيها الأسواق والحمامات والمكتبات وأحياء الحرف والصناعة والوكالات والخانات وتكايا الصوفية، وخلوات العُبّاد، ومنتديات الأدب، ودور العلم والحكمة والترجمة والمدارس، كذلك دور اللهو والمتنزهات!.. وفي مسجد الخيزران، الذي بنته زوجة الخليفة المهدي كانت تضيء قناديل الذهب والفضة التي بلغت ثلاثمائة قنديل! ولقد رصعت صحنه بأحجار سوداء شديدة اللمعان، تعكس صور من عليها كأنها المرآة!.. وعلى أحجار الجدران ومسطحاتها رسم الفنانون ثمرات التفاح، والغصون، والأزهار، حتى كان المصلي يشعر أنه يصلي في حدائق غناء وبساتين زاهية مزهرة! ..

وبين الكرخ والرصافة كان الناس ينتقلون بالقوارب والسفن، عبر نهر دجلة، ولقد كثرت في مياهه السفن التي عرفت « بالسميريات » - نسبة إلى أهل سميرة - حتى لقد بلغ عددها في زمن الخليفة الموفق (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ - ٨٩٢ م) ثمانين ألفًا، وكان أصحابها يربحون منها في اليوم الواحد تسعين ألف درهم!.. ولقد كانت هذه السفن - في المناسبات - تغطي كل سطح النهر، بين أحياء بغداد، فكان باستطاعة الناس العبور من إحداها إلى الأخرى، وهكذا حتى

يبلغوا الشاطئ الآخر، وكأنهم يعبرون الطريق!.. وكان للأثرياء قواربهم وسفنهم الخاصة، كما تفنن الخلفاء والسراة في أشكالها، فحاكت صور الحيوانات: الأسد، والفيل، والعقاب، والحية، والفرس، والدلفين (دابة بحرية ضخمة وسمينة) على نحو ما صنع الخليفة الأمين (١٧٠ –١٩٨ هـ/ ٧٨٧ - ٨١٣ م)..

وإذا كان وجه بغداد قد عرف - في البداية - ملامح فارسية، بسبب الدور الذي لعبه الفرس في قيام الدولة العباسية، فإن وجهها العربي قد تألق منذ عصر هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٩م)، وخاصة بعد تخلص الدولة من أسرة البرامكة الفارسية (١٨٧هـ/ ٨٠٣م).. وهو الوجه الذي قدمته للعالم، عبر الحضارات واللغات والقرون، قصص (ألف ليلة وليلة)!..

لقد أصبحت بغداد عاصمة للخلافة العباسية، وهي الخلافة التي شهد عصرها ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ومن هنا تمثلت في بغداد، وتجسدت في نشاطاتها ملامح هذه الحضارة وقسماتها..

* فالثراء والغنى الذي جعل هارون الرشيد يحدث السحب في السماء، فيقول لها: سيري حيث شاءت الريح، وأنزلي مطرك في أي مكان.. ففي النهاية سيأتي ما يثمره ماؤك إلى خزائني!.. هذا الثراء جعل بغداد مركز مال الدنيا وتجارتها لعدة قرون.. فالتجارة تمر عبرها من الهند وجزرها، ومن الصين إلى آسيا

الصغرى فأوربا.. وهي مركز لإنتاج الحرير، والفسيفساء.. إلخ..إلخ.. حتى لقد كان بها أحياء للحرف والصناعات والحرفيين والصناع، وحتى لقد رأينا الكثير من أعلام الفكر فيها ينتسبون - بالأسماء والألقاب - إلى الحرف والصناعات..

* وبينما كانت الدنيا - وراء حدود العرب المسلمين - تنام في عصور جهالتها المظلمة، كانت الحضارة العقلانية المستنيرة تسطع شموسها في بلاد العروبة والإسلام.. وكان ذلك أشد ما يكون وضوحًا وتألقًا في بغداد..

ففيها كانت طلائع الفكر القومي العربي، الذي قال رواده - من أمثال الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ / ٧٨٠ - ٨٦٩ م)-: إن العروبة حضارة إنسانية المضمون، وإنها ليست عصبية عرقية ولا تعصبًا للنسب.. وإن العادات، والأخلاق، واللغة، والتربية روابط تؤلف بين الناس، بصرف النظر عن الأنساب القديمة التي سبقت عصر التعريب..

وفيها تبلور الاتجاه العقلاني في الحضارة العربية الإسلامية، فرأينا عقلانية متميزة، لا تنكر الوحي والدين، وإنما توفق بين الدين وبين الفلسفة، فمقام العقل فيها في القمة، مع اهتمام كبير بعقيدة الأمة وتراثها الديني.. حتى لنستطيع أن نقول: إن بغداد قد « سكَّت » عملة الحضارة العربية، وعلى أحد وجهيها العروبة، وعلى الوجه الآخر: العقلانية!..

وفيها ازدهرت الترجمة عن اللغات الأخرى، فدخل إلى اللغة

العربية فكر اليونان، والفرس، والهنود، والسريان إلخ.. إلخ.. وكان « بيت الحكمة » الذي أقامه الخليفة المأمون (١٧٠ – ٢١٨هـ/ ٧٨٦ – ٨٣٣م) أكبر وأشهر مجمع علمي عرفته الدنيا في ذلك التاريخ..

وفيها كانت للمكتبات – محلات الوراقة – صناعة وصناع وشوارع وبنايات!.. وفيها كانت المساجد، وقصور الأمراء والسراة حلبات للمناظرات الفكرية، حيث تصارعت الأديان والمذاهب، وتعددت الفرق والتيارات!.. وفيها قامت المدارس.. بل لقد كانت أغلب مساجدها مدارس، قامت فيها مجالس أعلام العلماء تشع النور لعدة قرون!..

وإليها جاءت كنوز الفكر التي جهلها وارثوها، فأنبتت وأثمرت، واكتسبت الإضافات التي جعلت لها مضمونًا جديدًا وشكلًا فريدًا.. ثم خرجت حضارة جديدة تجتهد كي توقظ الغافلين خلف حدود العرب والإسلام!..

لكن بغداد التي عرفت « التقدم » أصابها – في فترات أخرى – « التراجع »!.. والعاصمة التي كانت تجسيدًا « للازدهار » أصابها « الذبول » زمنًا غير قصير!..

* فلقد خيل لواحد من خلفائها – المعتصم – أن الاعتماد على الجند المماليك المجلوبين من أواسط آسيا سيضمن للدولة جيشًا طيعًا، لا يتكون من أناس هم طرف في الصراعات التي كانت قائمة على الساحة الداخلية.. لكن سرعان ما وضح خطر

هذا الخطأ.. فلقد زادت قوة تلك المؤسسة العسكرية المملوكية، حتى بسطت نفوذها على منصب الخلافة، بدلًا من أن تكون أداة بيد الخلافة!.. ولما كانت هذه المؤسسة « جندًا - عسكرًا » فقد كانت تنفر من الفلسفة والعقلانية!.. ولما كانت غريبة - قوميًّا - عن الأمة، فلقد أهملت قسمة العروبة في الحضارة!.. ومن ثم رأينا تراجع « العروبة - والعقلانية » - وهما أبرز قسمات الحضارة العربية الإسلامية - عن مكانهما منذ أن سيطر المماليك على بغداد في عصر الخليفة المتوكل (٢٤٧هـ/ ٨٢١ - ٨٦١م) فبدأ بتراجع بغداد جمود الحضارة العربية وتراجعها!.. حتى لقد انتقلت العاصمة من بغداد إلى تلك المدينة التي بنيت كي تكون معسكرًا لهؤلاء المماليك، وهي « سامراء » (٢٢١هـ/ ٨٣٦ م).. ولقد بنيت سامراء معسكرًا يتبع بغداد، وشحنت بالجند المماليك لخدمة خليفة بغداد، ولكن الريح غيرت الاتجاه، فأصبح الجند المماليك هم السلطة الفعلية؛ ومن ثم غدت « سامراء » هي العاصمة بدلًا من بغداد؟!.. وحتى عندما عادت بغداد مقرًّا للخلافة، في عهد الخليفة المعتمد (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فإن ازدهارها الحضاري لم يعد كما كان، ولا حتى قريبًا مما كان!..

* وبعد أن كان سلطان بغداد ممتدًّا على عالم الإسلام، من المحيط الأطلسي إلى الصين.. ذبل هذا السلطان، فقامت الدويلات في الأطراف، واستطاعت الدولة الفاطمية - بعد فتحها لمصر - أن تجمع حول القاهرة معظم أجزاء الوطن

العربي، وتحدى الشاعر الفاطمي ابن هانئ الأندلسي بني العباس، فقال:

يقول بنو العباس: هل فتحت مصر؟

فقل بني العباس: قد قُضي الأمر!

وبانحسار سلطان بغداد دب الوهن إلى داخلها، فعرفت الفتن الطائفية، وخاصة بين السنة والشيعة، حتى لقد راح ضحيتها (٣٦١ هـ/ ٩٧١ م) سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة منشأة تجارية، وثلاثة وثلاثون مسجدًا، ومن الأموال ما لا يقع تحت الحصر، وجاء عليها حين من الدهر سيطر عليها فيه اللصوص، وقاسمهم قادة جندها المغانم والمنهوبات!... ويحكي المؤرخون كيف استطاع اللص « بني حمدي » بالتواطؤ مع « ابن شيرزاد » كاتب القائد التركي « توزون » (٣٣١هـ / ٩٤٢م) السيطرة على المدينة، فأفزع أهلها حتى كان الناس يحرسون منازلهم ومتاجرهم ليلًا وفي أفواههم الأبواق! وعز عليهم النوم مخافة اللصوص، وأقفرت المنازل وخلت الدور من سكانها، حتى كان ملاكها يدفعون أجرًا لمن يسكن بها كي يحفظها من اللصوص؟!..

* وعندما بلغ أمر بغداد إلى هذا الحد أصبحت لقمة سهلة للدويلات التي قامت من حولها.. فخضعت للدولة البويهية (٢٢٢ هـ/ ٩٤٥ م)، ثم للدولة السلجوقية (٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م).. إلخ.. إلخ ثم كانت كبرى نكباتها عندما دمرها

المغول على عهد هولاكو، في العشرين من محرم (٦٥٦هـ)، ٢٧ يناير (١٢٥٨م) وقتلوا خليفتهم المستعصم بالله، وأزالوا منها خلافة بني العباس.. ولما عادت كمدينة تستأنف سيرها عادوا فدمروها ثانية على عهد تيمور لنك (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م).. ثم ما لبثت أن خضعت لحكم الدولة الصفوية الفارسية عندما غزاها الشاه إسماعيل الصفوي (٩١٤ هـ /١٥٠٨م)... ثم كانت نهاية مطاف التراجع والتردي سقوطها في قبضة الأتراك العثمانيين (٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م)... فتبادلوا حكمها مع الصفويين الفرس، والمماليك، حتى استولى عليها الإنجليز (١٩١٧م)؟!.. وبقيت كذلك حتى تحررت بالثورة المعاصرة والحركة الوطنية الحديثة!..

وطوال هذه الفترات التاريخية التي تراجعت فيها السلطة العربية القوية من بغداد - شكلًا ومضمونًا، أو مضمونًا مع الاحتفاظ بشكلها - تراجعت كذلك قسمات الحضارة ومظاهر الازدهار عن بغداد..

* فعندما زارها الرحالة ابن جبير (٥٣٩ - ٦١٤ هـ/ ١١٤٥ - ١٢١٧م) كانت الخلافة العباسية لا تزال قائمة بها، ولكنها كانت تحت تسلط الدول التي تغلبت على الأطراف.. فوصف ابن جبير - في رحلته - قصور بني العباس ودورهم التي تغطي ربع بغداد - أو أزيد - وقال: « إن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلون اعتقالًا جميلًا، لا يخرجون، ولا يظهرون، ولهم المرتبات؟!».. وعندما استحضر ابن جبير أوصاف بغداد

التي كتبها المؤرخون القدامى، وقارنها بما يرى، كتب يقول: «... وهذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية، إلا أنه قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها. وهي - بالإضافة إلى ما كانت - كالطلل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص!.. أين هي مما كانت عليه؟! هي اليوم داخلة في قول الشاعر.

لا أنت أنت ولا الديار ديار!

وكذلك رآها وتحدث عنها الرحالة ابن بطوطة عندما زارها (٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م)، وأورد في رحلته شعرًا لإمامها القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر، يتحدث فيه عن أن بغداد قد غدت مدينة للقلة الغنية، وأن الشعب والعامة قد أصبحوا فيها غرباء، كأنهم « مصحف في بيت زنديق »!!

بغـداد دار لأهـل المـال واسعة

وللصعاليك دار الضنك والضيق

ظللت أمشي مضاعـًا في أزقتها

كأنني مصحف في بيت زنديق!

وتحت الحكم العثماني بلغ تراجع بغداد وتخلفها حد المأساة!... ونحن إذا تصفحنا أوصافها من خلال كتب الرحلات التي كتبها الرحالة الذين زاروها خلال تلك الحقبة رأينا كيف تجاور فيها وتحالف عليها: السفه التركي!.. والفقر الفكري!.. والتخلف

العمراني!.. وكيف أصبحت - في النهاية - « مخزنًا » للتجارة التي سيطر عليها الأجانب، وخاصة شركة الهند الشرقية الإنجليزية، الأمر الذي جعل الاستعمار الإنجليزي هو الوارث لحكم الأتراك وسيطرتهم في بغداد!..

فبعد أن كانت منارة لدور العلم ومدارسه، ومراكز الترجمة والحكمة، وحلبات المناظرة والبحث.. انتشرت فيها تكايا الصوفية، من « قادرية » و « وبكتاشية »، و « مولوية »، و « رفاعية » و« نقشبندية » و « قلندرية » و « شاكرية »!.. وبعد أن كانت مضرب الأمثال في أسواق الوراقة (الكتب) أصبحت خالية من أية مكتبة أو مكان لشراء الكتب، حتى إن من كان يريد أن يشتري فيها كتبًا كان عليه أن ينتظر حتى يموت واحد من حائزيها، فعند ذلك تباع كتبه بالمزاد، وينادى عليها مثل الملابس القديمة!... وبعد أن كانت مركزًا للعلماء، يفد إليها طلابه من كل مكان ندر فيها من يعرف القراءة والكتابة!... حدث لها ذلك الفقر في الفكر والتعليم، على حين كثرت فيها المقاهي حتى بلغت في (١١٧٩هـ/ ١٧٦٦م) قرابة الألف مقهى، ونصف هذا العدد طلبات يريد أصحابها فتح مقاهي جديدة؟!...

أما قصور الولاة الأتراك والحكام المماليك فإن البذخ الذي بلغ فيها حد السفه كان هو الوجه الآخر « لعملة تخلف بغداد ».. وفي القرن التاسع عشر (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م) يصف أحد الرحالة تقديم التحية للزائرين في قصر داود باشا حاكم

بغداد: «... فالحلوى تقدم في إناء ذهبي، يحمله خادم بيد، وباليد الأخرى يمسك بملعقة من ذهب أيضًا، يضع الحلوى في فم الزوار، وبعد ذلك توضع مناشف من الحرير على ركبتي كل زائر، وتقدم القهوة، وبعد الانتهاء منها تستبدل المناشف الحريرية، بمناشف من « الموسلين » جميعًا مطرزة!.. ويقدم الشربات في أقداح جميلة وثمينة. وبعد الانتهاء من كل هذه الأشياء يصب على أيدي الحضور ماء الورد من أبريق من الفضة!. وبعد ذلك يوزع العطر فيوضع على لحية كل زائر وعلى شاربيه؟!».

أما صناعة بغداد فقد وقفت عند « أنسجة المناديل الحريرية » التي يشتريها زوار « العتبات » الشيعية المقدسة.. كما تحكمت شركة الهند الشرقية الإنجليزية في تجارتها، فزاد عدد السفن التجارية التي ترفع العلم الإنجليزي، وقامت بها المنشآت التجارية الإنجليزية، وامتدت عبرها خطوط البريد التي تأتي من الهند إلى إنجلترا؛ ولذلك لم يكن غريبًا ما تحدث عنه الرحالة من أن أوسع منازل بغداد وأكثرها راحة (١٢٣١ هـ - ١٨١٦م) كان هو القنصلية الإنجليزية، التي يحرسها الجنود الهنود!.. وأن القنصل الإنجليزي - المستر ريج - كان هو أقوى رجل ببغداد!..

ولقد بقيت بغداد طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يتبادل السيطرة عليها الأتراك العثمانيون..والمماليك الذين نجحوا في الاستقلال بحكمها عن الأتراك العثمانيين.. وخلال فترات استقلالها عرفت ما عرفته مصر في ظل حكم محمد علي باشا،

فصارعت نفوذ شركة الهند الشرقية، الإنجليزية، وطمحت في الإصلاحات.. لكن تبعيتها للعثمانيين سرعان ما كانت تباعد بينها وبين الإصلاحات، وتفتح المزيد من الثغرات أمام نفوذ الإنجليز!..

لكن بغداد لم تكن سلبية باستمرار أمام العواصف التي هبت على حضارتها وتقدمها.. فعرفت العديد من التمردات والانتفاضات، وشارك أهلها في الكثير من الهبَّات الثورية، ودفعوا على درب الثورة والتمرد غالي الثمن، وقدموا الكثير من التضحيات..

* ففي (٢٠١هـ / ٨١٧ م) ابتليت المدينة بالجند الخارجين على النظام، فعاثوا فيها فسقًا وفسادًا، سلبًا ونهبًا، وتحالف معهم « الشطار »، وصاروا جميعًا سند السلطة وبطانتها وأعوانها!.. وأمام هذا البلاء اشتعلت ببغداد ثورة للعامة والجماهير، انخرط فيها جمهور الناس متطوعين، حتى سماها المؤرخون « خروج - ثورة - المطوعة »!.. ومن جمهور الثوار تكونت القيادة التي قادت تلك الثورة التي استمرت عامًا كاملًا (رمضان ٢٠١هـ - شعبان ٢٠٢هـ)، ولقد تزعم هذه الثورة: أبو حاتم سهل بن سلامة الأنصاري، ومعه مجلس تكون من مندوبين عن جماهير ومتطوعي أحياء بغداد، وكان شعار الثورة: مصحف يعلقه الثوار في أعناقهم... وبرج من الجص عليه مصحف وسلاح يرفع على منازل الثوار!..

ولقد ضربت قيادة هذه الثورة مثلًا في الصمود - حتى بعد هزيمتها - فرفضت أن تستنكر تصديها « للشطار والفساق »، وظل الثوار رهن السجن حتى دخل الخليفة المأمون بغداد فحررهم من القيود وأكرمهم وقربهم من جهاز دولته..

* وفي مواجهة سيطرة الجند المماليك على الخلافة، في العصر العباسي الثاني، شهدت بغداد التمرد تلو التمرد، والانتفاضة تلو الانتفاضة.. وعندما كان أبناؤها يعجزون عن إعلان التمرد فيها، كانوا يخرجون إلى الأقاليم فيشعلون ثورتهم - ضد حكامها - من هناك!..

* وحدث ذلك أيضًا ضد الأتراك العثمانيين.. فبعد أن استعادوا سيطرتهم عليها (١٨٣١م) واجهتهم إحدى انتفاضاتها.. فلما هزموها وطاردوا قادتها إلى المنافي ظلت قطاعات واسعة من جماهير المدينة وثوارها يقاومون بالكلمة، وينتقدون استسلام المستسلمين لسيطرة الأجانب المستغلين... يشهد لهذا الشعر الذي يقول فيه أحد هؤلاء الثوار- في المنفى - وهو: عبد الغني الجميل زاده:

أجـول بطرفـي في العـراق فـلا أرى
من الناس إلا مظهر البغض والشحنا
فـخـير لـلأجنبـي وقـبـحـهـم
علـى بعضهم بعضًـا يعـدونـه حسنا

طوينا على الزوراء لا درَّ درها
بساطا متى ينشر يعدونه طعنا
وإني وإن كنت ابنها ورضيعها
فقد أنكرتنا، لا سقاها الحيا مُزْنا!

* وعندما اتسعت الثغرات التي نشأت عن الحكم العثماني لبغداد، فغدت أبوابًا مد منها الإنجليز نفوذهم إلى مقدراتها، كان إسهام أهلها في حركة اليقظة العربية الحديثة التعبير عن ذلك الإحساس الذي تَمَلَّك العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو أن « العروبة المتحررة » هي طوق النجاة لهذه الأمة من التخلف العثماني الذي فتح الباب للاستعمار الأوربي الحديث.. فقام ببغداد (١٩٠٩م) فرع (للمنتدى الأدبي) الذي قام بالقسطنطينية، والذي كان من بواكير التنظيمات القومية العربية التي عَبَّر من خلالها المفكرون والأدباء عن التمايز القومي العربي والطموح في الإصلاح.. كما تأسس فيها (النادي الوطني العلمي).. وكذلك شهدت نشاطًا (لجمعية العهد) التي تكونت من الضباط العرب - وخاصة العراقيين - في الجيش العثماني، وسعت إلى إيقاظ الأمة العربية، واستقلالها عن الأتراك العثمانيين.

لكن الاستعمار الغربي الذي حرس شيخوخة الدولة العثمانية « دولة الرجل المريض » حتى يرثها، كان قد قرر الإجهاز عليها في أثناء الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها.. فوزع - فيما بينه -

في اتفاقية « سيكس - بيكو » (١٩١٦م) الولايات العربية العثمانية، وكانت بغداد ضمن المناطق التي قرر الإنجليز احتلالها.. وتم لهم ذلك في ١١ مارس (١٩١٧م)، فتحول العراق إلى أحد أقاليم الانتداب الإنجليزي؟!.. بعد أن كان منطقة نفوذ لشركة الهند الشرقية، الإنجليزية؟!..

غير أن بغداد عادت إلى الثورة تقاوم بها الاحتلال الإنجليزي، فثارت في آخر أبريل (١٩٢٠م)، وطالب أعيانها وقادة الرأي فيها بعقد جمعية وطنية عراقية تقرر مصير البلاد ومستقبلها.. ثم تصاعدت الثورة في ٣٠ يونيو (١٩٢٠م)، واستمرت إلى قبيل ربيع (١٩٢١م).. وحتى يهدئ الإنجليز من حدة الثورة، قرروا أن يكون حكمهم من وراء واجهة حكم عربية، فأحضروا الأمير فيصل بن الحسين إلى بغداد في ٢٩ يونيو (١٩١٢ م)، ونصبوه ملكًا على العراق في ٢٢ أغسطس من نفس العام..

وفي ظل هذه الواجهة العربية انتخبت « جمعية تأسيسية » اجتمعت في ٥ مارس (١٩٢٢م)، وصادقت في ٣٠ أبريل (١٩٢٣ م) على المعاهدة « العراقية - الإنجليزية » التي قننت الانتداب الإنجليزي على العراق!... ثم حصل الإنجليز على امتياز استخراج البترول في كركوك!..

ومنذ ذلك التاريخ، وخاصة بعد أن حصلت العراق على عضوية (عصبة الأمم) في ٣ أكتوبر (١٩٣٢م)، ظل الصراع محتدمًا بين الحركة الوطنية في بغداد خاصة، والعراق عامة، وبين

النفوذ الإنجليزي في البلاد.. الشعب يطمح للحرية، ويناضل في سبيل الاستقلال.. والإنجليز يسعون لتثبيت أقدامهم وتأبيد نفوذهم في البلاد، ويغرون أنصارهم بعقد المعاهدات التي تقنن هذا النفوذ.. ولقد نجحت انتفاضة الشعب في بغداد (١٩٤٨م) في أن تسقط مشروع معاهدة « بورت سموث » الذي أراده الإنجليز وأنصارهم بديلًا لمعاهدة (١٩٣٠م).

وظل المد والجزر بين الطرفين قائـمًا؛ لبقاء النفوذ الاستعماري بواسطة العملاء، حتى كانت ثورة العراق التي حررت بغداد من الاستعمار وعملائه في (١٩٥٨م).. والتي أعادت لبغداد وجهها العربي الناصع، فغدت من جديد البوابة الشرقية للأمة العربية، والحارس الساهر على عروبة العراق والخليج...

وهكذا أثبتت بغداد - من خلال مسيرتها مع الحياة والأحياء - أن جودة المعدن وصلابته كفيلة بدحر التحديات.. ولذلك عادت المدينة التي نشأت نموذجًا للحضارة العربية في عصورها الأولى.. عادت لتسهم في تجديد هذه الحضارة في عصرنا الحديث.

***



- آدم ميتز: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، طبعة بيروت (١٩٦٧م).

- إبراهيم أنيس (دكتور): (من أسرار اللغة)، طبعة القاهرة (١٩٥٨م).

- ابن أبي الحديد: (شرح نهج البلاغة)، طبعة القاهرة (١٩٥٩م).

- ابن الأثير: (الكامل في التاريخ)، طبعة القاهرة.

(التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية)، طبعة القاهرة (١٩٦٣م).

(أسد الغابة)، طبعة دار الشعب، القاهرة.

- ابن بطوطة: (رحلة ابن بطوطة)، طبعة دار التحرير، القاهرة.

- ابن جبير: (رحلة ابن جبير)، طبعة دار التحرير، القاهرة.

- ابن حنبل: (المسند)، طبعة القاهرة (١٣١٣هـ).

- ابن خلدون: (المقدمة)، طبعة القاهرة (١٣٢٢هـ).

(العبر)، طبعة بيروت.

- ابن سعد: (الطبقات)، طبعة دار التحرير، القاهرة.

- ابن الصيرفي: (الإشارة إلى من نال الوزارة)، طبعة القاهرة (١٩٢٤م).

- ابن عبد الحكم: (فتوح مصر وأخبارها)، طبعة ليدن (١٩٢٠م).

- ابن عبد ربه: (العقد الفريد)، طبعة القاهرة (١٩٤٨م).

- ابن عساكر: (تهذيب تاريخ ابن عساكر)، طبعة دمشق.

- ابن كثير: (البداية والنهاية)، طبعة القاهرة.

- أبو شامة: (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، طبعة القاهرة (١٢٨٧هـ).

- أسامة بن منقذ: (الاعتبار)، تحقيق: د. فيليب حتى، طبعة برنستون (١٩٣٠م).

- أسد رستم: (الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي)، طبعة بيروت (١٩٢٩م).

- الأفغاني: (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة (١٩٦٨م).

- أمين سامي: (تقويم النيل)، طبعة القاهرة (١٩١٦م).

- إيلي ليفي أبو عسل: (يقظة العالم اليهودي)، طبعة القاهرة (١٩٣٤م).

- ألبرت برسوم: (سيناء مصرية أولًا وأخيرًا).

(الأهرام) (٧/ ١/ ١٩٧٤م).

- بروكلمان: (تاريخ الشعوب الإسلامية)، طبعة دار العلم للملايين، بيروت.

- بلنت: (التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر)، طبعة القاهرة، الثانية.

- الجاحظ: (البيان والتبيين)، طبعة بيروت (١٩٦٨م).

(رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة القاهرة (١٩٦٤م).

- الجبرتي: (عجائب الآثار)، طبعة القاهرة (١٩٦٦م).

- جورج كيرك: (موجز تاريخ الشرق الأوسط)، طبعة الألف كتاب، القاهرة.

- الرافعي: (تاريخ الحركة القومية)، طبعة القاهرة (١٩٥٥م).

- زامباور: (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي)، طبعة القاهرة (١٩٥١م).

- الزركلي: (الأعلام)، طبعة بيروت.

- ستانلي لينبول: (سيرة القاهرة)، طبعة القاهرة (١٩٥١م).

- الطبري: (التاريخ)، طبعة دار المعارف، القاهرة.

- عبد القادر المغربي: (جمال الدين الأفغاني)، طبعة دار المعارف، القاهرة.

- علي مبارك: (الخطط التوفيقية)، طبعة القاهرة، الأولى.

- فيليب حتى (دكتور): (تاريخ العرب) - مطول - طبعة بيروت (١٩٥٣م).

- القلقشندي: (صبح الأعشى)، طبعة القاهرة.

- لوتسكي: (تاريخ الأقطار العربية الحديثة)،طبعة موسكو (١٩٧١م).

- محمد رشيد رضا: (تاريخ الأستاذ الإمام)، طبعة القاهرة (١٩٣١م).

- محمد عبد الله عنان (دكتور): (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية)، طبعة القاهرة (١٩٥٩م).

- محمد عبده (الإمام): (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة (١٩٩٣م).

- محمد عمارة (دكتور): (إسرائيل.. هل هي سامية)، طبعة القاهرة (١٩٦٧م)

(عندما أصبحت مصر عربية)، طبعة بيروت (١٩٧٤م).

(معارك العرب ضد الغزاة)، طبعة بيروت (١٩٧٥م).

(المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، طبعة بيروت (١٩٧٢ م).

- محمد فؤاد عبد الباقي: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، طبعة دار الشعب، القاهرة.

- محمد مختار المصري: (كتاب التوفيقات الإلهامية)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت (١٩٨٠م).

- المسعودي: (مروج الذهب)، طبعة القاهرة (١٩٦٦م).

- المقريزي: (الخطط)، طبعة دار التحرير، القاهرة.

(إغاثة الأمة بكشف الغمة)، طبعة القاهرة (١٩٤٠م).

(اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا)، طبعة القاهرة (١٩٦٧م).

- مكسيموس مونروند: (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق)، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبعة القدس (١٨٦٥م).

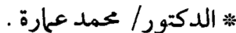
- النويري: (نهاية الأرب)، طبعة القاهرة.

- مجموعة من المستشرقين : (دائرة المعارف الإسلامية)، الطبعة العربية، الثانية، القاهرة.

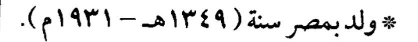
* * *



السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلْمُؤَلِّف


* الدكتور/ محمد عمارة .

* مفكر بارز واكب الحركة الفكرية المعاصرة ونفذ إلى أعماقها.


* ولد بمصر سنة (١٣٤٩هـ - ١٩٣١م).

* درس بالأزهر تسع سنوات - حتى نهاية المرحلة الثانوية - ثم في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - ومنها نال درجة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية .

* أنجز دراساته العليا بكلية دار العلوم - في الفلسفة الإسلامية، وكانت أطروحته للماجستير عن (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، أما موضوع الدكتوراه فكان عن (الإسلام وفلسفة الحكم).

* متفرغ للعمل الفكري، قدم للمكتبة العربية الإسلامية أكثر من ١٠٠ كتاب - ما بين تأليف وتحقيق لتراثنا - القديم منه والحديث - وتبرز في أعماله الفكرية اهتماماته بقضايا الفكر

الإسلامي المتنوعة قديمها وحديثها، وكذلك قضايا التراث الفكري والفلسفي والحضاري - في محاولة جادة للإسهام في صياغة المشروع الحضاري العربي الإسلامي البديل عن مشروع التغريب، كما تتميز كتاباته بالنظرة النقدية لتراث حقبة التراجع والجمود في تاريخنا الحضاري، وبقراءة جديدة لأصولنا الفكرية في ضوء متغيرات العصر، وبمنطق الأصالة الإسلامية المعاصرة المتميزة.

* من أهم كتبه: الأعمال الكاملة لرواد عصر النهضة، الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي، كما كتب في (الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري) و(الإسلام وحقوق الإنسان) و(الغزو الفكري وهم أم حقيقة) و(الطريق إلى اليقظة الإسلامية) و(العلمانية ونهضتنا الحديثة) و (الإسلام والمستقبل) و (الاستقلال الحضاري).

***

رقم الإيداع
١٠١٢١ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي I. S. B. N
977 - 342 - 746 - 3

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب:** ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من اجل تواصل بناء بين الناشر والقارئ)

- **ما رأيك في سعر الكتاب ؟** □ رخيص □ معقول □ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

- **هل صادفت أخطاء طباعية أثناء قراءتك للكتاب ؟**

□ لا يوجد □ نادرًا □ يوجد أخطاء مطبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ ....

....

....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

الكِتَابُ فِي سُطُورٍ

إن « قـراءة » التاريـخ تضيـف إلى عمْـر القارئين أعمار السابقين، أما « الوعي » بالتاريخ فإنـه يوظـف ثمـرات هـذه القـراءة في تغييـر الواقـع.. واستشراف المستقبل؛ ولذلك استحال التقدم... وانعدمت النهضة عند الذين لا يعون دروس وعبر وعظات التاريخ! وحتى لا نكون من هؤلاء السفهاء الذين ورثوا كنوزًا تاريخية وحضارية لا يعون قيمتها يصدر هذا الكتاب الذي يجعل من الوعي بالتاريـخ إسهامًا في صناعة التاريخ.



الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والتـ...

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغـ...

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ...٦٤٢

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (...

www.dat-alsalam.com info@dar-alsalam.com

